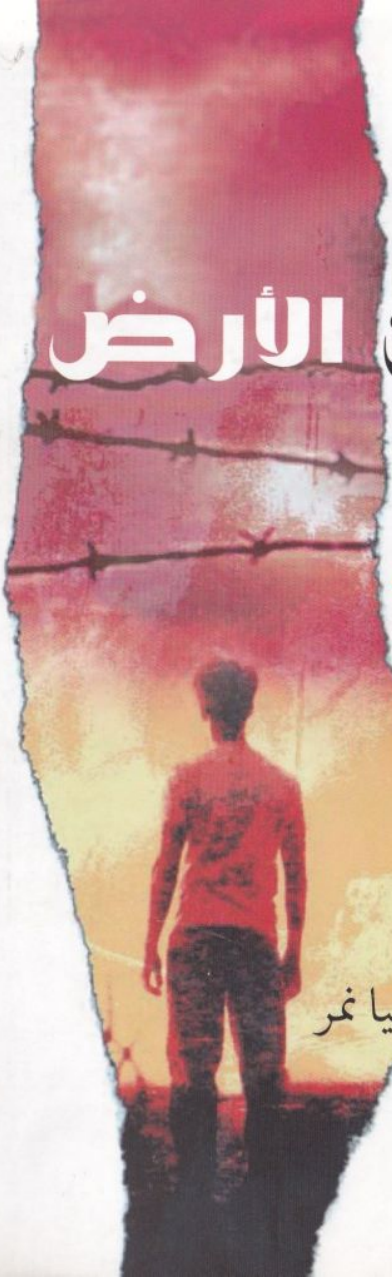

قطعة صغيرة من الأرض

مكتبة الرمحي أحمد
الكتاب ٩٠
@ktabpdf تيليجرام

اليزابيث ليرد سونيا نمر

أمام منزل آل عبودي في مدينة رام الله، وقفت دبابة إسرائيلية في عرض الطريق. أرغمت الفرق العسكرية السكان على البقاء داخل منازلهم لمدة أسبوعين على التوالي. كريم ابن الثانية عشرة لم يتمكن من لعب الكرة مع أصدقائه، كما أنه لم يستطع النجاة من إزعاج أخيه المراهق الذي يكاد يدفع به إلى حافة الجنون.

عندما رفع حظر التجوال، أكتشف كريم وأصدقاءه شيئا مذهلا- قطعة أرض تصلح بامتياز لأن تكون ملعبا جديدا لكرة القدم، ومكان اختباء مميز أيضا. لكن مخبأهم السري تحول إلى فخ مرعب ومميت عندما عاد الجنود من جديد مدججين بأسلحتهم...

قطعة صغيرة من الأرض

هي قصة مذهلة تروي تجربة طفل عادي يعيش حياته في منطقة تشهد صراعا قد يكون واحدا من أكثر النزاعات قسوة وإيلاما على وجه الأرض

الطبعة الأولى ٢٠٠٣ ماكميلان لكتب الأطفال باللغة الإنجليزية

قطعة صغيرة من الأرض

«لم يكن بمقدور أحد باستثناء إليزابيث ليرد أن يكتب هذا الكتاب. هي التي عاشت في الشرق الأوسط وعرفته عن قرب. شعرت بالمكان وأحبته، حزنت لأحزانه وتمنت له الخير وعندما نقرأ «قطعة صغيرة من الأرض» سنتمكن من فهم مشاعر المقهورين واؤلئك الذين يعيشون الخوف يوما بعد يوم. هي مشاعر لا بد لنا من التعرف عليها لأنها باتت مهيمنة على أرجاء عالمنا وسكانه.

« نتابع ما يحدث في فلسطين وإسرائيل من أعمال عنف وعنف مضاد عبر شاشات التلفاز ونتعامل معها عادة كما لو أنها قصص تلفزيونية درامية تبعدنا عنها مسافات. لكننا مع هذا الكتاب نسافر إلى رام الله ونعيش هناك، لم نعد مراقبين، بل أصبحنا كما ينبغي أن نكون جزءا من الأحداث ومتفاعلين معها

« كتاب جيد وجريء»

مايكل موربورغو، أدب الأطفال

مكتبة الرمحي أحمد

@ktabpdf تيليجرام

ملك القمامة

برج جاك

سماء حمراء في الصباح

عانق الغبار

أصدقاء خفيون

الاختباء

جاي

الأرض المحرمة

عندما بدأ العالم : مجموعة قصص من أثيوبيا

وسلسلة : أشياء برية

إهداء

إلى قيس، وجميع أطفال فلسطين

هذه قصة عن أولاد فلسطينيين يعيشون تحت الاحتلال العسكري الإسرائيليّ. إنها قصة تجربتهم الخاصة في زمان ومكان معينين، لكنّها تصوّر أيضا فظاعة الاحتلال أينما كان، والمعاناة الكبيرة التي يلحقها بالشعوب التي يحتلها، أو حياة البؤس التي يعيشها الجيل المحتل.

يقفُ الأولاد في هذا الكتاب، مدافعين عن كلِّ من يعيشون ظروفاً مشابهةً لظروفهم، وينجَحون، رغم كلِّ الصّعاب، في مواصلةِ شقِّ طريقِهم في الحياةِ والنَّماء.

جلسَ «كريم» على حافّة سريره، ورأسه محاط بصور لاعبي كرة القدم التي غطّت جدران غرفته، ممعناً النظر في الورقة التي في يده، ثم كتب في رأس الورقة:

أفضل عشرة أشياء أودّ القيام بها أو أن أكونها في حياتي

بقلم: «كريم» العابودي

إسكان يافا- رقم ١٥، رام الله- فلسطين

ووضع خطاً تحت ذلك بعناية شديدة

تحت العنوان، وبخطّ أنيق، حدد كريم قائمة أولويّاته:

- بطل العالم في كرة القدم (حتى أنا أستطيع الحلم).

- وسيماً، ذا شخصية جذابة ومحببة، مع قامة لا تقل عن متر و٩٠ سم (أو على الأقل أطول من قامة «جمال»).

- محرر فلسطين، وبطل قومي.

- مقدِّم برامج تلفزيونيّ شهير، أو ممثلاً (المهم أن أكون مشهوراً).

- أفضل مخترع لألعاب الكترونية جديدة.

- أن أكون مستقلا، مسموحا لي بأن أفعل ما يحلو لي، دون تدخل والديّ والأخوة الكبار والأساتذة باستمرار.

- مخترعاً لمادة كيماوية قادرة على إذابة الفولاذ المقوّى المستخدم في صناعة الدبابات والمروحيات العسكرية (الإسرائيلية).

- أقوى من جوني ومن أصدقائي الآخرين (هذا الطلب سهل المنال).

توقّف كريم، وعضّ على طرف قلمه، بينما سمع من بعيد صوت صفارة سيارة إسعاف. رفع رأسه صوب النافذة، وأطلّ منها بوجهه الصغير الذي لوّحته أشعة الشمس، وبجبهة غطّاها شعر ناعم داكن اللون، وعينين واسعتين داكنتين تقولان الكثير. عاد إلى ورقته ثانية وكتب:

- حيّاً! إذا كان لا بدّ من الإصابة برصاصة، فلتكن في أجزاء قابلة للشفاء، وليس في

الرأس أو العمود الفقري، إن شاء الله.

-.

خذله الرقم ١٠ قرّر في النهاية أن يتركَ المكانَ فارغاً، تحسّباً لما يمكن أن يستجدّ من أفكار في المستقبل.

أعاد قراءة ما كتبه. وجلس للحظات، ينقر بقلمه على قَبّة قميصه الرياضي المقلّم. سحب ورقة جديدة، وبسرعة راح يكتب:

الأشياء العشرة التي لا أرغب في أن أفعلها أو أكونها:

- طبيباً، كما ترغب أمي التي لا تنفكّ تكرّر ذلك على مسامعي. (لماذا وهي تعلم جيداً أني أكره رؤية الدم؟).

- قصير القامة.

- الزواج من فتاة مثل فرح.

- الإصابة برصاصة في ظهري، وأصبح حبيساً في مقعد متحرّك طوال حياتي، مثل ذلك الصبيّ في مدرستي.

- بثور على وجهي مثل تلك التي على وجه جمال.

- تدمير الدبابات الإسرائيلية لبيتنا، وينتهي بنا المطاف في خيمة بائسة.

- الاضطرار للذهاب إلى المدرسة.

العيش تحت الاحتلال، والتعرّض للمضايقة والتوقيف من قبل الجنود الإسرائيليين، والبقاء حبيساً داخل البيت، والخوف الدائم.

- ميتاً.

أعاد قراءة ما كتبه، فلم يعجبه كثيراً. لا تزال هناك أشياء أخرى هامة- ربما أكثر أهمية من هذه - إنه متأكد من ذلك.

سمع أصواتاً ترتفع في الخارج. هذا صوت أخيه «جمال» يتجادل مع أمه. سيأتي الآن إلى الغرفة، ويقطع عليه لحظات السلام الداخلي التي يعيشها. عليه أن يتصرّف بسرعة. انحنى وسحب من تحت سريره صندوقه الخاص لكي يخبئ فيه أوراقه، لكنّ

«جمال» الذي كان أسرع منه، اندفع داخل الغرفة قبل أن ينهي «كريم» مهمّته.

كان واضحا من النظرة الأولى أن جمال في مزاج سيء، وعيناه اللتان ظهرتا أسفل غرته السوداء كانتا تقدحان شرراً. حاول «كريم» إخفاء أوراقه خلف ظهره، لكن جمال انقضّ عليه وخطف الأوراق من بين يديه، وقال: ما هذا التكتم، وما الذي تحاول إخفاءه أيها المنافق الصغير؟

قفز «كريم» محاولاً استعادة أوراقه، لكن جمال، الذي كان طويلاً بالنسبة لشاب في السابعة عشرة، حمل الأوراق فوق رأسه، ليجعل وصول «كريم» إليها أشبه بالمستحيل. قفز كريم ثانية، وتشبث بحزام «جمال» الذي يلفّ خصر بنطاله، مصارعا إياه في محاولة لاسقاطه على سريره. لكن جمال تمكن بسهولة من صده بيد واحدة، رافعاً القائمة بيده الأخرى بعيدا عن متناول يد كريم، وبدأ قراءة ما فيها بصوت عالٍ. صمت «كريم»، وبوجهٍ محتقن، جلس ينتظر التعليقات اللاذعة التي توقّعَ أن تنهمر عليه بعد هذه اللحظة، وهكذا كان.

قال «جمال» ساخراً: بطل في كرة القدم؟ أنت! بقدميك اليسراويين؟ بالتأكيد أستطيع أن أتخيلك تسدّد ضربة في تصفيات العالم! أنت محرّر فلسطين؟ بهذا الدماغ الذي تحمله؟ أعني الذي لا تحمله!

كبت «كريم» غضبه، وفكّر للحظة، ثم أدرك أنه خاسر لا محالة في هذه المعركة مع «جمال». قرّر أن يتصنع الهدوء واللامبالاة، وقال: لا عليك، الغيرة جزء من المشاعر الطبيعية، وعندما تمتدّ شهرتي على صعيد العالم، سأكون جيداً معك، ولن أحاسبك على أيّ من أقوالك، ولن أحمل لك أية ضغينة بسبب ما قلته عن قدمي، لأنه أصلاً غير صحيح، ولأنني أستطيع أن أسدّد ضربات داخل مرمى الكرة، تماماً كما يفعل زين الدين زيدان، في أيّ وقت أشاء.

رمى «جمال» بالأوراق نحو «كريم» بعد أن ضاق ذرعاً بالنقاش الدائر وقال: لا بدّ أنك قادر على ذلك، بعد أن أمضيت السنة الماضية كلها وأنت تصوّب الكرة اللعينة نحو ذلك الجدار بالأسفل، مرات ومرات، دون توقف، حتى أثرت جنون جميع سكان البناية وغضبهم.

بعد أن ضاعت فرصته في اختلاق معركة مع أخيه الصغير، بدأ «جمال» تسديد ضربات بقبضته في الهواء، ثم ركل حذاء الرياضة الخاص بكريم، وأخذ يدور في

مكتبة الرمحي أحمد

الفسحة الصغيرة بين السريرين، التي تحولت في لحظة إلى حلبة ملاكمة مصغرة.

استدار «كريم»، وانطلقت عيناه عبر النافذة، ثم انحدر بصره مع طوابق البناية الخمسة، ليصل إلى الأرض، ثم إلى قطعة الأرض المقابلة التي سوّيت مؤخراً استعداداً لتشييد بناء جديد فوقها، لكنها حتى اللحظة لا تزال له وحده، فهي ملعبه الخاص، ومنطقته التي يدير فوقها مبارياته الخاصة.

ألصق «كريم» وجهه بزجاج النافذة، وبدأت قدماه تستعدان للتجاوب مع أفكاره. تمنّى بكلّ كيانه لو أنه واقف هناك في الأسفل، يقوم بما يُحبّ أن يقوم به: يضرب الكرة في اتجاه الجدار، وينسى نفسه في خضمّ الحدث: اضرب، سدّد، التقط الكرة، كعب القدم، توازن، دحرجة.

عندما سارت اللعبة كما يجب، عاد دماغه إلى حالة التوازن، أفرغ رأسه من من كلّ فكر، وأسلم القيادة ليديه وقدميه. هذا التناغم أعطاه إحساساً بالرضا والهدوء.

رمى «جمال» نفسه فوق سريره ومدّ رجليه الطويلتين على طول السرير، وقال: ابتعد عن النافذة حتى لا يروك ويصوبوا رصاصهم نحوك.

أدار «كريم» رأسه في الاتجاه المعاكس، حيث تتمركز دبابة إسرائيلية منذ عدة أيام عند مفترق الطريق المحاذي لبنايتهم. لقد تحركت من موقعها قليلا، واقتربت عدة أمتار أخرى. أحد الجنود يجلس فوق الدبابة متشبثاً ببندقيته، فيما وقف ثلاثة آخرون إلى جانب الدبابة، أحدهم كان منهمكا في الحديث عبر هاتفه الخلوي.

لن يتمكن أبداً من الخروج واللعب، طالما الدبابة تقف هناك، فمنذ حادث مقتل شخصين في أحد مقاهي إسرائيل، على يد مسلّح فلسطيني، والمدينة كلّها تخضع لنظام منع التجوال، والحصار التام. سكان رام الله محتجزون داخل بيوتهم للأسبوع الثاني على التوالي، باستثناء ساعة أو ساعتين في الأسبوع، حين يسمح لهم بالخروج لشراء حاجياتهم الضرورية. حظر التجوال مستمرّ ليلاً نهاراً، وإذا حاول أحد كسر هذا الحظر، وأخرج ولو قدمه خارج عتبة باب بيته، فسوف يستقبله رصاص الجنود، ويطيح بها. «جمال» على حقّ. فالوقوف أمام النافذة خطر.

ابتعد عن النافذة متألّما، وتمنّى لو أنه لم ينظر إلى ساحته، فقد جعله ذلك يتمنّى أن يكون في الخارج، ليتمكّن من الجري والقفز، ويؤرجح ذراعيه ويضرب بقدميه. عاد إلى مناكفة «جمال» قائلا: على أية حال، لم ألحظ حتى الآن مهاراتك الخاصة في إصابة الهدف.

التفت «جمال»، ونظر في عينيه قائلاً: ما الذي تحاول قوله بالتحديد؟

قال «كريم»، بعد أن استجمع شجاعته: أنت هداف فاشل، أنت تعلم ذلك. رأيتك ورفاقك تلقون الحجارة في اتجاه الدبابات في الأسبوع الماضي، وقد أخطأت الهدف في كلّ مرة. لا تحاول الادعاء أمامي أنك لم تكن تنوي إصابتها، لأنك كنت تحاول.

جلس «جمال» ودلّى رجليه على حافة السرير سعيداً. أعطاه «كريم» أخيراً المبرّر اللازم للدخول في عراك معه: أيّها الجاسوس الصغير، هل عدت لملاحقتي من جديد؟

اقترب من «كريم» ومدّ ذراعيه نحوه. ابتعد «كريم» في اتجاه مقدّمة سريره، فيما أسقط اللحاف الأحمر بقدميه، ذاتي الجوارب البيضاء. أسند ظهره إلى الجدار، ثم رفع يديه مستسلماً: ابتعد عني، لن أبوح لماما بما أعرفه، لن أفعل، إذا تركتني وشأني.

بدت تعابير وجه «جمال» أقرب إلى الرضا، مع بعض الحذر والتوجس، فواصل «كريم» قائلاً: ولن أقول لبابا أيضاً، إذا سمحت لي بساعة كاملة ومتواصلة على الحاسوب، دون مقاطعه منك. أقصد ساعتين!

تراجع «جمال» ممتعضاً، وشعر «كريم» بأن أخاه يبحث عن شيء حاد يقوله لينهي النقاش لصالحه، لكنه فشل. وبحركة واحدة من كتفه، اتجه جمال إلى الطاولة، وبدا ظهره محدّباً بعض الشيء. تناول سماعته الصغيرة ودسّها في أذنيه، ثم اندسّ داخل سريره بهدوء.

انطلق «كريم» نحو الحاسوب، منتشياً بالنصر الذي أحرزه. جلس أمام الطاولة التي احتلت المساحة بين السريرين، مصمّماً هذه المرة على إتمام الجولة الخامسة من لعبة لينمان. كان على وشك الفوز الأسبوع الماضي، عندما انقطع التيار الكهربائي، وأفسد عليه الفرصة. دفع بكتبه جانباً نحو حافة الطاولة، محاولاً تناسي قوائم المفردات الانجليزية التي عليه حفظها، وتواريخ الفتوحات العربية التي تنتظره في تلك الكومة.

قال لهم قبل فرض حظر التجوال: يمكنهم منعكم من الوصول إلى المدرسة، لكن عليكم ألا تسمحوا لهم بمنعكم من التعلّم. ادرسوا في بيوتكم. مستقبلكم هو مستقبل فلسطين. بلدكم بحاجة إليكم، تذكّروا ذلك دائماً.

حاول مرة أو مرتين أن يدرس وحده، لكنّه لم يستطع التركيز بوجود «جمال»،

وحركته الدائمة، والفوضى التي يحدثها هو وسيرين وفرح، خلال لعبهم في غرفة الجلوس المجاورة، تبدو المسألة صعبة.

في كل مرة يحاول حمل كتاب مدرسيّ، ينتهي به الأمر إلى تقليب صفحات إحدى مجلاته المصورّة القديمة، فيما يسرح بخياله في أحلام يقظة مبهجة، ليرى «جمال» قابعاً في إحدى الكبسولات السابحة على بعد ملايين الأميال عن الأرض، ربما في كبسولة تدور حول المريخ أو عطارد أو. لا يهم. المهم أن يكون بعيداً، ويترك له الحاسوب دون منازع.

الآن، ولمدة ساعتين، سيكون الأمر كذلك. قال لنفسه وهو يحدّق في الشاشة، في انتظار تحميل لعبته المفضلة: بعد أن تنقضي هذه الفترة، سأركّز على كتاب الأحياء. ساد الهدوء في الأرجاء، بعد أن نهض «جمال»، وذهب إلى غرفة الجلوس، وألقى بنفسه في المقعد الخمريّ القديم، ليتابع نشرة الأخبار مع والده. سيرين، ابنة الرابعة، التي أمضت طيلة الصباح في البكاء، هدأت أخيراً، وجلست إلى جانبهم. أما فرح، ابنة الثامنة، فقد خرجت إلى المصطبة أمام الشقة، لتلعب مع صديقتها رشا، التي تعيش في الشقة المقابلة.

بدأت اللعبة، وغاص «كريم» معها. لا جديد حتى الآن. الحركات كلّها يعرفها، فقد لعبها مرات ومرات، وباتت هذه المراحل آلية بالنسبة له. ها هو يقترب من المرحلة الأصعب، وعيناه تحدّقان في الشاشة أمامه، وأصابعه تتحرّك بسرعة، محاولة اللحاق بالتفاعلات التي تتمّ داخل رأسه. ها هو ينتقل من مرحلة إلى أخرى، ويبدو وكأنه على وشك الوصول إلى هدفه هذه المرة. فتح باب الغرفة. انتبه لذلك لكنّه لم يستدر. شعر بوجود أمّه، لكنه لم ينظر إليها ليتفادى قراءة التكشيرة المرتسمه بين حاجبيها السوداوين الحادين: هل تريد النجاح في دراستك يا "كريم"، أم أنك ترغب في أن ينتهي بك الأمر مثل خالك بشير؟

توقفت لحظة في انتظار جواب، لكن «كريم» لم يتفوّه بكلمة: هل تريد أن تصبح عاملاً تمضي السنوات الخمسين القادمة كاسراً ظهرك في نقل التراب تحت الشمس الحارقة؟ إذا كان هذا ما تريده، فأنت حرّ بنفسك، لكن لا تتوقع مني أن أمضي بقية حياتي وأنا أغسل لك ملابسك الوسخة!

تنهدت بغضب، واستدارت خارجة. صفعت الباب خلفها. لم يسمع «كريم» كلَّ ما قالته، فاللعبة متواصلة، وأهدافه تسقط الواحد تلو الآخر، والمراحل تتقلب لتصل

به إلى المرحلة الأعلى. حبس «كريم» أنفاسه ويداه تقبضان على الشاشة، مطالباً إياها بالخضوع لأوامره، ثمّ وفي النهاية، انطلقت النجوم عبر الشاشة معلنة انتصاره وتجاوزه المرحلة النهائية بنجاح.

ينفجر «كريم» فرحا: «نعم نعم .»، ينطلق خارج الغرفة نحو غرفة الجلوس راقصاً ومنتشياً. يدور حول أفراد الأسرة بفرح غامر، فيما يداه تلكمان الهواء بقوة وسعادة: لقد فعلتها، نعم، المرحلة الخامسة، أنا الآن بطل العالم، أنا منتصر، أنا أعطي الأوامر وهم يطيعون أوامري، أنا بطل دون منازع.

نهض «جمال» من مقعده مشكّكاً وقال: المرحلة الخامسة، لينمان! دعني ألقي نظرة! وانطلق نحو الغرفة.

كان حسان العابودي، والد «كريم»، مستلقياً فوق الكنبة، يتابع سير جنازة تنقل تفاصيلها عبر شاشة التلفاز. جاء صوت المذيع متهدّجاً ومعبراً إذ قال: استشهد خمسة فلسطينيين بينهم طفلان خلال مواجهات وقعت بين الجنود الإسرائيليين وشبان فلسطينيين من منطقة نابلس كانوا يلقون الحجارة في اتجاه الجنود صباح هذا اليوم.

التفت حسان نحو «كريم» ونظر إلى ابنه بغضب: كفى ضجيجاً، اسكت واذهب إلى غرفتك وأكمل واجباتك المدرسية، وإلاّ سآخذ الحاسوب اللعين، ولن تراه بعد ذلك.

جلست لمياء والدة «كريم»، في الكرسيّ الهزّاز، فيما غاصت قدماها داخل صندل زهريّ اللون. تربعت سيرين في حجرها، وكانت على وشك الإغفاء، إلا أن الأصوات حولها أيقظتها ثانية، فرفعت رأسها وبدأت بالبكاء.

قالت لمياء، وهي ترفع خصلات الشعر الأسود التي غطت جبهة سيرين: أنظر ماذا فعلت الآن؟ أنت تعلم أنها ليست في صحة جيدة، ألا تدرك مدى تألمها؟ ألا تعلم كيف هو الحال مع التهابات الأذن! عليك أن تشعر بالآخرين من وقت لآخر يا «كريم»، أم أن هذا كثير عليك؟

عاد «جمال» إلى غرفة الجلوس ويده في جيبه: لقد اجتزت المرحلة الرابعة فقط أيها المسكين. هل اعتقدت حقاً أنك أصبحت واحداً من العظماء؟ إذن دعني أذكّرك بالحقيقة، أنت لست واحداً منهم.

شعر «كريم» بخيبة كبيرة، وأمتلكه إحساس كبير بالإحباط والاختناق. في لحظة

واحدة تبخّرت سعادته التي حققها خلال الساعتين الماضيتين، وذهبت أدراج الرياح. قال وهو يدفع «جمال» بكلتا يديه: أنا أكرهك، أنت كاذب، وأنت تعلم ذلك.

ضحك "جمال" وابتعد مفسحاً الطريق أمام غضب «كريم» وثورته، وانطلق الأخير إلى الغرفة ليحدّق في شاشة الحاسوب من جديد، لكن «جمال» كان قد أغلق الجهاز، ولم يعد باستطاعته إثبات صحة موقفه وسلامته. يحتاج الآن إلى الابتعاد عن هذه العائلة المزعجة، وإلى أن يكون وحده. اندفع خارجا نحو الباب الخارجي، وأغلق الباب وراءه. مساحة الدرج والمصطبة الخارجية ليست شاسعة، لكنّها كافية كي تمنحه بعض العزلة والهدوء.

لم يمضِ سوى لحظات حتى فتح الباب ثانية، جاءه صوت والده قلقاً وخائفاً: «كريم»! ماذا تظن أنك فاعل؟ عد إلى البيت حالاً

- بابا، أنا هنا على الدرج، ولم أخرج من المبنى. أنا فقط بحاجة لأن أكون وحدي بعض الوقت.

رقّت ملامح وجه حسان قليلاً وقال: حسناً، لكن لا تُطل البقاء هناك، ولا تقترب من النافذة. لا تدعهم يرونك. ابتعد عن أنظارهم، وعد إلى البيت خلال عشر دقائق، قبل أن تثور أمك وتصبّ جام غضبها عليّ.

تفاصيل نشرة الأخبار لحقت «كريم» من خلال باب الشقة الذي تركه حسان مفتوحاً: قصفت القوّات الإسرائيلية مخيماً للاجئين في غزة صباح هذا اليوم، ما أدى إلى مقتل تسعة فلسطينيين، من بينهم طفل في الثالثة. خمس نساء إسرائيليات قتلن، وثلاثة أطفال أصيبوا عندما فتح مسلّح فلسطيني النار على المواطنين في أحد شوارع القدس المزدحمة صباح اليوم.

سحب الباب ليغلقه ويسكت صوت التلفاز القادم نحوه، ثم كوّر قبضة يده وضرب بها الحائط، فتخدشت مفاصل أصابعه.

مرّت ثلاثة أيام أخرى طويلة وقاتلة قبل أن يرفع حظر التجوال. جاء قرار رفع الحظر قصيراً، ولمدة ساعتين فقط. أعلن الجندي فوق الدبابة الخبر بواسطة مكبر الصوت الذي يحمله: «من الساعة السادسة مساء ولمدة ساعتين فقط» جاء صوته خشناً ومزعجاً، «يسمح لكم بمغادرة منازلكم خلال هذا الوقت».

تنفست لمياء بارتياح: لو احتجزونا ليوم واحدٍ آخر، لكان التهاب أذن هذه الصغيرة امتدّ إلى دماغها. وأضافت وهي تضع قطعة شاش مبللة على جبين سيرين: لم تنخفض حرارتها طيلة الأيام الثلاثة الماضية، والطعام بدأ بالنفاذ أيضا.

قطع حسان العابودي المكالمة التي كان يجريها، واستدار نحوها قائلاً: الدكتور سليم معي على الخط، وقد أعطاني اسم الدواء المناسب لها، وحالما نتمكن من الخروج سآخذها إلى الصيدلية. لقد نصحني بأن نعطيها جرعة مضاعفة في البداية هذه الليلة.

توجه حسان إلى غرفة نومه، هزّ رأسه وتمتم قائلاً: يعاقبون أطفالنا. أرجو أن ينتقم الله منهم على ذلك. سمعه «كريم». لم تكن أذن سيرين فقط هي التي نجت برفع حظر التجوال، كان «كريم» على يقين من أن مجزرة حقيقية ستقع في عائلة العابودي، لو امتدّ حظر التجوال يوما آخر. هو شخصيا كان سيقتل «فرح» و«جمال»، وأبوه وأمه كانا سيقتلان بعضهما، والعائلة كلها كانت ستتحالف للقضاء عليه. بحث عن هاتفه الخلويّ على الرفّ وسحبه من تحت كومة من الأشياء المتراكمة، اتصل بجوني، صديقة الحميم، وقال: لا بدّ لي من الذهاب إلى المدرسة لأسلّم وظائفي، عليّ أشياء أخرى كثيرة لا بدّ من إنجازها، هل ستذهب أنت أيضا؟

- لا، لقد اتصل الأستاذ وأبلغني أنه سيمرّ إلى دكان أبي ويأخذ الوظائف من هناك.

قال «كريم» بنبرة لا تخلو من الحسد: أنت محظوظ، ليتني ذهبت إلى مدرستك. قوانين مدرستي أكثر صرامة. أمامنا ساعتان فقط، وقد لا يتسنّى لنا أن نلتقي.

- بلى، سنلتقي، سآتي إلى مدرستك وألاقيك عند البوابة الخارجية.

بدت الدقائق الأخيرة التي سبقت رفع حظر التجوال طويلة جداً، بل هي عند «كريم» الأطول زمناً منذ أن فرض حظر التجوال على المدينة. كان أشبه بعلبة الكولا التي تمّ خضّها وباتت جاهزة للإنفجار في أية لحظة يفتح فيها غطاؤها.

الخامسة وخمس وخمسون دقيقة، والعائلة كلها تقف مستعدة وجاهزة للإنطلاق: لمياء تحمل حقيبة يدها بينما تسوي هندامها الأزرق بقليل من الصبر وكثير من العصبية. حسان يحمل سيرين استعداداً للانطلاق بها نحو الصيدلية. فرح تبحث عن بلوزتها الزهرية التي صممت ألا تخرج إلاّ بها للقاء صديقاتها واللعب معهن في الباحة المقابلة لعمارتهم. «كريم» ارتدى جينزا نظيفا وبلوزة جديدة، وأخذ يقلب واجبه المدرسي بين يديه بقلق. أدرك في هذه اللحظة أن فروضه المدرسية غير مكتملة، وأنه لم ينجز الكثير مما كان ينبغي أن يقوم به. أخيراً تحرّكت عقارب ساعة الحائط الأنيقة لتزفّ النبأ: إنها السادسة! يترقبون بحماسة لحظة إقلاع الدبابة وابتعادها عن المكان. فتحوا الباب بحذر، وأصغوا بانتباه شديد، حتى تأكدوا من أن الآلة الكبيرة تحرّكت مبتعدة في اتجاه المنحدر عند أسفل الهضبة. كان «جمال»، بتسريحة شعره التي سوّاها باستخدام المثبت، أول من خرج من الباب. نزل الدرج قفزاً لاختصار الوقت والمسافة، وتبعه «كريم». قالت أمّه وهي تلحق به: «كريم»، انتظرني عند السوبر/ ماركت الكبير في السابعة والنصف. لن أتمكن من حمل المشتريات كلّها وحدي عند عودتي إلى البيت. وأنت يا «جمال»، إذا لم تكن هنا في تمام الثامنة فأنني سوف.

لم يصل صوتها إلى أيّ من الولدين، كانا وصلا إلى الطريق العام قبل أن تكمل عرض خطتها العملية لهما.

انطلق «كريم» يجري حول نفسه بفرح شديد. كان يتحرك في دوائر عند موقف السيارات، طار بحرية ورشاقة، سامحاً للهواء النقيّ بأن يصطدم بوجهه ويعبث بخصلات شعره.

طار «جمال» بسرعة البرق، لكنه بدلاً من التوجه إلى أعلى التلة، حيث الطريق المؤدية إلى المدرسة، ذهب في الاتجاه المعاكس. توقف «كريم» عن الركض وتبع «جمال» بنظره. يستطيع أن يخمّن ما الذي يجول في رأس «جمال». لا بد أنه ذاهب للقاء باسم والآخرين ليحضّروا شيئا ما لموقف الباصات الذي احتلّه الجنود الإسرائيليون، وجعلوه قاعدة لهم. يستطيع أن يتخيل منظر الآليات الضخمة الحديدية وهي تصطف هناك، وتشكل في مجموعها ما يشبه الوحوش الخضراء الهائلة القابعة في انتظار الزحف مجددا إلى أعلى التلة، وحشر سكان رام الله مجدداً في بيوتهم بعد انتهاء ساعتي الحرية الغالية. شعر «كريم» بألم في معدته لمجرد التفكير بما يمكن أن يكون «جمال» ورفاقه مقدمين على فعله. سيقومون بجمع الحجارة وإلقائها في اتجاه الدبابات، وسينهالون بالشتائم على الجنود. ستكون أصابع الجنود على الزناد،

وسيصبرون على الشتائم بعض الوقت، ثم سينفد صبرهم ويغضبون، ويطلقون النار. أحدهم سيصاب لا محالة، وربما يقتل. ماذا لو أصيب «جمال»؟ فكّر «كريم» لوهلة، سيصبح شهيداً، وسأكون شديد الفخر به، ولن تراودني أية أفكار سيئة نحوه بعد ذلك.

استدار «كريم» ثانية، وانطلق مسرعاً في اتجاه المدرسة، متمنياً ألا يطول انتظاره لتسليم أوراقه وتسلّم الوظائف الجديدة من معلميه. كان جوني قد وصل قبله، وكان ينتظر أمام الباب الخارجيّ للمدرسة بفارغ الصبر، يضرب بقدميه الأرض ويلكم الهواء بقبضتي يديه. جموع الأولاد الذين مرّوا بالقرب منه عند البوابة القديمة نظروا إليه باستغراب، وربما بإعجاب، لكن «كريم» الذي كان معتاداً على رؤية جوني وهو يتدرّب على حركات الكاراتيه لم يبد مستغرباً أو معجباً. لقد جرى بسرعة عالية طيلة الدقائق العشر الأخيرة، الأمر الذي بدا مرهقاً جداً بعد تلك الأيام الطويلة من الخمول وعدم الحركة داخل البيت. احتاج بضع دقائق قبل أن يتمكن من التقاط أنفاسه واستعادة توازنه، وعندما رفع قامته أخيراً كانت قدم جوني تتحرّك عالياً في الهواء، على بعد عشرة سنتمرات من وجهه، فامسك بها «كريم»، ووضعها أرضا. قال: اسمع، لقد اجتزت المرحلة الخامسة في لعبة لينمان.

- كلا؟ حقاً!

- نعم، حقاً!

قرأ «كريم» علامات الإعجاب على وجه جوني، رغم محاولة الأخير عدم إظهارها بوضوح. تبع جوني خطى «كريم» وهو يصعد الدرج نحو غرف الصف. كان الأولاد يتجمهرون عند أبواب الصفوف المشرعة. سأل «كريم»: أين أجد الأستاذ محمد؟

- إنه غير موجود، لم يأت، وأظن أنه لن يأتي اليوم.

«عظيم!»، قال «كريم» الذي لم يكن يحب أستاذه الشديد، ثم التفت نحو جوني قائلاً: ليست هناك فائدة من البقاء هنا والانتظار، لنذهب ونلعب الكرة. سأذهب لملاقاة أمي بعد ذلك عند السوبرماركت. ستكون هناك في السابعة والنصف، أي أن لدينا ساعة تقريباً للعب.

سبقهم الأولاد إلى ملعب الكرة، خلف مبنى المدرسة، وكانت المباراة بدأت للتو. لم يكن لديهم وقت لتوزيع الفرق وتحديد اللاعبين، كان الجميع مشاركين في اللعبة، الكل يركل ويمرّر ويصوّب نحو الهدف. كانت الدقائق الأولى مزعجة. شعر «كريم»

بثقل في قدميه، وبتلاحق أنفاسه، وفشل في تصويب أية ضربة صحيحة. كان هدفاً سهلاً للآخرين الذين تسللوا وسحبوا الكرة من تحت قدمه. ثم فجأة استعاد مهاراته من جديد، وشعر بالدم يتدفق في عروقه، وبقوة خارقة تندفع في قدميه.

بدأ ضوء النهار بالانحسار، وبدأت الشمس بالاختفاء خلف الأفق. حجارة مباني رام الله البيضاء أصبحت ضاربة إلى الصفرة. قريباً ستصبح ذهبية اللون، ثم ستصبح زهريّة. في الأوقات الطبيعية كانت رائحة البصل المقلي تنبعث من نوافذ المنازل المفتوحة، ونغمات الموسيقى تصدح عبر طرقات المدينة، من أجهزة المذياع المنتشرة هنا وهناك، لكن هذه الليلة سيجلب الظلام معه فقط الجنود والدبابات وأصوات طلقات نارية متقطعة ونواح صفارات الاسعاف.

شعر «كريم» برضا كبير بعد أن أدخل الكرة في المرمى بحركة أثارت إعجاب الجميع، وبينما كان يستمتع بنشوة اللحظة، كان حارس المدرسة يهرول نحوهم ملوّحاً بكوفيته الحمراء، ليلفت انتباههم إلى ما يريد قوله: هيا إلى خارج الملعب بسرعة، عليكم إخلاء المكان فوراً، سأغلق المكان في الحال، ليس لديّ وقت، ولا بدّ لي من العودة إلى المنزل قبل وصول الدبابات.

عادت مشاعر الغضب تسيطر على «كريم» من جديد. ضرب الأرض بقدمه بعنف. انتهت الساعتان، وانتهت معهما الحياة الطبيعية. لا أحد يعرف متى ستكون المرة التالية. خرج برفقة جوني والآخرين، وانطلقوا في اتجاه السوبر/ ماركت. قال جوني فجأة: أنظر، هاهو أخوك هناك.

نظر «كريم» ودهش لرؤية «جمال» يسير على بعد خطوات منه، مع مجموعة من أصدقائه. كانوا يقفون عند باب مقهى الانترنت، المكان المفضل لهم. شعر براحة كبيرة. مرّ اليوم بسلام، ودون وقوع اشتباكات عنيفة هناك، بالقرب من موقع الدبابات.

«أليست هذه أختك أيضا؟ أليست هذه فيوليت، أليس كذلك؟» سأل كريم وهو يشير إلى فتاة ترتدي بنطالا زهرياً، بينما ينسدل شعرها الطويل على كتفيها، وكانت تخرج من متجر في الجهة المقابلة من الطريق. نظر جوني بسرعة، ثم خفض نظره ثانية، والتفت ليسير إلى جانب «كريم»، محاولاً الاختباء خلفه. قال «كريم» بتعجب: ماذا دهاك؟

- لا أريدها أن تراني، أنت لا تعرف فيوليت جيداً.

- بلى، أعرفها، فلقد عرفتها طيلة حياتي.

- لا لا، أنت لا تدرك قدرتها العالية على إحراجي، ففي آخر مرة التقيتها في الطريق، وكانت مع مجموعة من صديقاتها الغبيات، نادت عليّ من بعيد وقالت: مرحبا أيها الأخ الصغير، هل تعلم أن ليلى تعتقد أنك وسيم وبهيّ الطلعة؟هي تفعل ذلك لتغيظني. سأخنقها يوماً ما. أنا أعني ذلك.

لم يصغ «كريم» لما قاله جوني، فقد كان منشغلاً بمراقبة أخيه، فذلك الشاب الوسيم المتألق بين شباب رام الله كان يصوّب أنظاره نحو فيوليت، بينما علت وجهه ابتسامة رقيقة وغبيّة. كان المشهد بحدّ ذاته مزعجا ومثيراً لغضب «كريم». كان على وشك أن يهزّ كتفي جوني ويلفت انتباهه إلى هذا التطور الجديد والغريب، لكن الزئير القادم من أسفل التلّة قطع عليه حبل أفكاره. كانت الدبابات تزحف صاعدة نحو المدينة لتحتلّ مواقعها من جديد. قال «كريم» فجأة: ماما، عليّ الذهاب لمساعدتها! سأتصل بك فيما بعد.

انتهت لمياء من التسوق، وكانت تشقّ طريقها بصعوبة فوق الرصيف، وهي تحمل أكياس المشتريات الثقيلة. قالت بتنهيده طويلة: «كريم»، ها قد وصلت أخيرا، أسرع، سيكونون هنا في أية لحظة.

قبل أن تختتم جملتها كانت قرقعة مكبر الصوت قد ملأت الأجواء، وبدأ الخوف يزحف ثانية إلى الصدور، مع رؤية الدبابات تقترب شيئا فشيئا نحو قمة الهضبة. انطلق الصوت هادرا: ممنوع التجوال. «أسرع. هيا»، صرخت لمياء. وجدا طريقهما إلى البيت عبر أكوام الحجارة والقمامة التي غطت الطريق. حبسا أنفاسهما، وتلاحقت خطواتهما أملا في الوصول مع أكياس الطعام إلى المنزل بسلام.

مكتبة الرمحي أحمد

مضى أسبوع كامل قبل أن تتدحرج الدبابات ثانية بعيدا عن وسط المدينة. رفع حظر التجوال عن المدينة خلال ساعات النهار. كانت الدبابات تختفي في النهار، ثم تعود مع حلول الظلام كلّ مساء. شعر «كريم» فجأة وكأن حجراً كبيراً أزيح عن رأسه، بل وكأنه ذبابة كانت تطير فوق نافذة مغلقة طيلة الوقت، ثم فجأة فتحوا لها الزجاج لتنطلق خارجاً، أو كأنه حيوان وضع داخل قفص، ثم فتح له باب القفص، وسمح له باستنشاق الهواء من جديد.

قال «جمال» بسخرية: لا أفهم سبباً لسعادتك الغامرة هذه، سيعودون في أي وقت يرغبون في العودة. إنهم يلهون بنا. هم القطط ونحن فئرانهم.

لم يكترث «كريم» ولم يعقّب. كان يبحث عن كرته تحت السرير. إنها اللحظة الملائمة ليعود ويمارس لعبته المفضلة. إنه مشتاق لذلك أكثر من أي شيء آخر أكثر حتى من اشتياقه لرؤية جوني.

كان النهار في منتصفه عندما انسحب الجنود. غادر حسان العابودي المنزل على الفور مرتديا ملابس العمل الرمادية. خرج قلقا ومستعدّاً لتفقد حالة متجره بعد أيّام الإغلاق الطويلة. كانت الأخبار تقول إن بعض الحوانيت في وسط البلدة تضرر من القصف الإسرائيلي للمدينة، وأفاد بعض الشهود أن مباني في وسط البلد دمّرت نهائياً. أغلق «جمال» باب الحمّام وراءه، ومعه آلة الحلاقة وجلّ تثبيت الشعر. لمياء كانت تجهز حقيبة يدها وتعدّ نقودها استعداداً للإنطلاق لشراء حاجات الأسرة. قالت موجهة حديثها لسيرين: حليب طازج لك في الغد يا حبيبتي، ستشفين قريبا.

كانت فرح قد نزلت مباشرة بعد الإفطار وانضمت إلى رشا على درج البناية. مع الكرة تحت إبطه، قفز «كريم» بخفّة نحو الباب، محاولاً عدم إصدار أي صوت. حبس أنفاسه متمنيا ألا تراه أمه وتناديه لتطلب منه القيام بواحدة من المهام المملة التي تطلبها عادة منه. نجح في التسلل بهدوء، أغلق الباب خلفه وانطلق. خلال أقلّ من دقيقة، كان قد نزل الطوابق الخمسة. شعر بجسمه مرناً خفيفا، وشعر بقدميه تتحركان كلولب كان مضغوطا وأفلت فجأة، تتوق قدماه للإحساس بالكرة مجدّداً. لم يكن أحد خلفه، ولم يرَ أحداً في الإرجاء. هذا ما كان يتمنّاه. إنها اللحظة التي طالما انتظرها. سيلعب كما يشاء، سيلعب وحده، دون عيون المراقبين وتعليقات المنتقدين، بدأ على الفور. ارفس، دحرج، صوّب، كعب القدم. اندمج تماما

مع إيقاع المشهد، وشعر بالضغط ينحسر من رأسه.

«الحرية»! همس لنفسه، «إنها الحرية». ثم فجأة فتحت نافذة فوق رأسه مباشرة، وانطلق منها صوت ضعيف متهدّج: أوقف هذه الضجة على الفور، ألا يستطيع الإنسان العيش بهدوء وسلام في هذا الحي؟ وأضاف الصوت: إذا سمعت صوت هذه الكرة ثانية، فسأشكوك إلى والدك، وأتركه كي يتصرّف معك. صفق النافذة وسكت الصوت. شعر «كريم» برغبة في الصراخ، وفي توجيه لكمة إلى وجه «أبو رمزي» العجوز. تمنى لو أنه يضرب الكرة عالياً ويحطّم بها تلك النافذة القذرة، لكنه لم يجرؤ على ذلك. تذكّر كلمات والده في تلك اللحظة: لا يهمني إذا كنتم تحبون الرجل أم لا، فأنا شخصيا لا أحبّه بشكل خاص، إنه شخص أناني ومشاكس، أتفق معكم في هذا، لكنه في النهاية جارنا، وهو كبير في السن، وله علينا حقّ الاحترام، وإذا سمعت يوما أنّ أحدا منكم تصرف معه دون أدب، فسأكون في منتهى الغضب والانزعاج.

التقط «كريم» الكرة، وبدأ يتلقفها بيديه، بينما كان يوجه الشتائم في سرّه. وضع الكرة على الأرض، وجمع قبضتي يديه، وبدأ بتوجيه لكمات في الهواء بقوة وغضب، كما لو أنه يسدد تلك الضربات إلى وجه أبو «رمزي» القبيح. توقف فجأة، بعدما سمع صوت ضحكة قادمة من خلف ظهره. استدار وشعر بحرج شديد. احمرّ وجهه خجلا من الصبي الواقف هناك. جلس الصبيّ فوق كومة حجارة يضحك بصوت عالٍ، كان أطول من «كريم» بعض الشيء، لكن جسمه أكثر نحولاً، يبدو أكبر منه بقليل، ربما هو في الثالثة عشرة. قميصه الذي كان أبيض اللون يوم اشتراه، بات أقرب إلى الرمادي الآن، وأطراف جينزه تبدو مهترئة وبالية. ملامحه أقرب إلى الصور المستوحاة من حياة البريّة والتمرّد، وكذلك كانت طريقته في التعامل مع كومة الحجارة تحته، ونظرته إلى «كريم»، وضحكته التي كشفت عن أسنان أمامية مكسّرة.

«ما الذي يضحكك؟» قال «كريم» وهو يستعدّ لخوض معركة دفاعية. بدا له الفتى مألوفاً، لابد أنه صادفه في الجوار، ربما في الصفّ الأعلى في مدرسته، لكنه لا يعرف اسمه. أشار الفتى إلى النافذة وقال: أضحك عليه، وعليك. كانت ابتسامته ودودة ودافئة، الأمر الذي امتصّ غضب «كريم» بسرعة. زحف الفتى نازلاً عن مقعده الحجري:

- هل تريد لعبة كرة قدم جيدة؟ سألعب معك إذا.

- لا أستطيع، ألم تسمع ما قاله؟ سيوقعني في مشاكل مع والدي.

ارتسمت تعابير غريبة على وجه الفتى عند سماعه كلمة «والدي». فكّر «كريم»: «لابد أنه يحتقرني الآن». لكنّ ذلك الوجه كان يحمل شيئاً أبعد مما فكر به «كريم». لم يكن تعبيراً عن ازدراء أو امتعاض، بل شيئا أقرب إلى الحسد. نظرا في عيون بعضهما للحظات، ثم تحرّك الفتى مشيراً برأسه إلى جهة الطريق العام وقال: أعرف مكاناً أفضل من هذا، هل تأتي معي؟ سنحظى بلعبة أفضل هناك.

أصوات والديه تتناوب داخل رأسه: «كريم»، لا تكن غبياً. صوت والده يقول: «أنت لا تعرف شيئاً عن هذا الصبيّ الذي يبدو من النوع الذي قد يتسبّب في زجّك في مشاكل لا حصر لها». وها هي أمّه تقول: «أتذكر ما قلته لك دوماً عن الأطفال الخشنين؟ إذا كنت ترغب في التقاط مرض ما، أو عادة سيئة، يمكنك التقرب منهم».

قرّر بوعي تام أن يتجاهل أصواتهما. انحنى إلى الأرض والتقط الكرة. مرّرها إلى الفتى وقال: حسناً، شريطة أن لا يكون المكان بعيداً جداً، سآتي معك.

سار الفتى بخطى سريعة، وتبعه «كريم» محاولاً اللحاق به. بدأ يشعر بالقلق والتوتر عندما طالت الرحلة، وبدأ الفتى ينقله إلى طرقات بعيدة عن منطقة سكناه، والى أزقّة لم يعرفها من قبل، وأماكن لم يصلها، وبالتأكيد ليس في هذا الجانب من المدينة. تسلّقا الهضبة وشرعا في النزول من الجهة المقابلة، وها هما يطلاّن على أسطح البيوت في مخيم اللاجئين.

ارتفعت حدّة التوتر والقلق عند «كريم»، فسكان هذا المخيم يعيشون في رام الله قبل أن يولد، وحتى قبل أن يولد أبواه. هم هنا منذ أكثر من نصف قرن، منذ طردوا عن بيوتهم عندما تأسست إسرائيل. هم فلسطينيون مثله تماما، لكنهم أغلقوا على أنفسهم وبنوا لأنفسهم عالماً خاصا. يعيشون في بيوت أشبه بعلب السردين، ومعظمهم عاطل عن العمل.

تذكّر «كريم» ما تقوله لمياء عادة عن المخيم، «إنهم من الجهة الأخرى من فلسطين، لا نعلم الكثير عنهم، لكننا لا نستطيع إلا أن نتعاطف معهم بسبب ما مرّوا به من ظروف ومعاناة. لكن، ورغم ذلك، فإنهم ليسوا ذلك النوع من الناس الذين تودّ أن يختلط بهم أولادك، أقصد. .»، كانت تبدأ بالمراوغة والالتفاف على الكلمات عندما تصل إلى هذا الحدّ من التحليل، لكن تعابيرها كانت تشير إلى عدم الرضا وقلة الإعجاب.

«أرجو ألا يراني أحد هنا»، قال «كريم» لنفسه، بينما كان يلتفت حوله. «لو عرفت أمّي بذلك، فسيكون غضبها عارما». لم يصادف أناسا كثيرين في طريقه. فكّر قليلاً ثم استنتج أن لا أحد ممن يعرفهم سيأتي إلى هذا المكان. بدأ يهدأ ويرتاح للفكرة. قال «كريم»، وهو يشير إلى أكوام البيوت المبنية من الطوب الرماديّ والموزّعة عشوائيا في المكان، تفصل بينها أزقة ضيقة جدا تسمى في مجموعها مخيماً: أنت تعيش هنا إذاً، أليس كذلك؟

- لا، أعيش هناك في الأعلى، لقد انتقلنا من هذا المكان في العام الماضي.

وأشار برأسه إلى منطقة فسيحة فوق مستوى المخيم، حيث يوجد بيت ريفيّ ذو طابق واحد مبني من حجر أبيض مائل إلى الصفار. كان البيت الصغير يقبع داخل مساحة من الأرض تحت ظل شجرة تين ضخمة، لا بد أنها كانت هناك منذ أزمان قديمة جدا. بدا المكان مثل مزرعة ريفية، وكأنه من بقايا عصر سابق، ربما منذ ثلاثة قرون، قبل أن تكبر المدينة من حوله. اعتقد «كريم» أن الفتى يقوده في اتجاه بيته، لكنه بدأ يسير في الاتجاه المعاكس، ثم تسلّق جداراً وقفز من فوقه. تحرّك «كريم» وراءه.

- هل هذا هو المكان؟

- نعم، هذا هو.

يمكن للمكان أن يكون جيداً، رأى «كريم» ذلك على الفور. الأرض شاسعة. إنها أقرب ما تكون إلى مساحة ملعب الكرة الحقيقي. ذلك الجدار الحجري القديم يحدّد الملعب عند إحدى نهاياته. لا أشجار، ولا شيء آخر سوى بقايا أعشاب جفّت بفعل حرارة الشمس. تجمّعت عند زاوية المكان البعيدة أكوام من الحجارة والتراب من مخلفات مبنى كان هدم منذ زمن. ترتفع الأكوام إلى علوّ مترين تقريباً، وتغطي مساحة من الأرض تفوق العشرين متراً. يضمّ المكان كلّ ما يمكن تخيله من أنواع

الحجارة وقطع الإسمنت والأنابيب المعدنية القديمة والأثاث التالف وغيرها من أصناف القمامة. ازدحم بها المكان، وحوّل المساحات المنبسطة إلى مجموعات من التلال الصغيرة.

كان الفتى لا يزال ينقل كرة «كريم» بين يديه، كان يضربها بعيدا عن ركبته ثم يلتقطها ثانية. قال فجأة: خذ! ورمى الكرة. انحنى «كريم» نحو الكرة، لكن قدمه تعرقلت بحجر، فوقع واصطدم كوعه بالأرض. شعر بألم حادّ عجز معه عن الحركة والكلام لبضع لحظات. استلقى في مكانه مذهولاً، وبدأ يفرك ذراعه اليسرى بيده اليمنى متسائلا ما إذا كانت عظمة ذراعه قد تهشمت.

قال الفتى وهو يراقبه باهتمام: حاول أن تمدّها. شدّ «كريم» على أسنانه لتحمّل الألم وحاول، وتمكّن في النهاية من مدّها، وبدأ الألم بالاختفاء على الفور. قال الفتى بصوت يشير إلى الارتياح: المسألة بسيطة إذن. إنها هذه الحجارة. قال «كريم» وهو يصارع للوقوف على قدميه: ليس هناك مكان فارغ للعب الكرة. سنظل نقع طوال المباراة.

هزّ الفتى كتفيه النحيلتين ونظر بعيداً. «سيظنّ أنني ولد مدلّل وناعم»، فكّر «كريم» قبل أن يمسك بالكرة ويركلها نحوه.

حاولا اللعب بعض الوقت. قاما ببعض المناورات وبعض التمريرات. قفزا فوق الحجارة، وركضا وراء الكرة. جرح الصبي إصبع قدمه، وكان «كريم» على وشك أن يلوي كاحله. بعد فترة من الوقت قرّرا بصمت أن يتوقفا عن المحاولة. قال الفتى: المكان هنا مكبّ للنفايات، وليس أكثر من ذلك. أنا آسف.

سارا حتى وصلا إلى جهة الجدار عند نهاية الملعب. تفحصه «كريم» جيداً. لم يكن بجودة الجدار القريب من مكان سكنه، فحجارة ذلك الجدار ناعمة ومتراصّة بانتظام، بينما هذا الجدار مبنيٌّ من قطع غير متناسقة من الصخور والحجارة التي تركت بينها حفراً عميقة، وتداعت من أجزاء أخرى منه قطع أسمنتية تركته ضعيفاً وآيلاً للسقوط.

«لكنه جدار على أية حال»، قال «كريم» لنفسه، «ربما يكون مناسباً للعبتي الخاصة. قد ترتدّ الكرة عن الجدار بصورة ملتوية، لكنها سترتد في النهاية. سيكون اللعب أكثر متعة إذا انضم لي هذا الصبي، ولعبنا سويا».

«ليس الأمر سيئا جدا عند هذا الجزء من الجدار». حرّك بقدمه بعض الحجارة الصغيرة وقال: «يمكننا تنظيف جزء من المساحة هنا، وجعل المنطقة صالحة للعب».

لم يكترث الفتى، ولم يعقّب على الاقتراح. كان قد بدأ برفع صخرة، ومشى مترنحاً نحو طرف الأرض، حيث تكومت حجارة ناجمة عن سقوط جدار قديم في المكان. لاحظ «كريم» أن الصخرة ثقيلة جداً بالنسبة لشخص مثله. رأى عضلات ذراعيه النحيلتين تهتزّان تحت ضغط الحمل الثقيل، وكان وجهه محتقناً بالدم الذي تدفق إلى وجنتيه.

استثيرت كرامته، فبحث «كريم» لنفسه عن حجر أكبر من الذي أزاحه الفتى. وجد ضالّته وحاول رفعه، لكن رسغه الذي تأذى من السقطة الأولى آلمه كثيرا، فأسقط الحجر ثانية إلى الأرض. ولحفظ ماء وجهه بدأ يلتقط حجارة أصغر ويلقى بها نحو الكومة في الجهة المقابلة.

حذا الفتى حذوه. باتت الصورة أشبه بمبارزة بينهما. زادا من سرعتهما، وحملا الكثير من الحجارة وقذفاها بعيداً. «هيّا، اضرب، سدّد هناك، تماماً نحو فوهة المدفع، ها قد سقط جندي، بقي ثلاثة هيّا»! تحوّل كوم الحجارة في ذهن الصبيين إلى دبابة إسرائيلية. تركا العنان لخيالهما، وجسّدا العدو أمام عيونهما، بسلاحه ولباسه العسكري وخوذته الحديدية، وتحدّيا ذلك العدو بجرأة، وبحجارة صغيرة هي كل ما تحمله أيديهما. توقفا فجأة، وأنفاسهما تتسارع من الإجهاد. تلفتا حولهما دون إدراك منهما بأنهما نظّفا مساحة لا بأس بها من الملعب المنتظر الآن بات لديهما مكان ملائم للعب، ولتسديد الأهداف نحو الجدار. لم يرَ «كريم» حاجة لشرح تفاصيل لعبته. بدأ مباشرة يركل الكرة نحو الجدار، وانضم الفتى للعب معه. الانسجام تحقق على الفور. ركلة، توازن، التقاط، كعب القدم، ركلة، توازن. وهكذا.

كانت لعبة جيدة.

«إنه الأفضل لهذه اللعبة»، فكر «كريم»، «إنه يلعب بشكل أفضل من جوني. يمكن القول إنه يلعب بمهارة توازي مهارتي».

كان بإمكان «كريم» أن يلعب مع الفتى ساعات وساعات دون أن يشعر بالملل، لكن الصوت القادم من مئذنة الجامع في المخيم أشار إلى أن موعد صلاة المغرب قد حان.

« ألله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، حيّ على

الصلاة، الله أكبر!»

قال «كريم» وهو يحتضن الكرة ويستعد للجري: تأخّر الوقت، لابد أن أصل إلى البيت قبل عودة الدبابات، ستقتلني أمي.

انطلق عبر المساحة الفسيحة في اتجاه الطريق العام، ثم تنبه إلى أن الفتى لا يزال واقفاً هناك إلى جانب الجدار.

- نادى عليه، ما اسمك؟

تردّد الفتى: يلقبونني بالجندب عادة، ما اسمك أنت؟

تمنى كريم لو كانت له كنية لطيفة هو الآخر، وقال: كريم عابودي. ربما نلتقي ثانية».

قال الفتى بسرعة، وبصوت مفعم بالرجاء: ما رأيك لو نلتقي غداً؟

- حسناً، إذا كان التجوال مسموحاً به، فسأعود ثانية.

كان مزاج حسان العابودي في غاية السوء ذلك المساء، فبعد أن أعادت الدبابات الإسرائيلية الجميع إلى داخل بيوتهم من جديد، بدأ يحوم في أرجاء الشقة بعصبية وغضب. كان يحمل الأشياء ثم يلقي بها أرضا ثم يعود ليركلها بقدمه بعيداً.

جلس «كريم» إلى الطاولة دون حراك، حاول التظاهر بأنه يؤدي فروضه المدرسية. تمايلت فرح بتباه في تنّورة برتقالية اقترضتها من رشا. أمسكت بأطراف التنّورة قائلة: أنظر إليّ، ما رأيك؟ أنا أجمل من رشا؟ ألست كذلك؟

تنبهت إلى نظرة والدها، فتراجعت على أطراف أصابعها، وأخفت جسمها خلف المقعد الكبير. مع لعبتها.

بدت سيرين أفضل قليلاً بعد أن هدأ احتقان أذنها بعض الشيء، وها هي نائمة بسلام في غرفة نوم البنات. تابعت لمياء بنظرها حركات زوجها، بينما واصلت كيّ الملابس التي أمامها. قالت له أخيراً: الجميع في قارب واحد. جميع التجار الآن يواجهون ظروفاً قاسية مثلك.

وكأنها صبت زيتاً فوق النار لتزيد اشتعالها، هذا ما فكر به «كريم» وهو يراقب ردّ فعل والده الذي ضرب قبضة يده بقوة على الطاولة، ما جعل الأقلام تتدحرج، فيما يزداد وجهه احتقانا واحمراراً. قال صارخاً في وجهها: وماذا تعرفين عن هذا الامر: أنا لست كبقية التجار، ألا تفهمين؟ ليس هناك من يرغب في شراء كهربائيات في مثل هذه الأوقات، أو ربما تعتقدين أن الناس الآن ينتظرون رفع حظر التجوال ويقولون لأنفسهم هيا بنا إلى دكان حسان العابودي لنشتري لأنفسنا تلفازاً جديداً، أو ربما نشتري مكوى حديثا بالأموال التي كسبناها، ونحن محشورون داخل بيوتنا، أثناء رفع التجوال، هذا ما يفكر فيه الناس، أليس كذلك؟ تفضلي، أجيبيني! أنا في القارب نفسه مع جورج بطرس صاحب السوبر/ ماركت الذي يقف الناس بالطابور أمام حانوته كلما رفع حظر التجوال، وكلما فرغت الثلاجات في بيوتهم من الطعام! أنا في القارب نفسه مع الصيدلي الذي يبيع كل ما لديه من أدوية حالما يرفع حظر التجوال!

توجهت كل العيون نحو حسان بذهول ودهشة. كان حسان بالعادة رجلا هادئاً. لم يكن أطفاله قد رأوه ينفجر من قبل، ولم يسمعوا صوت صراخه قبل هذا اليوم. جلس في مقعده وأسقط رأسه بين يديه. قال بصوت أكثر هدوءاً: ذهبت اليوم إلى المدينة وفتحت الدكان. نظرت إلى البضائع من حولي، إنفطر قلبي، فالغبار يعلو كلّ الأجهزة والمعدات، وبدت لي مهملة وغير مرغوب فيها. لقد عملت جاهداً طيلة السنوات الماضية لتأسيس هذا العمل، مع كل الجهد الذي بذلته أتعلمين ماذا بعت طوال اليوم؟ بعت بطاريات لبعض الزبائن، فقط بطاريات، الشي الوحيد الذين يريدون شراءه. كيف يمكننا العيش، من بيع البطاريات فقط؟ سندمر لا محالة، إذا ما استمر الحال هكذا.

كان صوته يرتجف. دبّ الذعر في قلب «كريم» الذي خشي لوهلة أن يكون أبوه على وشك البكاء. مجرّد التفكير في ذلك جعل جسده يقشعر من الإحراج. تجمّدت لمياء في مكانها لوهلة، والمكوى في يدها بلا حراك، ثم أعادت المكوى فوق لوح الكوي، وتحرّكت في اتجاه الكنبة. جلست بجانب زوجها قائلة: لا يمكن أن يسوء الأمر أكثر من ذلك، ولا يمكن لهذا الوضع أن يستمر إلى الأبد.

قال حسان: ولم لا؟ وما الذي سيوقفه؟ لقد بدأ الاحتلال معنا منذ كنت في العاشرة من عمري، ومع كل سنة جديدة كنا نقول لأنفسنا إن الوضع لا يمكن أن يسوء أكثر من

ذلك، لكنه كان يسوء في كل مرة. أنا أصبحت على قناعة أن الإسرائيليين لن يكونوا سعداء إلا بعد أن يتخلصوا منا جميعاً، ويطردونا بعيداً، ويستولوا على كل شبر من الأرض الفلسطينية.

تنفس «كريم» بارتياح الآن، فها هو أبوه يتحدّث في السياق الذي اعتاد الحديث عنه دائماً، وبقليل من الحظ، سيعود إلى سابق عهده، فيلعن الإسرائيليين، ويبتعد عن التفكير في القضايا الشخصية المزعجة.

- على أية حال، لا يزال لدينا راتبي من الجامعة، وسنتدبر أمرنا به.

أدركت على الفور أنها ارتكبت خطأ. لاحظ «كريم» ذلك عندما رآها تعضّ على شفتها. أفلت حسان يدها التي كانت ممسكة بيده طيلة الوقت. ضحك ضحكة لا تخلو من المرارة والسخرية: هذا عظيم، هل أنا ذلك النوع من الرجال الذين يعيشون عالة على زوجاتهم؟ هل هذا ما سأنتهي إليه؟ أنا؟ وهل نحن تلك العائلة التي يمكنها التعوّد على العيش براتب سكرتيرة بوظيفة جزئية، أليس هذا رائعاً؟

وقف «جمال» أمام باب غرفته. التقت عيناه بعيني «كريم» فغمزه طالباً منه ترك المكان والتوجه إلى الغرفة، شعر «كريم» بالامتنان لطلب «جمال»، فانسلّ بهدوء إلى غرفتهما. أغلق جمال الباب وقال: يفضل أن نتركهما وحدهما لمناقشة المسألة فيما بينهما.

- ماذا كان يقصد بقولة إننا على وشك الدمار؟

- لا تسألني مثل هذه الأسئلة، فأنا لست رجل أعمال، ولن أكون كذلك ابداً. إنها مهنة لا تجني منها سوى المتاعب. سأكون بالتأكيد مهندس صوت، ولا أدري إذا كان هذا العمل يعتبر ضمن نطاق رجال الأعمال.

امتنع كريم عن الردّ الفوري الذي كان سيتفوه به، ذلك النوع السخرية اللاذعة حول أناس يحلمون بأعمال مثيرة ومريحة كمهندس صوت أو مدير فرقة موسيقية مهمة، ولكنهم في الواقع مجرد خاسرين وأغبياء. شعر بالارتياح لأنه لم يقل شيئا، فهو لأول مرة في حياته، يشعر بالسعادة لأن «جمال» موجود إلى جانبه، وبالارتياح لأن له أخاً أكبر منه. تمكّن في اللحظة المناسبة من إخراجه من الغرفة، وإنقاذه من الموقف الحرج الذي كان عالقاً فيه.

قال جمال: هل مررت بالقرب من المدرسة خلال وجودك خارج المنزل؟

- كلا، لماذا؟

- احتلّ الجنود الإسرائيليون المدرسة منذ آخر مرة رفع فيها حظر التجوال. أحضروا دباباتهم وأوقفوها فوق ملعب كرة القدم، وهدموا جزءا من الجدار. عبثوا بالمختبرات وغرف الصف وعطلوا أجهزة الحاسوب. لن يكون بإمكاننا العودة إلى الدراسة لفترة طويلة.

لكم «كريم» الفراغ أمامه بقبضة يده، فبالرغم من كرهه للمدرسة، إلا أنه استشاط غضباً لفكرة أن العدوّ زحف داخل المدرسة وعبث بمحتوياتها. والأسوأ، أنهم بجرّافاتهم الضخمة احتلوا ملعب كرة القدم. ثم هدأ وفكّر بأنه على الأقل سيحصل على إجازة لبعض الوقت. «هذا يعني أنني سأتمكّن من العودة إلى ذلك المكان، وألعب الكرة مع الجندب».

نظر «جمال» إليه بطريقة غريبة، وقال: متى سترى جوني ثانية؟

- لا أدري، قريباً، ربما غداً، أوبعد غد، لماذا؟

كان «جمال» يحرّك قدميه فوق البساط ويحدّق في حذائه وكأنه يراه لأول مرة. سأل «كريم»: انظر! أنت أخي، أليس كذلك؟

- هل اكتشفت ذلك الآن، بعد ١٢ سنة؟

- ونحن صديقان جيدان أيضاً، ألسنا كذلك؟

قفزت شكوك كبيرة إلى رأس «كريم» على الفور: بهذه المقدمة، لا بد وأن «جمال» يريد منه شيئاً، شيئاً كبيراً. فقال بحذر: إلى حدّ ما.

- أعلم أنني كنت فظاً معك عندما علّقت على طريقة لعبك لكرة القدم، لكني لم أقصد ذلك، أنا في الحقيقة أعتقد أنك هدّاف جيد، أنا أقول ذلك وأعنيه.

- حسناً، كفاك مراوغة وهات ما عندك، ما الذي تريده؟

لعق «جمال» شفتيه وقال: عليك أولاً أن تعدني وأن تقسم على القرآن الكريم أنك لن تبوح لأحد بما سأقوله لك.

- سأفكر في ذلك.

- لا، عليك أن تعدني بذلك الآن.

- هيا «جمال»، لا تثر غضبي، ومن تظنني؟ هل أنا بنظرك الواشي الأكبر في العالم؟ عليك أولاً أن تقول لي ما الأمر.

- حسناً، أعتقد أن ذلك مكن، كما تشاء.

مكتبة الرمحي أحمد

سحب «جمال» نفساً عميقاً ثم قال: أريد منك أن تقنع جوني بأن يحضر لي صورة لفيوليت، دون أن تعلم هي بذلك.

حدّق «كريم» في عيني «جمال». كان في ذهول شديد، ما منعه من الانفجار بالضحك. هو في الحقيقة يتصارع مع «جمال» أحيانا، ويغيظه أحيانا، ويتلقى منه الإهانات، ويحاول إخراجه عن طوره، لكن «جمال» في النهاية أخوه الأكبر، وهو يكنّ له إعجابا عالياً لا يفصح عنه لأحد، ويقدّر وجهة نظره أكثر من أية وجهة نظر أخرى. كيف يستطيع «جمال» أن يرقّ ويضعف هكذا بين ليلة وضحاها، وأن يكون كل هذا لحساب فيوليت بطرس، الفتاة التي عرفها طيلة حياته، فيوليت التي تغيّرت مؤخراً، لكن حسب رأي أخيها جوني، تغيرت لتصبح الأكثر سماجة وغباء وضيق أفق من بين كافة الناس في فلسطين، أو حتى الشرق الأوسط.

- أنت تمزح بالتأكيد.

- لا، أنا لا أمزح.

- لا بدّ أنك تمزح! فيوليت؟ هذه اللعبة الشبيهة بباربي؟ إنها.

تحرّك «جمال» نحو «كريم» قبل أن ترمش عينا الآخر، ووجد «كريم» رأسه محشوراً تحت إبط «جمال»، كان يقاوم الضحكة التي أوشكت أن تنفجر من صدره، وشعر لوهلة بأنه على وشك الاختناق، فدفع «جمال» عنه بقوة، وقال: ماذا ستعطيني إذا وافقت على طلبك؟

ضاقت حدقتا عيني «جمال». بدا الأخوان الآن أقرب إلى ما هما عليه في العادة، ها هما يعقدان صفقة. «حسناً، في البداية، لن أبوح لماما بأنني رأيتك بعد ظهر اليوم تسير مبتعداً مع ذلك الفتى المتشرّد الذي اصطحبك إلى مخيم اللاجئين». نظر «كريم» إلى «جمال» والخوف يملأ قلبه.

- لا، أنت لم ترني مع أحد، وإذا رأيت ما رأيت، فلا بدّ أنه كان شخصاً آخر اعتقدت

أنت أنه أنا.

- هل تظنني عاجزاً عن تمييز أخي؟ كنت أنت، لكن من هو ذلك الصبي؟

- فقط صبي، وعلى أية حال، ماذا كنت تفعل أنت هناك؟

- هذا ليس من شأنك.

بات الموقف متعادلاً بينهما الآن. نظرا في عيون بعضهما، وكان «كريم» البادئ في خفض بصره. انتابه فجأة شعور غريب غامر تجاه «جمال»، وأراد دون تردد عقد صفقة معه بأي مقابل، رغم أن هذا يعني خسارته لفرصة كبيرة لم تتح له منذ زمن طويل جداً.

قال «كريم»: سأقوم بما تريده.

فوجئ «جمال»، ورفع حاجبيه مبديا استغراباً مما يجري.

- ماذا؟ تقصد دون مقابل؟

- نعم، أيها العاشق الكبير اللطيف؟

- واو، «كريم»، أتعلم أنك صبيّ جيد، أنت حقاً هكذا، لكن تذكر أنّ السرّية التامة هي الأهم، فمك سيظل مغلقاً وكذلك فم جوني، عليك أن تلفّق لجوني قصة ما وتضمن سكوته.

- لا عليك، اترك جوني لي.

شعر «كريم» بالفخر والعظمة وكرم الأخلاق، فيما جاءهم صوت أمهم تنادي من المطبخ:

- «جمال»، «كريم»، تعالا لتناول الطعام.

خشي «كريم» أن تكون أجواء وجبة العشاء متوترة وصامتة، وأن يكون الوالدان منزعجين وصامتين والصغيرتان تنتحبان، لكن المفاجأة الكبرى كانت في رؤية والده مبتسماً وهادئاً، بل يمكن القول إنه بدا مرحاً تقريباً وهو يقطع اللحم ويوزّعه على صحون أفراد الأسرة. قال موجها حديثة نحو «جمال» و«كريم»: سمعت أن مدرستكما لم تعد صالحة للعمل، قيل لي إن حال المدرسة بات مزريا.

هزّ «جمال» و«كريم» رأسيهما بالموافقة.

- إذا ستكون لديكما إجازة لبعض الوقت، لذلك أريد منكما أن تحزما حقيبة سفر لكل منكما، لأننا سنذهب لرؤية جدّتكما في دير الدولاب. لقد اتصلت اليوم وقالت إن الزيتون جاهز للقطاف، وعلى أية حال فقد مضت بضعة شهور منذ آخر مرة ذهبنا فيها إلى المزرعة.

نظر «كريم» إلى «جمال»، وكما توقع، وجده خائفاً.

- لكن كيف لك أن تترك الدكان يا بابا؟ أليست الدكان بحاجة. أنا أستطيع مساعدتك في ترتيب المكان؟

لم يعقّب حسان، لكن الخطوط التي ارتسمت على جبهته أشارت إلى ثقل الهمّ الذي يحمله. تدخلت لمياء بسرعة:

- هناك الكثير نحققه من موسم قطاف الزيتون. لقد أوصى أبوكم على بضائع جديدة للدكّان، لذلك فأنه سيعاود فتح المحل عندما تصل البضاعة، وعندما تهدأ الأحوال في البلد.

قال حسان: سنغادر في الصباح الباكر. أريدكم أن تكونوا جاهزين في السابعة والنصف.

قال «جمال»: ولكن.

ركل «كريم» قدمه من تحت الطاولة، فنظر «جمال» إليه ولم يكمل كلامه. فرح كانت سعيدة بالفكرة، وقالت: هل يمكن لرشا أن تأتي معنا، أرجوك يا بابا!

- لا، لا يا حبيبي، سيكون الأمر عبئاً إضافيا على جدتك.

ركزّ «كريم» عينيه داخل صحنه. لطالما أحبّ الذهاب إلى القرية عندما كان في عمر فرح، عندما يكون جوني هناك، التقى بجوني هناك، وهناك أصبحا صديقين. لقد تربى والداهما سويّا في القرية، وذهبا إلى المدرسة نفسها، ولعبا سويا في أزقة القرية وتحت أشجار الزيتون. العلاقة التي تربطهما قوية جدا مثل تلك التي تربطه الآن بجوني، رغم حقيقة أن عائلة «كريم» مسلمة وعائلة جوني مسيحية.

«سأكون سعيداً لو أن جوني قادم معنا أيضاً»، فكّر «كريم» وهو يسكب المزيد من الفاصوليا في صحنه. لكن جوني لن يستطيع الذهاب إلى القرية، هو متأكد من ذلك، فمدرسة الروم الأرثوذكس التي يذهب إليها لم يحتلّها الجنود، على الأقل هذه

المرة. جوني وفيوليت سيعودان إلى المدرسة غدا، وحقائبهما المدرسية مثقلة بالكتب. «سأفكّر في شيء ما»، قال «كريم» لنفسه، «سأجد عذراً مناسباً ليتركوني هنا».

٦

كانت التاسعة صباحاً، عندما غادروا رام الله. جلس «كريم» في المقعد الخلفيّ، وحشر نفسه عند زاوية المقعد، ليبتعد قدر الإمكان عن فرح. كان يشعر بالاشمئزاز من نفسه ومن أسرته، ومن العالم أجمع. كان قد أمضى ساعات ما بعد العشاء ليلة أمس وهو يبحث عن أسباب مقنعة يقدّمها في مرافعته أمام والده، ليسمح له بالبقاء في رام الله، وعندما استجمع شجاعته في النهاية وذهب لمواجهة الوالد، تبين له أن «جمال» سبقه. قال حسان بقليل من الصبر: قلت إن «جمال» يستطيع البقاء هنا، لكني لن اترككما كليكما. سمحت له بالبقاء ليتمكّن من الدراسة بهدوء وسلام، وإذا ما بقيت أنت أيضا، فستضيعان الوقت في الجدال والشجار. يكفي يا «كريم»، لقد حسمت الأمر، ولو سمحت، لا ترسم هذه العلامات فوق وجهك. إذا كنت قلقاً على دروسك إلى هذه الدرجة، يمكنك إحضار كتبك معك إلى القرية. هل حزمت أمتعتك؟ لم لا؟ اذهب واحزمها فوراً.

تنتظره أيام مملة وطويلة. ستكون هناك زيارات لا متناهية إلى بيوت الأقارب، وسيكون عليه تحمّل ساعات قاتلة وطويلة، يجلس خلالها بأدب واحترام، فوق كراسي غير مريحة، بينما يجلس الكبار في المقاعد الوثيرة، ويتحدثون دون توقف. سيكون عليه أن يتحمّل تعليقات عمّه الثقيلة، ومسلسل ذكريات عمّته والأشياء الطريفة التي قام بها في طفولته. ستبذل جدّته جهدها لتحشو معدته بأنواع الطعام كافة، التي يريدها والتي لا يريد أكلها، وأولاد عمّه سيحاولون زجّه معهم في ألعابهم، وعندما يفشلون في ذلك سيذهبون للعب مع أصدقائهم في القرية، ويتركونه وحيداً جالساً يراقب «فرح» وسيرين وهما تتلقيان الدلال من جميع أفراد الأسرة.

الازدحام الصباحي وسط رام الله انتهى، لكنّ الشوارع الضيّقة ما زالت مختنقة بالعربات والشاحنات وسيارات الأجرة. يتصرّف السائقون بعصبية واستعجال، وهم يحاولون العودة إلى حياتهم الطبيعية السابقة، بعد أسابيع من توقف الحياة.

الجميع على عجلة من أمرهم، ويسعون إلى الوصول ببضائعهم إلى السوق، وإلى إعادة ملء رفوف المخازن التي خلت من أية بضائع.

تحرّك باص صغير محمّل بالركاب فجأة، وتجاوز سيارة حسان. كان يحاول تجاوز رجل يدفع عربة محملة بالبرتقال. توقّف الباص في مكانه، وعطّل حركة السير في الاتجاه المعاكس، توقف كل شيء. قال حسان بسخرية من داخل السيارة: تفضل يا عزيزي، تجاوز الجميع وسر في طريقك إذا كنت ترغب في ذلك، فقط ابتعد عن ناظري ولا تدعني أراك في الجوار عندما يحلّ الظلام. فرح، التي كانت تلعب بدميتها، أسندت ظهر اللعبة إلى ذراع «كريم». أزاحها «كريم» بعيداً عنه، وأخرج رأسه من النافذة، متمنياً لو أنه يفتح الباب ويقفز خارج السيارة. السير متوقف تماماً الآن، والجميع يطلقون أبواق سياراتهم: السائقون يصرخون ويؤشرون بأيديهم. اقترب شخص من نافذة السيارة بجانب لمياء، كانت قد فتحتها للسماح للهواء بالدخول. قال الصوت برجاء: هذه الآيات للبيع، إنها مقاطع من القرآن الكريم، سأقبل بأي مبلغ تدفعينه مقابل هذه. انتفض «كريم» واستقام في مقعده: هذا الصوت مألوف لديه! انحنى إلى الأمام ليتعرّف على صاحب الصوت؟ وجد نفسه وجها لوجه مع الجندب. عاد ليكوّر نفسه في زاوية المقعد، لكنّ الوقت كان قد تأخر، والجندب ميزه جيداً. قال بنشوة عالية، بعد أن نسي مهمّته كبائع متجوّل، وتغيرت نغمة صوته تماماً: آه، أهلا «كريم»، إلى أين أنت ذاهب؟ اعتقدت أننا سنلتقي اليوم!

تمتم «كريم»: لا أستطيع، نحن ذاهبون إلى القرية، ولا أعلم متى سنعود.

فتحت لمياء حقيبة يدها بحثاً عن قطع نقدية، قامت بإلقائها في راحة يد الجندب الذي سلّمها بدوره ورقة صغيرة كتبت عليها آيات من القرآن، ثم انحنى إلى حافة السيارة للتحدث مع «كريم».

في تلك اللحظة، ولحسن حظ «كريم»، تحرّك السير، وانطلقت سيارتهم. نظر إلى الخلف، فرأى الجندب واقفاً على الرّصيف يلوّح بيده، وابتسامة ودودة تعلو وجهه. رفع يده ولوّح له بطريقة تحمل الكثير من المعاني، ثم عاد وكوّر نفسه في الزاوية.

قالت أمّه بنبرة تحمل الكثير من الاستنكار: من هو ذلك الشخص بحقّ السماء؟

- شخص أعرفه من المدرسة، أنا لا أعرفه جيداً.

تنبه لوجه فرح التي كانت تراقبه بعينيها وتدرس ملامح وجهه، فلكزها بكوعه بقوة.

قال بعصبية: لماذا تحملقين هكذا؟ وحمل لعبتها التي كانت ملتصقة به وألقاها في الزاوية الأخرى من المقعد. قالت فرح شاكية: ماما، «كريم» يتصرّف معي بلؤم. لم تكن لمياء مصغية إلى الحوار.

- إن بيع نصوص قرآنية بهذه الطريقة عمل لا يختلف عن الاستجداء كثيراً.

قال حسان وهو يزيد من سرعة السيارة حين أصبح الطريق سالكاً أمامهم: وماذا باستطاعة هؤلاء الناس أن يعملوا بعد أن سلبت منهم معيشتهم؟ ليرحمهم الله برحمته، هؤلاء المساكين.

كانت الطريق إلى القرية تحتاج إلى نصف ساعة فقط في الماضي، وكان الذهاب إلى هناك يوم الجمعة سهلا وممكناً، فالجميع يذهبون عندما تكون المدارس والمتاجر مغلقة يوم العطلة الأسبوعية. لكن، ومنذ اندلاع الأحداث الأخيرة، بات الوصول إلى القرية شاقاً ومتعبا، بسبب حفر خندق كبير وعميق على عرض الطريق العام، ما جعل الوصول إلى ما بعد الحفرة مستحيلا، وتم شقّ طريق آخر كثيف الحراسة في الجبال يقطع الشوارع القديمة نصفين يسمح للإسرائيليين فقط باستعماله.

كان حسان قد أمضى في الليلة السابقة نحو ساعة وهو يهاتف الأقارب والأصدقاء، ليستفسر منهم عن آخر أحوال الطريق وأخبار الحواجز العسكرية الجديدة، حتى يتمكن من رسم خريطة للرحلة التي سيسلكها نحو القرية. «سنصل خلال ساعتين إذا حالفنا الحظ»، قال بأسى، وبدأت السيارة بالابتعاد عن آخر شارع من شوارع رام الله. لم يكن «كريم» قد سافر عبر تلك الطرق الترابية الضيقة، التي تتلوى من قرية إلى أخرى، عبر تلال وهضاب شديدة الانحدار، وأودية شديدة العمق. تابع المشاهد لفترة، وانهمك في مراقبة أشكال البيوت المبنية حديثا التي مرّوا بالقرب منها، والسيارات المدمرة والمحروقة التي ألقيت على جوانب الطريق، لكنه شعر بالملل من المراقبة، فعاد يصوّب نظره نحو السماء.

«حسناً، نحن نسير بشكل جيد»، قال حسان بارتياح، بعد أن مرّت ساعة على مغادرتهم رام الله. «جيد، سنصل خلال نصف ساعة من الآن، على ما أعتقد. لمياء، اتصلي بالوالدة وأبلغيها أننا سنكون بطرفهم قريباً».

انحنت لمياء لتلتقط حقيبة يدها. أخرجت هاتفها النقال استعداداً لطلب رقم أم حسان. رنّ الهاتف قبل أن تفعل. وضعت الهاتف على أذنها واستمعت لبضع ثوان. «إنها أختك، تقول إنها سمعت عن وجود بعض المشاكل في الطريق التي نسلكها». قالت

لمياء وهي تمرّر الهاتف إلى حسان. استمع حسان. سألها بضعة أسئلة. تمتم بسخط، ثم أعاد الهاتف ثانية إلى زوجته.

«علينا العودة والانتقال إلى طريق آخر»، قال حسان، وهدّأ من سرعته عندما بلغوا منعطفا وأضاف: سأستدير عائداً عند أول فرصة تتاح لنا».

سأل «كريم»: ماذا يجري، ما الذي حصل؟

قالت أمه وهي تلتفت إلى الخلف التفافة بسيطة: وقع حادث، بعض المستوطنين الإسرائيليين هاجموا قرية مجاورة ليلة أمس، وقتلوا ثلاثة فلسطينيين، وأصيب واحد من المستوطنين. أغلق الجنود الطريق، ولا يسمحون لأحد بالمرور.

هم الآن خلف ذلك المنعطف، وبدلاً من الطريق القروية الخالية التي كان من المتوقع أن يمرّوا بها بين القرى، ها هي طوابير العربات والباصات تمتد أمامهم. أمام الطوابير بدت سيارة عسكرية كاكيّة اللون تعلو ظهرها أضواء صفراء تتحرّك طيلة الوقت.

توقفت السيارة. نظر حسان خلفه: «ليست هناك أية سيارات قادمة من الخلف. صحيح أن الطريق ضيق، لكن من الأفضل أن أحاول الالتفاف الآن عند هذه النقطة، وإلاّ فإننا قد نعلق في هذه الأزمة ساعات طويلة».

بدأ بالرجوع إلى الخلف. صوت طرقة قوية فوق ظهر السيارة جعلهم جميعا يقفزون خوفاً. شعر «كريم» بأن شعر رأسه وقف إلى الأعلى، وأمسك بقوة بمسند رأس كرسي أمه. ثم سمع صوت صرخات. لمح صدر جندي كان واقفاً قرب السيارة تماما وملتصقاً بها. استطاع تمييز لباسه العسكري وجزء من بندقيته. ظهر جندي آخر بالقرب من النافذة الأمامية ناحية مقعد السائق. «تحرّك إلى هناك»، قال بعربية ثقيلة، وهو يشير إلى طابور العربات أمامه.

حرّك حسان السيارة إلى الأمام، ثم أوقفها خلف آخر سيارة. سار الجنديان بمحاذاة السيارة. فتح أحدهما باب السائق بعنف وقال موجها كلامه إلى حسان: «اخرج من السيارة».

دقّ الجندي الأخر على الزجاج الأمامي من الناحية الثانية، وطلب من لمياء فتح النافذة. أطل برأسه داخل السيارة، وتفحّص الجميع. جابت عيناه من تحت حافة فولاذ خوذته الثقيلة بين الجالسين، وعادتا لتستقرّا بتوتر عند «كريم» من جديد.

«كم عمره»، قال مخاطبا لمياء، مشيراً إلى «كريم» برأسه. «إحدى عشرة سنة»، قالت لمياء، وهي تنظر إلى الأمام.

فتح «كريم» فمه ليقول: «لو سمحت ماما، أنا في الثانية عشرة»، لكنه عاد وتراجع، وأبقى فمه مغلقاً. لمح «كريم» الخطّ الطويل من الرجال والصبيان الذين اصطفوا عند جانب الطريق. بعض الصبية يبدون أكبر منه بقليل، والجنود يحرسونهم وأصابعهم على الزناد. سحب الجندي رأسه بعيداً عن النافذة وقال: أغلقي النافذة، أغلقوا النوافذ كافة. ابقوا في السيارة.

انصاعت لمياء للأوامر دون أن تتفوّه بكلمة. لم ير «كريم» وجهها، لكن من طريقة رفعها لرأسها بتشنج جعلته يتخيل أن وجهها سيكون دون أي تعبير، ولن تمنح للجنديّ فرصة التشفّي إذا رأى خوفا أو غضباً. اختفى الجندي بعد أن انطلق ليلقي أوامره على السيارة التالية. انحنى «كريم»، ودسّ رأسه بين المقعدين وقال: ماذا سيحل ببابا؟

- لا أدري! وهل تظنّ أنني أفهم على هؤلاء الحيوانات؟

كانت فرح قد شدت لعبتها عندما ظهر رأس الجندي عبر النافذة، شدّتها إلى صدرها وهي تتمتم لتهدئتها، أما سيرين فلم تبدُ مدركة لما يجري، فقفزت إلى مقعد السائق وأمسكت بالمقود وهي تتظاهر بأنها تقود العربة.

راقب «كريم» الرجال والصبيان الواقفين عند حافة الطريق. كان الجندي يوجّه كلامه إليهم. كان يصرخ في وجوههم، ويصوّب بندقية نحوهم، لكن «كريم» لم يفهم كلماته. تحرّك الرجال ببطء وتثاقل، وعيونهم إلى الأرض. بعضهم كان يحرك أصابعه فوق أزرار قميصه. لكز الجندي بفوهة البندقية صدر أحدهم وصرخ من جديد. بدأت حركة الرجال بالتسارع. كريم مدّ رأسه ليراقب: «ماذا يفعلون؟»

كانت فرح تمصّ إبهامها، أخرجته من فمها، وقالت: لماذا يخلع بابا ملابسه؟

لم ترد لمياء، وسحبت سيرين إلى ناحيتها واحتضنتها إلى صدرها. بدأت سيرين تصارع لتفلت من بين يديها.

خلع الرجال والصبيان الجزء العلوي من ملابسهم، وتجمّعت قمصانهم ومعاطفهم في كومة على الأرض. تحرّك الجنود نحوهم بالبنادق من جديد، وعادوا إلى الصراخ في وجوههم. قالت لمياء بألم: لا أصدق هذا، يريدون إذلالهم، حتى كبار السن،

مكتبة الرمحي أحمد ٩٠

أمام أفراد عائلاتهم وأمام الغرباء!

ببطء، بدأ الرجال فكّ أحزمتهم وأزرارهم وسحاباتهم، تاركين بناطيلهم تسقط على الأرض، ثم بدأوا يخلعون أحذيتهم وجواربهم. راقب «كريم» المشهد بذهول مشوب بالرعب. مشاعر إحراج تغلي في داخله. الرجال يقفون في الطريق بملابسهم الداخلية. إنهم يبدون بصورة مضحكة ومثيرة للشفقة. يبدون أغبياء ومساكين، يحدّقون في الأرض، وبعضهم ينظر إلى السماء، وإلى البعيد. المهم ألا ينظروا إلى بعضهم بعضاً، أو حيث تجلس نساؤهم وأطفالهم، هناك في سياراتهم، شاهدين على الخزي والعار الذي لحق بهم.

«لم أكن أعرف أن ساقي بابا نحيلتين هكذا، كما لم أدرك من قبل أن كتفيه مستديرين» فكر كريم.

لم يستطع احتمال النظر إلى والده، ولم يستطع النظر بعيداً.

رجل مسن، كان قبل لحظات يقف بكرامة وكبرياء، مرتديا جلبابه الأبيض الطويل، وكوفيته البيضاء، التي يلبسها الرجال في القرى في العادة، يقف بجانب حسان مباشرة، حسان يقف شبه عارٍ وكان يحاول الوقوف باستقامة. ورفع رأسه عالياً، ليكشف عن وجه يحمل كل معاني الكرامة والعزّة التي سلبت منه.

«كريم» يراقب المشهد. الرجل المسن بدأ يترنح. لاحظ أن يد حسان امتدت لتحمي الرجل من الوقوع. استند الرجل إلى ذراع حسان ونظر إليه بامتنان. وقفا بجانب بعضهما بعضا، وبدأ حسان يربت على يد الرجل. رغم المسافة التي تفصله عنهما، لاحظ «كريم» أن يد الرجل كانت ترتجف.

اختفت رغبته في الضحك، وانزعج لمجرد تفكيره بأنه كان على وشك الضحك من المشهد أمامه. هذا ما يسعون إليه: أن نبدو جميعنا أمامهم بصورة سخيفة. كانت حرقة مؤلمة تتفاعل في داخله. لم يكن يقدّر والده بشكل خاص، قبل تلك اللحظة. كان يخاف من والده عندما يغضب، وكان يشع بالفرح عندما يثني عليه. افترض دائماً، وبشكل بديهيّ، أن أباه يتخذ القرارات الأكثر صوابا، وأنه قادر على حمايته وحماية إخوته، وقادر على تقديم النصح والمشورة لهم، وأنه يستطيع التمييز بين الخطأ والصواب. كلّ تلك البديهيات قفزت إلى رأسه وهو يراقب أباه في وضع مهين. شعر بالدم يتدفق إلى رأسه وعيونه.

عاد إليه وعيه على صوت تكة، أفلتت سيرين نفسها من حضن لمياء وعادت إلى مقعد السائق من جديد، ثم بلمحة بصر فتحت الباب وانطلقت بعيدا عن السيارة. صرخ «كريم»: لا ! «سيرين»، ارجعي! ودون تفكير منه، فتح الباب وانطلق ليمسك بها. سمع صوت صرخة عالية، وقبل أن يصل إلى سيرين، كانت يد الجندي تسحبه من ذراعه. قال الجندي بلهجة متعالية: ما الذي تفعله، أنت، فلسطيني؟

تمتم «كريم»: أختي. . ، إنها فقط في الرابعة، لقد فتحت الباب لوحدها. أنا.

عادت سيرين بسرعة وأمسكت بساق «كريم» بإحدى يديها، ثم شدّت بنطال الجندي الأخضر بيدها الأخرى، محاولة إبعاده عن «كريم»: عمّو، لو سمحت، أنا أريد بابا.

نظر الجندي الشابّ إليها، وتظاهر بأنه لم يفهم ما قالته. تردّد قليلاً. بدا وكأنه ارتبك من لمسه الطفلة الصغيرة قبل أن يتحرّك ليحرّر نفسه من يدها التي ظلت تهزّ بنطاله وتنظر في عينيه. يد الجندي التي كانت تقبض على ذراع «كريم» بدأت تهتز شعر «كريم» بها. «إنه خائف»، قال «كريم» لنفسه باستغراب، «هل يعتقد أننا سنهاجمه»؟ كان قادراً على تمييز رائحة الخوف القادمة من جسم الجندي.

«هي لا تريد أن تسبّب الأذى لأحد»، قال «كريم» كارهاً النبرة المسترضية في صوته، وأضاف: «سآخذها إلى السيارة».

دفعه الجندي بعيداً عنه وقال: خذها، لكن إذا أحدثتم المزيد من المشاكل، فسيكون عليكم الانضمام إلى طابور الإرهابيين هذا.

حمل «كريم» سيرين وركض بها. ألقى بها في حضن لمياء ثانية. كانت لمياء قد فتحت الباب هامّة بالنزول، لكن جنديا آخر بالقرب من السيارة، أمرها بالعودة وإغلاق الباب. قفز «كريم» إلى المقعد الخلفيّ، وأسقط جسمه فوقه.

«حبيبتي الغالية»، قالت لمياء وهي تدسّ رأسها في شعر سيرين. كان «كريم» يرتجف بعنف من الخوف والاضطراب، وأصابته حالة أشبه بالغثيان.

تحركت فرح ومالت عليه، أعادت إبهامها إلى فمها، بينما قبضت بيدها الثانية على ذراعه. تركها هذه المرة، ولم يدفعها بعيداً عنه. «أنا أكرههم، أنا أكرههم، أنا اكرههم»، قال لنفسه، وأشاح بوجهه بعيداً حتى لا يرى والده الذي كان لا يزال

هناك، وقد تحول إلى مجرّد شيء يدعو للسخرية، يقف إلى جانب ذلك المسن المرتبك.

-٧-

وصلوا القرية أخيراً بعد أن مرّوا من أمام البيوت التي لم يكتمل بناؤها خارجها، والمدرسة القديمة، ومصنع هدايا التذكارات الذي أغلق منذ اندلاع الأحداث الأخيرة.

سمح لحسان العابودي بعد ساعة من العذاب في العراء أن يرتدي ملابسه ويعود إلى سيارته. أسقط رأسه فوق عجلة القيادة للحظات بدت طويلة وهو يقبض على العجلة بشدة حتى ابيضت مفاصل أصابعه. لم يتمكن «كريم» من رؤية وجه والده، وكان سعيداً لأنه لم يفعل، لأن وجهه هو نفسه كان متوهجاً وعبقاً من حجم الإحراج والعار الذي شعر به.

«كنت سأواجههم وأدافع عن نفسي»، قال لنفسه، ولم أكن لأسمح لهم بفعل ذلك معي. لكنه كان يعلم جيداً أن أباه لم يملك خيارا آخر، ويعلم أنه أُرغم على تحمّل الموقف.

ساد صمت تام خلال نصف الساعة الأخيرة من الرحلة، وعندما حاولت لمياء أن تضع يدها على ذراع زوجها، أبعدها عنه بخشونة. حتى سيرين التي لا تسكت في العادة، وتكلم نفسها طيلة الوقت، ظلت صامته تماماً.

كانت لحظة وصولهم إلى بيت العائلة القديم لحظة ارتياح. أقبلت جدة «كريم» نحو الباب، وهي تجفف يديها بمنشفة. كانت كالعادة ترتدي ثوباً أسود مطرزا جميلا ينسدل فوق جذعها نحو الأرض، بينما حزمت خصرها بحزام عريض، وغطت رأسها بشال أبيض ناصع. توقع «كريم» أن تجري فرح نحو الجدة كما تفعل في العادة، مادةً لعبتها لتريها لها، أو تتسابق كالعادة مع سيرين لتتلقى القبلة الأولى، لكنها تراجعت وتباطأت وتركت سيرين تسبقها.

نظر بعيداً تحت التلة، فرأى عمّ أبيه «أبو فيصل» قادما من بين أشجار الزيتون، عند سفح التلة، وسكينه التي يقلم بها الأشجار ما زالت في يده. علت وجه الرجل الكبير

ابتسامة عريضة، جاء مرحّبا ومهللا، لكن «كريم» وجد صعوبة في النظر إلى وجهه. كانت صورة الرجل المسنّ في ذلك الطابور وقمبازه الأبيض وملابسه الداخلية على الأرض، عند حافة الطريق، لا تزال تطارده، وتسيطر على تفكيره.

قالت الجدة أم حسان، بعد أن خلصت عنقها من قبضة سيرين، وفسحت الطريق بالدخول: اعتقدت أنكم لن تصلوا إلى هنا أبداً، لقد احتجزوكم طوال هذا الوقت، أليس كذلك؟ إنهم يزدادون سوءاً يوما بعد يوم، والمشاكل لا تنتهي أبدا.

كانت الرائحة المميزة للبيت القديم هي التي تلفت انتباه «كريم» كلما أتى إلى هنا. رائحة الخشب المحروق، وروائح الأطباق التي تعدّها جدته بعناية، ورائحة الخبز الطازج وعبير أشجار الليمون وشذاها، ثم روائح الأعشاب المجفّفة. هذا الخليط يأخذه ويعيده إلى سنوات الطفولة الأولى من جديد. كل هذا يشعره بالاسترخاء والسكينة والطمأنينة.

لكنه اليوم لم يحبَّها. كل شيء أشعره بالاشمئزاز. انتشر خبر وصولهم وبدأ الأقارب في المنازل المجاورة بالوصول، وقدمت العمات بأجسامهن الضخمة وأصواتهن الريفية الخشنة للترحيب بهم، والحفيدات الصغيرات وهن يمسكن بأذيال أثوابهن التي وطئت الأرض، يحدقن بخجل في وجوه فرح وسيرين.

«كريم»، ها أنت هنا الآن»، قالت الجدة بصوت مريح وهادئ، وأضافت: «لطيف وأحمد لا يزالان في المدرسة، لكنهما يتطلعان بشوق إلى لقائك. أتذكر كيف كنت تلعب مع أولاد عمومتك عند الجدول؟»

ابتسم «كريم» بارتباك، فهو لم يذهب إلى الجدول منذ سنوات. وكان التفكيرفي ألعاب الطفولة مزعجا. مرّت فترة المساء بسرعة نسبياً. كانت لمياء قد همست للأقارب ببعض ما عاناه حسان خلال الرحلة، لذلك تجنبوا الحديث في الموضوع، وانتقلوا للحديث عن قضايا أخرى. وبدأ تناقل الأخبار.

منذ أن كانت العائلة هنا آخر مرة، مات عدد من سكان القرية ، وولد عدد جديد من الأطفال. جامع القرية استقبل شيخا راديكاليا جديدا، الكنيسة القديمة أصيبت بإحدى قذائف الدبابات الإسرائيلية. التلة المقابلة تماما للقرية، صودرت قبل سنتين، لبناء مستوطنة جديدة أكبر للمستوطنين الإسرائيليين. الخطوة أثارت حنق جميع الناس في المنطقة والجوار وغضبهم. وجود المستوطنة أدى إلى حدوث تفاعلات

يومية في الجوار. هذه المرة ثلاثة شبان فلسطينيين هاجموا بالحجارة وقنابل المولوتوف سيارة كانت تسافر على طريق المستوطنة. تم اعتقال الشباب، ونقلوا إلى سجن داخل إسرائيل. قالت أم حسان، وهي تسكب الطعام الذي أعدته على عجل: نحن نفكر في قطف الزيتون غدا.

- دعونا ننسى كل همومنا هذا المساء. العائلة كلها مجتمعة سوياً، وهذا هو الشيء المهم.

سمع «كريم» والده يسأل: هل نتوقع مشاكل من المستوطنين يا أماه، عندما نذهب لقطف الزيتون؟

قالت أمه: كنا نخشى حدوث مشاكل معهم الأسبوع الماضي، عندما ذهبنا إلى الجهة المقابلة من القرية، لكن، الحمد لله، لم يحدث شيء. الأوضاع تبدو هادئة في الفترة الأخيرة. سنكون بخير غدا إن شاء الله، لكن الحذر واجب طيلة الوقت.

في تلك الليلة، ولأول مرة منذ ان كانت طفلة صغيرة، بللت فرح السرير خلال نومها. حاولت جاهدة أن تخفي البقع الرطبة على مفارش السرير، ولكنّ الجدّة اكتشفتها، وقامت بغسلها ونشرها في الهواء الطلق، وأخرجت المرتبة لتهويتها وتعريضها للشمس. لم يوجه أحد اللوم إلى فرح، ولم تلق تأنيبا من أحد. لم تكن بحاجة إلى ذلك، فقد كانت تشعر بخجل شديد.

كان الهواء بارداً في ساعات الصباح الأولى، فالصيف اللاهب قد ذهب، وذهبت حرارته الحارقة، وها هو تشرين الثاني، بهوائه المنعش والبارد، يحرك أباجور المنزل، وينثر أوراق الشجر حول الشرفة في الساحة الخلفية للمنزل.

كان «كريم» يود لو يغوص في سريره ويعاود النوم من جديد، لكن أباه دخل الغرفة التي تشارك فيها «كريم» مع البنات، وهزّه من كتفه لإيقاظه. وعندما جرجر قدميه في اتجاه المطبخ، باحثا عن فطوره، اصطدم بالسلال التي اصطفت الواحدة فوق الأخرى، استعدادا لتعبئتها بالزيتون الجديد. كانت أم حسان منشغلة بتجهيز صرر الطعام وزجاجات الماء لقاطفي الزيتون الذين سيحملونها معهم إلى الحقل. هي ستظل في البيت لرعاية الصغار وتجهيز وجبة دسمة للمساء.

كانت العائلة حتى الآن قد قطفت ثمار الأشجار القريبة والمحيطة بالقرية، وبقي عليها قطف الأشجار البعيدة. الأرض التي ورثها جدّ «كريم» الأكبر عن أبيه أصبحت الآن

ملكا مشتركا لشبكة واسعة من الأقارب، وهم يجتمعون وينسقون نشاطاتهم عندما يبدأ موسم الحصاد، وكذلك عند حرث الأرض وتعشيبها وصيانتها.

كانت التلة التي ينوون الذهاب إليها على بعد كيلومترين، كان حسان يضع المعدات داخل السيارة، عندما خرج «كريم» من البيت، وكان قد رتب السلال في صندوق السيارة، وربط السلّم على ظهرها قال مخاطبا لمياء: هيا اركبي.

حشرت نفسها في المقعد الخلفيّ بين السلال، بينما احتلت إحدى العمات المقعد الأمامي. قال العم الكبير أبو فيصل: أنا و«كريم» سنذهب مشيا على الأقدام. ربت على كتف «كريم» بيده الكبيرة والخشنة وقال: نراكم هناك. هبطا الطريق المؤدي إلى مدخل القرية، ثم الطريق الفرعي المؤدي إلى الوادي، ثم صعدا التلة المقابلة. لطالما أحبّ «كريم» العمّ «أبو فيصل». كان يأخذه إلى الحقول عندما كان صغيرا، وهناك علّمه كيف يميز أنواع ثمار الصّبار الجيدة، وحذّره من الأماكن التي تكثر فيها الأفاعي. اليوم شعر «كريم» بأن لسانه معقود، وأنه عاجز عن فتح حوار مع عمه، منذ أن غادرا البيت وانطلقا.

شعر بالارتياح قليلا لأن أولاد عمه كانوا في المدرسة. لقد كبروا على الأشياء التي كانوا يعملونها حقاً. لطيف وأحمد ليس لديهما حاسوب، وهذا يعني أنه لا يستطيع التحدث معهما عن ألعابه الألكترونية المفضلة. لقد حاولوا تسليته ليلة أمس بالحديث عن حصان أبيهم الجديد. ذهب إلى الإسطبل لإلقاء نظرة عليه، ولكن لم يكن هناك الكثير كي يقال.

بات الجو أكثر دفئاً بعد أن احتلت الشمس قلب السماء، مع أن النسيم البارد يهب محركاً أوراق شجرة الزيتون الفضية الخضراء على جانبي الطريق. لم يبد أبو فيصل منزعجاً من صمت «كريم»، فهو نفسه لم يكن في مزاج للحديث، واكتفى بالإشارة من وقت إلى آخر إلى ألوان الطيور في المكان، أو إلى تذكير «كريم» بحادث وقع بينما كانوا يقطفون التوت البري من سفح التلة.

كان الرجل المسنّ سريعا في مشيته. أما كريم، فقد شعر بأنه لم يسترد لياقته بعد تلك الأيام الطويلة من الحصار في رام الله، فأخذت أنفاسه تتلاحق وهو يحاول اللحاق بخطى الرجل صاعدا التلة المنحدرة. وصلا أخيراً إلى القمة، كان كريم ينظر إلى قدميه في المئات الأخيرة من الأمتار، فيما ذهنه لا يزال هناك في رام الله، موزّعاً بين جوني والجندب. رفع رأسه أخيراً عندما وصلا القمة وتنفس الصعداء. مضت

سنوات منذ وصل إلى هذا البعد من القرية. جاء وفي ذهنه صورة مختلفة للمكان، الصورة التي عرفها دائماً، والتي تبدأ بسلاسل حجرية تحيط بالتّلة وتحتضنها لتشكل مرتعا خصباً وآمناً للمواشي، وتحت السلاسل مباشرة تمتد وتصطف أشجار الزيتون بكبرياء وفخار. بدلاً من ذلك، وعلى مسافة تقل عن كيلو متر واحد، أحاط جدار طويل بقمة التلة. وعلى مسافة أخرى من الجدار من الخارج، امتد بشكل متواز، سياجان من الأسلاك الشائكة، وصفوف من الأضواء المعلقة على أعمدة، فأصبح بينهما ما يشبه منطقة عازلة. توزّعت أبراج المراقبة المضاءة حول المكان من كل ناحية، وفي داخل الجدار بيوت بيضاء تقف في خطوط منتظمة، ورافعة كبيرة تحلق فوق مبنى طويل لم يكتمل بناؤه بعد. العلم الاسرائيلي الأزرق والأبيض يرفرف في سماء المنطقة.

واصل عمه السير، ثم التفت وراءه ليجد «كريم» واقفاً في مكانه. هزّ رأسه وهو يقرأ علامات الدهشة على وجه الفتى: ألم تكن تعلم بكلّ هذه التطورات؟ ألم تسمعنا نتحدث عن المستوطنة الجديدة هنا؟

- بلى، أظنني سمعت.

تذكر «كريم» أنه سمع حديثاً عاماً عن المستوطنة، حديثاً لم يعره الكثير من الاهتمام حينها، «لم أكن أعتقد أنها قريبة إلى هذا الحدّ».

ها هي سيارة والده تقف إلى جانب الطريق في الوادي هناك. والداه وعمته يشقون طريقهم بين أشجار الزيتون، حاملين سلالهم في اتجاه المصطبة السفلية في نهاية الوادي، المقابلة تماما للمستوطنة من الجهة الأخرى.

سار وعمه بمحاذاة السيارة. كانا يسيران مبتعدين عن الطريق، معجلين باتجاه المصطبة للحاق بالآخرين. وما إن دخلا بين أشجار الزيتون حتى استوقفتهما طلقة دوّت بالقرب منهما، أصابت حجراً على بعد أمتار من «كريم». تفتت الحجر إلى شظايا متطايرة في كلّ اتجاه. ارتعد «كريم» من الخوف، وتسمّرت قدماه في الأرض. وقف مرتعباً ومحتاراً، ولم يتمكّن من تحديد مكان انطلاق الرصاصة.

تصرّف عمه بسرعة، وقال وهو يحتمي بالسلسة القريبة: «أسرع، تحرّك إلى خلف الشجرة». الأشجار القديمة هناك لها جذوع عريضة جداً وتشكل حماية جيدة.

تبعه «كريم»، ثم سمع صوتاً يصرخ بالانجليزية قائلاً: «توقف، توقف، لا تتحرّك»،

وتلت ذلك طلقة ثانية أصابت السلسلة القريبة.

استدار بحذر شديد. لمح رجالاً في التلّة المقابلة يهرعون نازلين من المنطقة عند جدار المستوطنة. كانوا خمسة رجال.

والدة «كريم» كانت قد رأته وبدأت بدورها تنادي عليه: «افعل تماما ما يقولونه لك، لا تتحرك!»

تحرّك المستوطنون بسرعة كبيرة في اتجاه قاطفي الزيتون. كانوا جميعاً يحملون بنادق. توقفوا عند أسفل التلة، على بعد خمسين متراً من أفراد العائلة. قال أحدهم بالإنجليزية، وباستهجان عالٍ: ماذا تفعلون هنا؟ ألقوا بأسلحتكم وغادروا المكان.

لم يفهم «كريم» كل ما قالوه، لكنّه سمع صوت والده قادماً عبر الأشجار: ليست لدينا أية أسلحة، نحن لسنا مسلحين، نحن هنا فقط لقطف زيتوننا.

ضحك أحدهم قائلاً: زيتونكم، من الأفضل أن تنسى هذه المسألة، هذه الأرض هي الآن جزء من المستوطنة، ولن تقطفوا أيّ زيتون من هنا بعد اليوم. أتريد أن تموت هنا؟ لا بالطبع، إذن غادروا المكان الآن.

خرج أبو فيصل من مخبئه وراء الشجرة وقال: هذا المكان لنا، ونحن نملك كلّ ما يلزم لإثبات ذلك، جدّي.

جاء الجواب سريعاً بطلقة أصابت الشجرة على بعد ٢٠ سم من يده.

صرخت لمياء قائلة: حسناً، لا داعي لإطلاق النار، توقفوا. سنذهب.

قال أحد المستوطنين: ارفعوا أيديكم إلى أعلى. ألقوا بالسلال جانباً. اتركوها هنا واذهبوا بعيداً.

قال الآخر: وتستطيعون أن تبلغوا أصدقاءكم من الإرهابيين الآخرين أن عليهم الابتعاد هم أيضاً عن المكان، أتسمعونني؟

بدت المسافة طويلة وشاقة نحو السيارة، مع علمهم أن بنادق المستوطنين لا تزال مصوبة نحو ظهورهم. في طريقه إلى السيارة، أحس كريم بأن كتفيه يرتعشان بتوقع مرعب بأن طلقة ما ستخترق كتفه من الخلف، في أية لحظة. غريزته أوحت له بأن عليه أن يجري بسرعة، لكن عقله أمره بأن يتحرّك بخطوات مدروسة ومنتظمة، وألا يقوم بأية حركات مفاجئة أو غير متوقعة. يستطيع الآن أن يسمع والديه وعمّته يسيرون

خلفه، وصوت تنفس عمته السريع والمتلاحق. ستتسع السيارة لهم جميعا. دون السلال يوجد مكان لخمستهم في السيارة. أشعل حسان المحرّك بسرعة، ثم انطلق بكل ما استطاع من سرعة، قاطعاً التلة، متجهاً نحو القرية. كانت دموع العمة تنهمر بصمت على وجنتيها العريضتين: لصوص. لصوص، أنا أقطف الزيتون من هذا الحقل كل عام منذ تعلّمت قدماي السير.

صوت إطلاق نار قريب جعلهم يجفلون. «اخفضوا رؤوسكم، بسرعة، قالت لمياء: «لا يزالون يطلقون النار في اتجاهنا».

شدّد حسان قبضته على مقود السيارة وضغط بقوة على دوّاسة البنزين تاركاً السيارة تنطلق بأقصى سرعة ممكنة. وصلت المنعطف عند قمة التلة. توقّف حسان عندما وصلوا قمة التلة بأمان.

- هل الجميع بخير، هل أصابت الطلقة شيئا؟

قال أبو فيصل، وهو يلتفت نحو النافذة الخلفية: أعتقد أنها أصابت الصندوق الخلفي. حمداً لله أنها لم تصب الدولاب.

أدرك «كريم» أنه كان يرتعد، وأن جسمه كلّه، من رأسه حتى قدميه، كان يهتز. حاول جاهداً السيطرة على نفسه. سحب نفساً عميقاً وشبك يديه بقوة. لم يرد أن يظن الاخرون أنه خائف! كيف يمكنهم ذلك؟ يمنعوننا من قطف زيتوننا في أرضنا! لقد سرقوها، فلماذا لم يقم أحد بايقافهم؟

ضحك أبو فيصل بمرارة:

- لقد حاولنا. إياك أن تظن أننا لم نحاول، لكن الموقف كان مفاجئاً. لم نكن نتوقع قدومهم. ظهروا فجأة في أحد الأيام. كان يوم ثلاثاء على ما أظن، وكانت معهم أربع مقطورات أو خمس، وجرّافة واحدة. قبل ان ندرك نواياهم، توجّهوا نحو التلة وبدأوا جرف الأرض، وعندما تنبهنا إلى ما كانوا يفعلونه، جئنا إلى المكان بسرعة. كل القرية جاءت تقريباً. واقتربنا منهم بقدر ما استطعنا، لكن كانت لديهم بنادق واطلقوا الرصاص علينا. ما الذي كان بإمكاننا أن نفعله؟

أراد «كريم» أن يصرخ: «أيّ شيء! كان بإمكانكم عمل أي شيء»، لكنه خشي أن يبدو وكأنه يتطاول على عمه. هزّ كتفه بعدم صبر

قالت العمة التي جلست وسط المقعد بالقرب منه: «كريم»، أنت لا تعرف كيف كان الحال. بعضنا كان يستلقي في عرض الطريق ساعات طويلة ليسدّها أمام شاحنات الإسمنت، لكن حتى هذا لم يردعهم عن مواصلة العمل. لقد دهسوا «أبو علي» وتسببوا في كسر رجليه. أدركنا أنه لا حدود للأذى الذي يمكن أن يلحقوه بنا. ذهب أولادنا إلى هناك كل يوم، يلقون الحجارة على كل مستوطن يمرّ من أمامهم، وبعد كل مرة يأتي الجنود بدباباتهم وسياراتهم العسكرية، ألقى الأولاد الحجارة وقنابل المولوتوف وأطلق الجنود الرصاص. ألم تسمع عن ابن وليد الذي قتل على أيديهم؟ كان في الرابعة عشرة. لقد عملوا له نصبا في القرية، وأخوه فقد إحدى عينيه. ومنذ ذلك الوقت يأتي الجيش ويعتقل كل شخص يحاول مقاومة المستوطنين، يلقون بهم في السجون الإسرائيلية. ثلاثة من أبناء عمومتك لا يزالون في السجن.

- نعم، ولكن تلك الأشجار، وهذه التلة، هذه كلها لنا! أليس هذا ما قلته لنا يا بابا، ألم تحدثني عن جدك الأكبر و.

كان حسان يحاول أن يجتاز المنعطف الحاد عند جامع القرية، حيث كان رجل مسنّ يحاول تحميل بضائعه على ظهر حماره. لم يجب على تساؤلات «كريم»، وانتظر حتى ينتهي من المنعطف. قال بصوت حزين: لقد فعلنا كلّ شيء. أنا بنفسي حملت الوثائق كلها وعرضتها على المحامي. رفع دعوى أمام المحكمة لإثبات ملكيتنا للأرض، كان هذا قبل عامين، ولا تزال القضية تجرجر في أروقة المحاكم، وقد كلفتنا حتى الآن مبالغ هائلة. يمضي الوقت والمستوطنة تكبر وتترسّخ، ولا أعلم كيف سنخرجهم بعد ذلك.

قال أبو فيصل بتثاقل: لا بد أنهم يخططون لمزيد من التوسع، وهذا ما دفعهم إلى إطلاق النار في اتجاهنا، هم يخططون للاستيلاء على الهضبة الثانية، لا بد أن الأمر كذلك، سوف ترى.

لم يعلق أحد.

اجتمع ١٦ شخصاً حول مائدة أم حسان ذلك المساء، ليستمتعوا بالوجبة الفاخرة التي أمضت الجدة طيلة اليوم في إعدادها. انضمت لمياء إلى القريبات داخل المطبخ للمساعدة. أعدّوا الكوسا والباذنجان المحشي بلحم الغنم المفروم، وطبق الخضار المقطعة، وكرات اللحم، والدجاج المشوي والمرقة، إلى جانب طبق الأرز الهائل والمزيّن بأعشاب الحديقة.

طالما انجذب كريم في العادة لمنظر الأطباق المتزاحمة والألوان الرائعة المنتشرة فوق غطاء الطاولة البلاستيكي المزين برسومات الأزهار، وأغراه كي يتزاحم ويتسابق لاحتلال مقعد له قبل الآخرين، لكنه الليلة، رغم شعوره الشديد بالجوع، لا يشعربالرغبة في الاقتراب من المائدة، فمنذ عودتهم من حقل الزيتون وهو في غاية التعاسة.

بطل تحرير فلسطين! سخر من نفسه وهو يستذكر تلك القائمة التي كتبها في البيت في رام الله. «لم أمتلك حتى الجرأة للوقوف في وجه عصابة من المستوطنين المتنمرين. لقد هربت مبتعداً عند أول رصاصة».

ظلّ لوقت طويل جالسا خلف السور المحيط بحوض الخضار الذي زرعته جدّته، يرمي الحصى على علبة كولا قديمة تركت تحت شجرة الليمون. الحياة في رام الله مخيفة ومليئة بالمفاجآت، بينما يسود هذا المكان إحساس بالقرابة والدفء، الإحساس بالولاء والانتماء لأرض العائلة القديمة التي كانت دائماً هناك، وكانت جزءاً من حياته منذ أن تعرّف على الحياة. هذه الأرض بدت دائما راسخة وعصيّة على أيّ هجوم.

كل شيء يهتزّ الآن. لم يعد هناك ما هو ثابت ودائم. والأكثر إزعاجاً بالنسبة له هو الهدوء الذي يظهر على ملامح الآخرين، وتقبّلهم لما يحدث. عقله لا يستطيع التوقّف عن التفكير بصورة والده. «إنه ضعيف، نعم ضعيف»! فكرّ «كريم» وهو يتذكّر مع رجفة في جسده صورة حسان العابودي واقفاً شبه عارٍ تحت أنظار الجنود وحرابهم، وكيف هرب كالأرنب المذعور من نيران المستوطنين.

احتل «كريم» مقعده أمام الطاولة أخيراً، لكن صوت أمّه أعاده إلى حالة الغضب من جديد، عندما طلبت منه الذهاب لغسل يديه. راقب «فرح» وسيرين تقفزان وتتناوبان على حضن والده. تجنّب النظر في عيون أولاد عمه الذين جلسوا يتباهون ببطولاتهم في رمي الحجارة خلال معارك الأسبوع الماضي، عندما نزلت عصابة من المستوطنين

إلى القرية في الليل، وفتحت نيرانها في كلّ مكان، محدثة ثقوبا في خزانات الماء الخاصة بأهل القرية، و قطعاً لأسلاك الكهرباء التي تنقل التيار إلى بيوت القرية.

حوّل تركيزه إلى التقاط بضع حبات من الصنوبر واللوز المقلي الذي زيّن طبق الأرز، ووضعها في زاوية صحنه. هو يحبّها كثيراً ويوفرها دائما ليأكلها في نهاية وجبته. بالرغم من حالة عدم الرضا التي يمرّ بها، لم يستطع إلا الاعتراف بعظمة الجدة وقدراتها في الطبخ.

الرجلان الجالسان بالقرب منه هما زوجا ابنتي «أبو فيصل». إنهما يتحدثان عن أمريكا الآن. أحدهما كان يقول«أنا أفكر بالمسألة جدياً هذه الأيام، فأخي يملك صيدلية في بوسطن، ويمكنني الاستقرار عنده لفترة، حتى أنظم أموري هناك». قال الآخر: لن تكون المسألة صعبة بالنسبة لك، إنهم دائما بحاجة إلى أناس لديهم شهادة رياضيات، أما أنا! مدير سابق لفندق سياحيّ سابق لسواح سابقين لن يعودوا في المستقبل المنظور، وليست لدي أية أوراق تثبت خبراتي. أنت على حقّ فيما تفكر فيه. يبدو أن الهجرة باتت الأمل الوحيد لنا الآن. ما رأي عائشة بالموضوع؟

- لا تريد الذهاب، إنها تكره فكرة العيش بعيداً عن العائلة، لكنّي أحاول إقناعها بالمستقبل الأفضل الذي قد يحققه أولادنا، هناك في أميركا. نحن انتهينا هنا، فلسطين ضاعت.

يتسلى «كريم» عادة بحبات الصنوبر واللوز، ويأكلها ببطء، واحدة بعد الأخرى، لكنه اليوم يبتلعها كلّها في لقمة واحدة، ويمضغها بعصبية. دفع كرسيه إلى الخلف وغادر مبتعداً. لم يعد بإمكانه تحمّل الحوار الدائر أكثر من ذلك.

سيرين وفرح تركتا الطاولة قبله، وهما تجلسان فوق الكنبة، وتشاهدان التلفاز. جلس «كريم» عند نهاية الكنبة محدّقا في الشاشة، لكنه لم ير شيئاً. يعرض التلفاز مسلسلا سوريا يحبّ متابعته في العادة. اليوم يجده مملاً وتافهاً وغير محتمل. انتهى البرنامج، وظهرت صورة الكرة الأرضية على الشاشة. المذيع يقرأ نشرة الأخبار. نظر إلى الورقة أمامه ثم صوّب نظره إلى الشاشة: «فجر شابّ نفسه بعبوة ناسفة كبيرة أمام أحد مقاهي مدينة القدس عصر هذا اليوم، قتل في الحادث ١١ إسرائيليا من بينهم أربعة طلبة في المرحلة الثانوية، كان الطلبة يستمتعون بوقتهم بعد الانتهاء من تقديم امتحاناتهم. هوية الشاب لم تعرف بعد.»

تدفق إلى رأس كريم شيء يشبه الشعور بالنصر «نعم! نعم!» همس قائلاً. توقفت النقاشات الدائرة حول الطاولة. الملاعق والشوك التي كانت في طريقها إلى الأفواه الكبيرة توقفت في منتصف الطريق. استدارت المقاعد لتصبح في مواجهة الشاشة الصغيرة. قالت لمياء التي كانت في المطبخ تملأ طبق البامية من جديد: ماذا؟ ما الذي حصل؟

قال حسان بهدوء: عملية في القدس، مات أحد عشر شخصاً.

أخرجت لمياء صوتا من أنفها ووضعت الطبق جانباً: من الذي قام بها، ومن أية منطقة؟ هل قالوا؟

- لا، أنصتوا، لم ينته الخبر بعد. ها هو، من رام الله أو بيت لحم، ليسوا متأكدين بعد.

قالت لمياء وهي تهز رأسها: ستكون هناك عملية انتقامية. ستعود الدبابات من جديد. قد يقصفون مخيم اللاجئين، وعندها لن نتمكن من العودة إلى البيت.

قال حسان: ليس إذا كان الشابّ من بيت لحم. سيبحثون عن منزله ويدمّرونه، ثم يحبسون المدينة كلها في حظر تجول من جديد.

التفتت أم حسان إلى أحد أصهارها الذين كانوا يتحدثون عن الهجرة: أليست أمك في بيت لحم؟

قال بقلق، وهو يخرج هاتفه الخلوي: نعم. سأتصل بها وأذكّرها بأن تشتري كمية كافية من حبوب الضغط التي تستعملها. في المرة الأخيرة التي اجتاحوا فيها البلدة نفدت الأدوية من البيت، وكادت تصاب بسكتة من جراء ذلك.

رغب «كريم» في الصراخ في وجه الجميع وإسكاتهم، «ألم تسمعوا ما قال الرجل؟ هذا الشاب ضحّى بنفسه وحياته! إنه بطل. إنه شهيد! قام بشيء من أجلنا جميعا، من أجل فلسطين، ألا تأبهون لذلك»؟

نهض عن الكنبة وانطلق إلى الخارج ليغيب في الظلام. لم يشعر أبداً بمثل هذا الغضب أو الوحدة من قبل. سمع صوت كرسيّ يتحرك في الغرفة خلفه. خشي أن يأتي أحدهم ويسأله عن سبب وجوده هناك، ولتجنب ذلك، سار مبتعداً حول المنزل إلى جهة المخزن القديم. لن يقترب أحد من ذلك المكان.

لم ينجح. إحدى غرف المخزن مضاءة، وها هو شخص يخرج منها. إنه عمّه. استدار «كريم» محاولاً التسلل بعيداً، لكن «أبو فيصل» رآه.

قال: «كريم»! أهذا أنت؟ ولم يبد عليه الاستغراب أبداً: اقترب يا بنيّ، أريد أن أريك شيئاً.

تبعه «كريم» بتردد إلى داخل المخزن. لم يدخل هذه الغرفة إلا نادراً، ولم يدخلها أبداً بعد حلول الظلام. الغرفة كبيرة ومربعة. السقف المقوّس يتدلى منه سلك كهربائي علقت به لمبة واحدة، وزجاجات الزيت وأكوام البصل مكدّسة في كوى الجدران الحجرية. حزم من الحطب تتمدّد قرب الباب، وفي وسط الغرفة فوق كومة من علف، وقف حمار. قال أبو فيصل، وهو يتجه نحو الحمار، ويربّت على ظهره: هل دخلت هذا المكان من قبل؟

- نعم، أظن ذلك.

- أنا ولدت في هذه الغرفة. هنا عاشت جدتك وجدك وأسلافهم منذ مئات السنين، في هذه الغرفة والغرفة المجاورة. جدك رحمه الله بنى البيت الحديث هناك، من الأموال التي جمعها خلال سنوات عمله في السعودية. أما هذا المكان، فهو بيت العائلة الأقدم.

نظر «كريم» حوله. لم يستطع أن يتخيل ما كانت عليه هذه الغرفة، ولا كيف عاش الناس فيها.

- كانوا ينامون فيها ويعملون كلّ شيء هنا؟

واصل أبو فيصل جمع العلف وتقريبه من فم الحمار: نعم، كان المكان بارداً في الصيف ودافئاً في الشتاء، لم يكن سيئاً على الإطلاق. إنه ليس حديثاً بالطبع، كنا نستخدم مصابيح الزيت للإنارة، ولم تكن لدينا مياه جارية في الصنابير، تماما كما سيكون عليه الحال إذا استمرّ المستوطنون في إطلاق النار على خزانات مياهنا، وسرقة آبارنا.

مرّر يده برفق فوق ظهر الحمار. نفض الحمار فروته الرمادية، وقوّس حدبة ظهره، وحرّك ذيله تعبيراً عن رغبته في الخلود إلى النوم: «كان لديه جرح سيّئ في ظهره، إنه يلتئم الآن. أنا أراقبه وأعتني به حتى الآن»

اقترب «كريم» من الحمار وتفحصه. لم يميز مكان الجرح بدقة. رائحة أنفاسه الطيبة، والهدوء الذي ينشره في الأرجاء، ساعدت «كريم» على استعادة هدوئه.

جلس أبو فيصل فوق أحد أكياس العلف، وتفحص «كريم» بعينيه اللتين أطلتا من تحت حاجبيه الأبيضين. قال باهتمام: لم يكن يومك جيداً!

شعر «كريم» بالدم يتدفق إلى رأسه، قال بغضب: لا أحد يفعل شيئاً! أبي أرغموه على خلع ملابسه! ثم أطلقوا النار عليه- علينا في قلب حقول الزيتون الخاصة بنا، لكنه لا يفعل شيئاً. وهناك في الداخل، عندما سمعوا بنبأ العملية، لم يكترثوا إلا لشيء واحد، وهو كيف سيصلون البيت دون مشاكل، أنا أشعر. بالحزي!

سقط فوق أحد الأكياس إلى مقابل عمّه.

لم يقل أبو فيصل شيئاً لبعض الوقت، ثم التقط عود شعير وبدأ يلعب به بأصابع يديه. قال أخيراً: المسألة ليست بسيطة، لا شيء بسيط.

- إنها. يا عمّي. كذلك! لقد أخذوا أرضنا وهم يقتلوننا، وعلينا أن نقاومهم ونقتلهم، هذا هو العدل، هذا كل ما في الأمر!

جمع أبو فيصل أطراف جلبابه حول قدميه: اسمع، دعني أقول لك شيئاً، عندما احتلونا عام ١٩٦٧ قبل أن تولد أنت بكثير، كنت أنا هنا في القرية، وكنت أعمل في هذه الحقول. كنت صغيراً في مثل عمرك، لكن كان لديّ الكثير من الوقت لأفكّر، كنت أفكر بالمسألة كل يوم، فالعيش في الريف يمنحك هذا الوقت للتفكير، حتى إنني قلت لنفسي: «ربما هم على حق، ربما هم متفوقون علينا، ربما يستحقون هذه الأرض ليفعلوا بها ما يشاءون، ربما نحن سيئون ولا نستحق الحياة، وربما نحن شعب جاهل كما يقولون».

احمرّ وجه «كريم» وهو يكبت غيظه وغضبه، وأخذ يتلوى فوق كيس العلف، أبو فيصل لم يعره اهتماماً. - راقبتهم عن كثب. راقبتهم لفترة طويلة. وكنت أحاول أن أتأكد إن كانوا شعباً أفضل أم لا رأيت في النهاية أنهم ليسوا كذلك. هم سيئون وجيدون، أخلاقيون وغير أخلاقيين، طماعون وبخلاء، قساة وطيبو القلب، هم مجرد رجال ونساء وأطفال مثلنا جميعاً، هم بشر

- بشر؟ هل يمكن تسمية هؤلاء المستوطنين بشر؟

- نعم، بشر مثلنا، وهذا ما اجده محبطا. فكلما راقبتهم أدركت ما يقدر البشر على ارتكابه. أنا أدرك أنه يمكن أن نكون مثلهم. لقد أروني كم تقدر الطبيعة البشرية أن تكون سيئة. ربما لو كنا نملك قوتهم، وكنا نتفوق عليهم أو على أي شعب آخر، كنا سنفعل مثلهم. هذا نموذج لما هو علية الحال عندما يحكم الغازي شعباً محتلا. صاحب النفوذ والقوة لا بدّ له أن يكره ضحيته حتى يتمكن من العيش دون إحساس بالذنب أو صحوة الضمير. نحن لا شيء بنظرهم، نحن شيء لا يرقى إلى مستوى البشر تماماً، إنهم لا يحتملون فكرة اننا كلنا متساوون.

سكت «كريم» بعض الوقت، بصوت منخفض قال: نحن لسنا سيئين. هم سيئون. أنظر كم طفلا فلسطينيا قتل على أيديهم. نحن نضربهم بالحجارة، وهم يطلقون علينا الرصاص ليقتلونا.

- هل هذا يجعل ذهابنا إلى هناك وتفجيرهم عملاً صحيحاً؟ هؤلاء الأطفال الذين قتلوا اليوم، كانوا في مثل سنك أو في مثل عمر «جمال»، هل يستحقون الموت؟ وكيف ستشعر عائلاتهم هذه الليلة؟ وماذا عن الجرحى؟ بعضهم أصبح دون يد أو قدم مشوه الى الأبد، أو ربما فقد بصره.

لم يعد «كريم» قادراً على الاستماع إلى عمّه أكثر من ذلك.

- هم يكرهوننا، ويريدون تدميرنا، وأنا أكرههم، أكرههم كلّهم، أنا لا أهتم إن كانوا صغاراً أو كباراً. المسألة بسيطة، بسيطة جدا.

ضحك أبو فيصل، لكن الحزن في عينيه ظلّ هناك: هذا ما تفكر فيه الآن، لكنك ستتذكر كلامي هذا يوماً. المسألة ليست بهذه البساطة على الإطلاق.

عندما عاد «كريم» وعمه إلى الغرفة، كان الكبار جميعاً لا يزالون حول الطاولة. لم يبد أن أحدا انتبه إلى غيابهم. نوع من المرح المشوب باليأس كان يغمر الأجواء.

«خذي المزيد من الزيتون»، قالت أم حسان وهي تمرّر طبق الفخار الذي يضمّ حبات الزيتون الأخضر اللماعة عبر الطاولة إلى جهة زوجة ابنها وأضافت: «من يدري إن كنا سنقطف الزيتون في العام القادم أم لا».

ابتعدت لمياء بجسمها قليلاً عن حافة الطاولة، وتحسست معدتها قائلة: لا أستطيع. لقد حشوت نفسي أكثر من اللازم!

@ktabpdf تيليجرام

«لا داعي للقلق»، قال ابن عمّه وهو يتناول الطبق ويأخذ منه بضع حبات: «الإسرائيليون يحبوننا كثيراً، وسيحرصون على قطاف الزيتون نيابة عنا في السنة القادمة، ثم يبيعونه لنا بسعر خاص جداً، وعالٍ جداً.»

ابتسم بعضهم لهذه الدعابة، لكن أحداً لم يضحك.

«يا الله»! تنهدت واحدة من العمات قائلة: «متى سيغرب هؤلاء الناس عنا ويتركوننا لشأننا؟»

«ومتى تركنا أحد لشأننا؟» قال أبو فيصل، الذي احتلّ مكانه بالقرب من زاوية الطاولة. «قبل أن يسرق الإسرائيليون أرضنا، كان البريطانيون يستعمروننا ويتسلّطون علينا، لقد قتلوا ثلاثة أشخاص من هذه القرية. وفي أيام جدّي كان الحكم التركي.»

قالت العمة الكبيرة: سيفعلون يوما ما، إن شاء الله سيفعلون.

قال «كريم» مقاطعاً، ونظر إلى عمّه بشيء من التحدي: يجب أن نكون مثل الذين يقومون بالعمليات، ونقتل كلّ من نستطيع قتله منهم.

قال أحد أولاد عمومته: أنا لست غبياً، خياري هو الهجرة.

كان حسان العابودي ساكتا طوال الوقت. عدّل من قامته والتفت حوله. نظر في عيون الجميع وقال: «القدرة على التحمّل هي الشجاعة بحدّ ذاتها. صدقنا مع أنفسنا هو سرّ قوتنا. عندما يسرقون منا ويحاولون إذلالنا، فإن العار الحقيقي يلحق بهم هم، لا نحن».

راقبه «كريم». بدا له والده منكمش الحجم قبل تناول الطعام وخلاله، لكنه الآن عاد ليكبر من جديد. إنه رجل حقيقي. شعر «كريم» بموجة من الحبّ تعود لتشده إلى والده. أراد أن يهرع نحوه ويلف عنقه بذراعيه، لكن فكرة القيام بذلك كانت محرجة حتى إنه شعر باحمرار في وجنتيه.

«العار عليهم هم»، قال حسان بقتامة.

شعر «كريم» فجأة بالتعب والإرهاق الشديدين، تثاءب بفم مفتوح على مصراعيه. لاحظته لمياء: علينا النوم مبكّراً. سننطلق في السابعة والنصف، فلا أحد يعرف كم ستتحمّلنا رحلة الوصول ثانية إلى البيت.

من الجميل العودة الى رام الله، رغم كلّ المخاوف والتوقعات السيئة التي سيطرت على المدينة، في أعقاب العملية. أوقف حسان السيارة في المرآب أمام بنايتهم. انطلقت الفتاتان بسرعة نحو باب المبنى. وصلت فرح منتصف الدرج فيما كان «كريم» لا يزال يفكك سماعتي جهاز الووكمان ويفتح باب السيارة للنزول منها.

«رشا!» كانت فرح تنادي بصوت عالٍ، «أنا عدت، أنا هنا». كان كريم على وشك اللحاق بها عندما نادت أمه قائلة: «كريم»، الى أين تذهب؟ تعال ساعدني في حمل الأغراض التي في الصندوق. لن أستطيع نقل كلّ هذه الأشياء وحدي.

شدّ «كريم» السّلة المثقلة بالخضروات من يدها متذمراً. هو الذي يقوم بالمهمات، أما فرح، فقد هربت كالعادة. حتى عندما كان في الثامنة كان يساعد أمه في كثير من الأعمال.

على الأقل، كانت رحلة العودة سهلة، ومرت دون مشاكل. توتر وارتعب عندما اقتربوا من الحاجز العسكري، ثمّ تبين لهم عندما وصلوا هناك أن الجنود غادروا المكان بعد أن خلفوا وراءهم أسلاكاً شائكة ملقاة في أكوام هنا وهناك، وبعض صخور كبيرة كانت الدبابة قد أغلقت بها نصف الطريق. سارت العربات ببطء شديد لاضطرارها إلى المرور من الجزء الضيّق الصالح للاستعمال من الطريق. أغلق «كريم» عينيه عندما مرّوا من المنطقة التي شهد فيها إذلال والده. هذه البقعة محفورة بوضوح في ذاكرته، لم يشأ أن ينظر إليها ثانية. كان عليهم اجتياز حاجزين آخرين للوصول إلى رام الله. انتظروا عشرين دقيقة أمام الحاجز الثاني، قبل أن يسمح لهم بالمرور. لم يكن هناك سبب محدّد للتأخير. في النهاية، أشار الجندي بيده، وطلب إليهم الاقتراب من الحاجز. تفحصهم بعناية، بينما أبقى كل منهم وجهه دون أي تعبير.

الأكياس التي أعطته إياها لمياء بدت كأنها تزن طنا. هكذا هو الحال دائماً عند عودتهم من القرية. الجدة والعمات يحملونهم بالكثير ما تنتجه الأرض هناك، من خضروات وفاكهة، وأيضا مما يخزنون في المخزن الكبير من بصل وليمون ونعنع وبقدونس وزيتون ومخللات وزيت. قالت الجدة وهي تحمّل لمياء قطفاً آخر من العنب: خذوا كل ما تستطيعون حمله. لا أحد يعلم إن كنا ستتمكن من زراعة أشياء أخرى هنا في المستقبل. لقد أخذوا حقل الزيتون هذا العام، وقد يستولون على كل حقولنا في العام القادم.

كان واضحا عندما دخلوا البيت أن «جمال» لم يكن يتوقّع حضورهم بهذه السرعة. لم يكن في البيت، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن جوّاً من الدراسة الجدّية ساد البيت في غيابهم. الأطباق كانت متراكمة في حوض الجلي، وأكواب القهوة وفتات خبز كانت فوق الطاولة بين الكنبة والتلفاز. قالت لمياء لزوجها بتذمر، بعد ان طقطقت بلسانها علامة على الاستياء من منظر الفوضى: لم يكن من المفروض أن تسمح له بالبقاء. لا أعتقد أنه درس في غيابنا، ولا لمدة نصف ساعة متواصلة.

لفّ حسان العابودي حول الموضوع قائلاً: هل أنت نادمة لأنه لم يكن معي عند الحاجز ذلك اليوم؟ أم أنك تتمنين لو أنه كان معنا ونحن نقطف الزيتون؟ كان سيكون هدفاً ثميناً لهم! شاب في السابعة عشرة!

عضت لمياء على شفتها، وتركته متجهة إلى المطبخ. أشعل حسان التلفاز: اجتاحت الدبابات مدينة بيت لحم هذا الصباح، وفرض حظر التجوال على المدينة. وفي رام الله تقع اشتباكات بين الشبان الفلسطينيين والقوات الإسرائيلية.

أغلق «كريم» أذنيه. «ها نحن في البيت من جديد، فكر بمرارة، شاعرا بالتوتر المألوف في الجو. مضت على عودتهم خمس دقائق فقط، لكنّه شعر بحاجة إلى أن ينطلق إلى الخارج. حمل كرته. تسلل من وراء الكنبة متجهاً نحو الباب. قال مخاطباً والده دون أن ينظر في وجهه: أنا ذاهب لرؤية جوني. كان حسان يتنقل بين محطات التلفاز، همهم بصوت خافت، لكنه لم يلتفت ليرد على «كريم»

ليس هناك ما هو أعظم من أن تكون في الخارج وحدك. حشر «كريم» الكرة تحت إبطه وقطع موقف السيارات ثم اجتاز الطريق المختصرة المؤدية إلى الطريق العام نحو أعلى التلة. سار بسرعة، وبرغبة عارمة في الابتعاد عن الشقق السكنية، ليضمن أن أحدا لن يناديه ويطلب منه العودة إلى البيت. دون وعي منه، أصبحت خطواته أقصر وأكثر ترددا: هل يتجه يميناً ويذهب لرؤية جوني أم يواصل السير حتى المنعطف التالي ويتجه نحو المخيم لرؤية الجندب؟ تزاحمت الأفكار في رأسه حتى كاد يصطدم بجمال دون أن يلاحظه. كان «جمال» يقطع الشارع وفي يده علبة ملفوفة بورق هدايا أنيق.

- «كريم»: ماذا تفعل هنا؟

- عدنا إلى البيت مبكرين، وصلنا قبل قليل.

اتسعت عينا «جمال»، وبدا خائفاً ومرتبكاً.

- هل عدتم جميعاً، ماما وبابا أيضا؟ هل هما في البيت؟

- أتظن أنني عدت من القرية سيراً على الأقدام، وحدي؟ بالطبع هما هنا.

- لكن، لماذا؟ كان من المفترض ألا تعودوا قبل يوم الخميس؟

قفزت إلى رأسه من جديد صورة والده عند حافة الطريق، والمستوطنون يركضون نحوه بين أشجار الزيتون، ، لم يعرف من أين يبدأ حديثة. «كان. أقصد كانوا. .»

لم يكن جمال يستمع على اية حال: متى عدتم؟

- الآن، سبق أن قلت لك ذلك.

- هل رأت ماما غرفتنا؟

- ليس على حدّ علمي، لكنني.

سكت «كريم».

- توقف عن التذاكي، كنت قررت البدء بالدراسة هذا المساء، اعتقدت أن لدي الكثير من الوقت لأفعل ذلك.

ضاقت عينا كريم تعبيرا عن الشك: وماذا كنت تفعل طيلة الوقت؟ هل ذهبت إلى هناك حيث الدبابات؟ كانت هناك أخبار عن اشتباكات في رام الله.

هزّ «جمال» رأسه بالنفي، وتطايرت خصل الشعر الأسود فوق جبينه.

- لا، لم أذهب، ولا أحد من أصدقائي خرج أيضاً. الجميع حذرون جداً بسبب العملية.

- التفجير؟

- نعم.

نظرا في عيون بعضهما بصمت. نقر «كريم» على العلبة في يد «جمال» وقال: ما هذا؟

أحمرّت وجنتا «جمال»، وأبعد العلبة.

- اليك عني، توقف عن إزعاجي، واهتمّ بشؤونك.

ترك «كريم» في مكانه وانطلق مسرعا، ثم توقف وعاد وأمسك به من ذراعه قائلاً: ماذا فعلت بالنسبة للصورة؟

خلّص «كريم» نفسه من قبضته: هل أنت غبي أم ماذا؟ أنا كنت في القرية، أتذكر! هل تعتقد أن صور فيوليت كانت متناثرة هناك في كل مكان؟ ربّما كانت معلقة على سيقان الأشجار، وموزّعة في الأزقة؟ على أية حال، وعلى ذكر الأشجار، لن تصدّق ما حدث معنا، تصوّر أن زيتوننا. ذلك القائم فوق التلة البعيدة عن القرية، المستوطنون.

كان «جمال» قد سار مبتعداً.

- حسناً، يمكنك إخباري لاحقاً، لا تنس الصورة، لقد وعدتني.

اتجه بسرعة نحو مدخل المبنى. سيصعد الدرج كالسهم ثم يدخل غرفة نومهم ليبعد ألعابه الألكترونية عن الأنظار، ويعرض كتبه المدرسية فوق المكتب، هذا إذا حالفه الحظّ ووصل الغرفة قبل أن تقتحمها والدته.

أبعد كريم أخاه عن مجال تفكيره، ووصل إلى الطريق الرئيسي. اتجه يميناً. سيذهب لرؤية جوني. قضية الصورة هذه! لا بدّ من الانتهاء منها بسرعة، حتى لا يظلّ رهينة لإزعاج «جمال» وإلحاحه! آه، كم هو نادم على الوعد الذي أعطاه له. كم سيبدو تافهاً أمام جوني وهو يرجوه أن يعطيه صورة لأخته المائعة! سيظن أنه يريد الصورة لنفسه. آه، سينظر إليه جوني نظرة مليئة بعدم التصديق والاستهزاء، وربما الاحتقار. تباطأت خطواته قليلاً. ليس مستعدّاً لهذا اللقاء مع جوني. لا يزال بحاجة إلى التفكير جيداً، والبحث عن سبب جيد ومقنع، يمكّنه من الحصول على الصورة. هو بحاجة إلى قصة ما. على أية حال، جوني الآن في المدرسة، ولن يستطيع رؤيته، فمدرسته لم يتمّ العبث بها من قبل الإسرائيليين. استدار وسار في الطريق المعاكس المؤدي إلى مخيم اللاجئين. شعر بارتفاع معنوياته. كان هذا ما أراده في الحقيقة. سيذهب إلى ملعب كرة القدم الجديد باحثاً عن الجندب. حتى لو يكن صديقه هناك، لا يهمّ، سيقوم ببعض أعمال التنظيف وإزالة الحجارة من المكان، ويلعب لعبته المعهودة أمام الجدار. قد لا تكون اللعبة عظيمة مع ذلك الجدار الخشن المليء بالنتوءات والحفر، لكن هذا يمكن أن يرفع درجة التحدي، ويجعل اللعبة أكثر متعة. على أية حال، المحاولة بحدّ ذاتها ستكون ممتعة.

بدا ملعب الجندب اليوم أقرب مما كان يتذكره. سار بسرعة، لكنه عاد وتوقف لبعض الوقت عندما اقترب من البيت الذي قال الجندب إنه يسكن فيه. «يمكنني الاقتراب من المكان والسؤال عنه»، قال لنفسه وهو يدرك أنه لن يفعل ذلك، على أية حال أنا لا أعرف اسمه.

خرجت من خلف المنزل امرأة ترتدي ثوباً تقليدياً طويلاً وغطاء رأس أبيض. انحنى جذعها إلى الأسفل تحت ثقل الكيس الذي تحمله. لمحت «كريم» يتابعها بنظراته من فوق السور الذي يحيط بحوض الخضار. أمعنت النظر من جديد وقالت: هل تريد شيئاً؟ وصله صوتها قوياً وحاداً، لهجتها مثل سكان الساحل، «ما الذي تحدّق فيه، ألم ترَ كيس طحين من قبل؟»

أخذته المفاجأة ولم يجد جواباً مناسباً لسؤال المرأة، فاستدار، وانطلق بعيداً وهو يتصبّب عرقاً من الحرج والخجل. تبعته ضحكتها الخشنة وهو يبتعد نازلاً عن الهضبة.

كما توقّع، لم يجدْ أحدا في الملعب. سار قاطعاً الأرض المنبسطة حتى وصل الجدار في نهاية المساحة. يبدو المكان مختلفاً بدون الجندب. شعر وكأنه دخيل على المكان. قرر طرد الفكرة من رأسه. وضع الكرة على الأرض وبدأ يركلها. ارتطمت الكرة بحجر كبير وطارت في الاتجاه المعاكس. لقد توقع حصول ذلك. التقط الكرة وركلها من جديد، مع المزيد من التركيز والتوجيه نحو حجر أصغر من الأول، وأقلّ خشونة. عادت الكرة إليه بعد أن أصابت الحجر عادت بدقة إلى مكانها. كرر التجربة بسعادة. اللعب أمام هذا الجدار يحتاج إلى تركيز أكبر من اللعب أمام الجدار المقابل لبنايتهم السكنية.. يمكن لهذه التجربة أن تكون جيدة حقاً. ستجعله لاعباً أفضل، وهدّافاً أمهر. ستشذّب مهاراته بالتأكيد.

تراجع قليلاً إلى الخلف، ليتسنى له ركل الكرة من مسافة أطول، وبعد أن انطلقت الكرة وانحرفت إلى أحد الجانبين، جرى وراءها محاولاً التقاطها. أدرك في تلك اللحظة أن أرض الملعب أنظف من السابق، والحجارة فيها أقل. المنطقة النظيفة باتت أوسع. لا بد أن أحدهم كان هنا وعمل على إزالة كميات من الرمل والحصى والحجارة من المكان. «الجندب أراهن أنه هو»، فكر «كريم» مبتسماً. قرّر أن يقوم بدوره، باستكمالٍ جزء من العملية. وضع كرته في مكان آمن بين حجرين، حتى لا تتدحرج بعيداً، ونظر حوله، ثم قرّر البدء من هناك، حيث الشجيرات الشوكيّة.

سينظّف المساحة الممتدّة بين الجدار وتلك الثلاجة القديمة الملقاة هناك، قبل عودته إلى البيت.

ظهر الجندب فجأة، وبالهدوء نفسه، الذي أطلّ به عند لقائهما الأول. ظهر بينما كان «كريم» يرفع آخر قطعة طوب ليلقي بها بعيداً فوق كوم الحجارة الذي كان يكبر. قال بجفاف: لم أعتقد أنني سأراك ثانية. ظننت أنك اختفيت في سيارتكم تلك إلى الأبد.

ما زال هو نفسه، ذلك الصبيّ الأشعث النحيل والطويل، لكن ابتسامته الودية اختفت من وجهه. قفزت إلى ذاكرة «كريم» صورة الجندب وهو ينحني عبر نافذة سيارتهم بكل ثقة، والاستقبال الفاتر الذي قوبل به. عضّ شفته خجلاً: كنا ذاهبين إلى قريتنا، وعدنا اليوم إلى البيت. جئت مباشرة إلى هنا.

- أين هي قريتكم تلك؟

- تدعى دير الدولاب، مازالت تعيش جدتي هناك مع مجموعة كبيرة من أولاد العمومة، تبعد قريتنا حوالي نصف ساعة بالسيارة في الأحوال العادية لكن الرحلة استغرقت ساعات قبل أن نصل هذه المرة، لقد أوقفونا ساعات طويلة عند الحاجز

ركز الجندب نظره نحو علبة اسطوانية تحت قدمه، ركلها فتدحرجت بعيداً وقال: انت محظوظ لأنه لديك قرية تذهب إليها، قرية جدتي تقع الآن في منطقة بجوار تل أبيب. لم تر جدتي قريتها منذ طردها الإسرائيليون هي وعائلتها من هناك عام ١٩٤٨

لم يجد «كريم» إجابة أو تعليقاً مناسباً، لكن الجندب لم ينتظر منه ذلك، كان يتفحص المنطقة التي نظفها «كريم»، وقال: هل انتبهت إلى المساحة التي نظفتها يوم أمس؟

- نعم، عظيم، لا بد وأنك عملت لساعات طويلة.

ابتسما لبعضهما، واختفى التوتر تماماً من الأجواء.

قال الجندب وهو يومئ برأسه إلى مكان الكرة التي ما زالت في مكانها بين الحجرين: أرى أنك أحضرت كرتك معك.

التقطها «كريم» ودون أن يقول شيئا، ركل الكرة نحو الجدار، فأصابت نقطة جيدة، تماماً كما أراد لها، ثم تدحرجت بهدوء متجهة نحو الجندب. رفع الجندب رجله النحيلة وركلها فأصابت حجراً بارزاً في الجدار وطارت محلّقة في الهواء. زمجر

الجندب باستياء، فيما جرى «كريم» والتقطها على ركبته. لعبا بصمت مطولاً وبأدوار متناوبة، بدا «كريم» أكثر مهارة من رفيقه، فكلما تمكّن من تركيز وقفته، كان يصيب هدفه بدقة. ركلات الجندب جاءت سريعة وعشوائية، مرسلا إياها في كل اتجاه. كان الأمر ممتعا وشيّقا لكليهما.

«هذا عظيم»، قال «كريم» لاهثا وهما يتوقفان ثم يلقيان بجسميهما إلى الأرض فوق كومة من الحجارة. كان وجهاهما شديدي الاحمرار والعرق بتصبب منهما.

قال الجندب: أنا عطشان، هيا بنا إلى بيتي لنشرب شيئا هناك.

تذكّر «كريم» المرأة التي كانت تحمل كيس الطحين وشعر بالخجل: لا لا بد لي من العودة إلى البيت. سأقع في مأزق إذا تأخرت.

لاحظ نظرة عدم الرضا ترتسم على وجه الجندب، وهو يشيح بوجهه عنه. تمنّى في تلك اللحظة لو أنه وافق على الذهاب، لكنه قال: سأحضر غدا إذا ظلت المدرسة مغلقة.

- لا اعتقد أنها ستكون جاهزة غداً، ألم تر حجم الخراب والدمار الذي سببه الإسرائيليون؟ لقد عبثوا بكل شيء. أخذوا أجهزة الحاسوب، وحطموا الأدراج. قد نحتاج إلى أسبوع أو أكثر قبل أن نعود إلى الدراسة.

قال «كريم» وهو يستعد للسير: حسناً، سأعود غداً في الوقت نفسه.

- جيد، أراك غداً.

- إلى اللقاء.

رفع «كريم» الكرة بقدمه وركلها نحو صدره، ثم احتضنها بذراعيه. نظر إلى ساعته. كان الوقت متأخراً أكثر مما توقع. انطلق قاطعا ملعب الكرة بأقصى سرعة، ثم تسلق الهضبة.

سمع خطوات تجري خلفه. التفت ليرى الجندب يجري وراءه وقال: سأسير معك حتى المدرسة. سألقي نظرة على سير العمل هناك، لنرى أين وصلت الأمور.

- حسناً.

بدا ملعب كرة القدم في المدرسة مختلفاً. من الصعب التعرّف عليه. الشباك والأهداف

مكسورة وملقاة على الأرض، وأرض الملعب، التي كانت مستوية ومنتظمة من قبل، أصبحت محروثة، ومليئة بالحفر وأكوام التراب التي خلّفتها الجرّافات والدّبابات خلال سيرها فوق أرضه واستقرارها فيه. مقاعد الدراسة مكسرة وملقاة في أكوام أمام مدخل المدرسة، وعمال البناء تسلّقوا سلالم طويلة جداً ليتمكّنوا من إصلاح الثقوب والحفر في الجدران، التي نجمت عن قصف المدفعية والأسلحة الأخرى. عمال آخرون كانوا يزيلون قطع الزجاج المتبقية والعالقة في أطر النوافذ، ليتمكّنوا من إعادة تركيب زجاج جديد لها. قال الجندب: أترى ماذا قصدت؟ سيمرّ وقت طويل قبل أن نتمكن من العودة إلى المدرسة.

«كريم»؟ جاء صوت يناديه.

التفت «كريم» فرأى جوني ينزل الطريق من أعلى الهضبة مقترباً منه. شعر بشيء من الغرابة: ماذا سيكون رأي الجندب في جوني القادم نحوهم بزيّه المدرسي الأنيق جداً؟ وماذا سيكون رأي جوني في الجندب، الولد الأشعث القادم من مخيم اللاجئين؟

تمتم بسرعة قائلاً لا بد لي من الذهاب. ودون أن ينظر خلفه، ابتعد مسرعاً عن الجندب، وسار في اتجاه جوني. التقاه جوني بحركتي كاراتيه استعراضيتين، أوشك على السقوط، فأمسك بذراع «كريم» واستند عليه. قال جوني: لم أكن أعلم أنكم عدتم. أنا ذاهب إلى مركز المدينة، هل تريد القدوم معي؟

كان جوني يتحرّك بسرعة في اتجاه المدرسة. استوقفه «كريم» قائلاً: دعنا نذهب في ذلك الاتجاه. كان يحاول الابتعاد عن المكان الذي ترك الجندب عنده.

- لماذا؟ هذه الطريق أبعد.

- لا، إنها ليست كذلك.

- بلى، إنها كذلك، نحن دائما نذهب من هنا، ماذا دهاك؟

تردّد «كريم» وقال بانزعاج واضح: «لا شيء، على أية حال ليست لدي رغبة في الذهاب إلى المدينة، يجب أن أذهب إلى البيت، إنهم ينتظرونني هناك، تعال معي».

- لا، ماما تريدني أن أجلب لها شيئاً من الصيدلية، ماذا كنت تفعل هنا على أية حال؟ ومن ذلك الفتى؟

- لا أحد، كنت ألعب بالكرة، هذا كل شيء.

صوّب جوني نظره إلى ملعب المدرسة المهشم وقال: كرة قدم، أين؟ ليس هناك بالتأكيد؟

حرّك «كريم» شفتيه ثم عاد وصمت. هذا الموقف سخيف. تبدو الأشياء مختلطة بعضها ببعض، وهو لا يعلم كيف يصحح الأمور. بدا جوني وكأنه شعر بالإهانة: أنت حرّ، لا تقل لي ماذا كنت تفعل، أنا لا أريد أن أعرف على أية حال.

حاول تجاوز «كريم»، لكنه أوقفه: هل الذهاب إلى الصيدلية ضروري؟

كان يحاول تأخير جوني ريثما يجد طريقة لشرح الموقف: فيوليت مريضة، مصابة بالزّكام، وبحاجة إلى بعض العقاقير.

كانت هذه اللحظة ستكون مناسبة جداً. كان سيلفّ ذراعه حول كتف جوني ويهمس في أذنه بودّ ودون حواجز. سيحدّثه رجلا لرجل، كأن سيقول له شيء مثل: بمناسبة الحديث عن فيوليت، لن تصدّق ما سأقوله لك، أخي المجنون معجب بأختك المجنونة ويريدك أن تعطيه صورة لها. لكن هذا لم يكن ممكنا في تلك اللحظة. جوني لا يزال مستاءً، ها هو يتجاوز «كريم» ويمضي في سبيله. الخطوط على ظهره وهو يتحرّك تشير إلى انزعاجه. تجاوز الجندب دون أن ينتبه إلى وجوده. ضرب «كريم» بقدمه حافة الرصيف بقوة وغضب، ولوهلة ظنّ أنه آذى إصبع قدمه وشطره إلى جزئيين. أغمض عينيه بقوة من شدة الألم، ثم عاد وفتحهما موجّهاً نظرة مليئة بالغيظ نحو الجندب الذي كان مرتكزا إلى جدار المدرسة ينظر إليه. أدار «كريم» ظهره له، وانطلق يعرج متجهاً نحو البيت، بينما كانت الشتائم تنطلق من بين أنفاسه المتلاحقة.

مضى شارد الذهن يجرّ قدمه المتألمة، وتبين له أنه سلك الطريق الأبعد نحو البيت، دون أن يعي ذلك. اختفى ألم قدمه بعد دقائق، مارا من أمام البيوت الفاخرة التي يشغلها رجال الدولة. لقد عاثت الدبابات الإسرائيلية فساداً في هذا الجزء من المدينة أيضاً. أعمدة الكهرباء الطويلة الذي ثبتت في المكان مؤخراً، انحنت بأشكال غريبة وبعضها سقط على الأرض، بدت له الأضواء مثل حشرات مصابة وملقاة على جانبي الطريق. أجزاء من الرصيف هي الأخرى مهشمة وتناثرت قطعها على شكل معين. بالكاد انتبه كريم للدمار. ذهنه لا يزال منشغلاً بالموقف الغبيّ الذي وضع نفسه فيه. «ماذا كان سيحصل لو التقى جوني مع الجندب؟ لماذا خلقت مشكلة من لا شيء»؟

كان يرى جوني بخياله بكل وضوح كأنه واقف أمامه. هما صديقان حميمان منذ الأزل. فلم يفكر به كثيرا جوني بوجهه الدائري الممتلئ، وبثيابه المكويّة جيداً، وبحركات الكاراتيه غير الماهرة، وبحديثه ومزاحه وأفكاره الذكية. جوني وجسده، جوني كان مألوفا لديه كألفة غطاء سريره الأحمر. جوني أقرب إليه من أخيه «جمال»، وأهم من والديه بالنسبة له. كيف أمكنه التشاجر مع جوني؟

في الوقت نفسه يرى الجندب، هذا الفتى القادم من المجهول، الفتى الحادّ، القادر على القيام بأيّ شيء. الصديق السرّي الممنوع. الصداقة مع الجندب هي أيضاً رغبة ملحة عنده.

حاول أن يتخيل الولدين سوياً، وجنباً إلى جنب، لكنّه فشل. هما مختلفان تماماً، كاختلاف النسر عن الديك، أو الصبار عن عباد الشمس. الجندب سيرى جوني فتى مدللاً وناعما، وجوني سيرى الجندب كولد خشن وشقيّ.

وصل البيت مستغرقا في أفكاره.

«كريم»، جاءه صوت أمه حاداً وواضحاً ليسجل أول اختراق لحالته الذهنية، «أين كنت بحق السماء؟»

دهش للحدّة في نبرة صوتها: كنت في الخارج.

- أين؟ ومع من؟ ماذا كنت تفعل؟

قال بصدق، وهو يحمل الكرة عالياً علّها تثبت صحة كلامه: كنت ألعب الكرة.

رفعت أكمام بلوزتها البنية الثقيلة وشبكت ذراعيها ورمقته بنظرة مليئة بالشكوك والريبة.

- أين؟ لم تكن في المكان المعتاد! لقد نزلت وبحثت عنك، كيف يمكنك أن تفعل ذلك بي؟ أتعلم كم كنت قلقة عليك؟

بدأ يشعر بالذنب تجاه والدته: التقيت شخصاً من مدرستي، ولعبنا بالقرب من بيته.

- آه.

كانت على وشك أن تقول شيئا ما عندما جاءها صوت وقوع شيء بالمطبخ تبعه عويل سيرين. هرعت أمه إلى المكان لتفقد الوضع. وضع «كريم» الكرة وراء الكرسي حيث اعتاد وضعها وذهب إلى غرفته. كان «جمال» يجلس إلى حافة السرير يداعب أوتار غيتاره العتيق الذي حصل عليه من صديق له ضمن عملية تبادل. جاء صوته خارجا عن اللحن:

«حبيبتي، لا تفطري قلبي

حبيبتي، لا تمزّقي عقلي»

رفع رأسه وقرأ علامات التعجب الممزوجة بالاشمئزاز البادية على وجه «كريم». وضع الغيتار جانباً. قال «كريم» وهو يلقي بجسمه فوق سريره: ماذا حلّ بماما؟ لا أدري لماذا صبّت غضبها عليّ؟

- لقد ظننتك ١ ميتا، ٢ تم أخذك إلى أحد السجون الاسرائيلية، ٣ فجرت نفسك في عملية، ٤ ملقى في غيبوبة في أحد المستشفيات ورأسك مهشم، ٥ ميتاً. كان «كريم» يعد النقاط على أصابعه فقال: ها، لقد قلت ميتاً مرتين.

- هذا ما قالته هي، لقد اعتقدت أنك ميت، أعني أنها كرّرت ذلك مرتين، لا، في الحقيقة كرّرت ذلك حوالي ١٥٠ مرة.

- لكنني لم أبتعد سوى ساعتين، أو ربما ثلاث.

قال «جمال» رافعا ذراعيه إلى الأعلى: أهلاً وسهلاً بك في المجموعة. خذ حذرك! ها أنت الآن تدخل في منطقة قلق الأمهات. انا أسكن في تلك المنطقة منذ سنوات، أم أنك لم تلاحظ؟ هذا هو ثمن بداية الانتقال إلى الرجولة. أمنا العزيزة ستراقبك منذ

اليوم، وستلاحقك دون توقف بأسئلتها كلما خرجت من البيت، وكلما عدت إليه. وقد ينضم بابا إليها في بعض الأحيان.

كان «كريم» سعيداً بملاحظة «جمال» ووصفه له بأنه ينتقل إلى مرحلة الرجولة المبكرة، لكنه كان في الوقت نفسه منزعجاً من فكرة أن هذا الانتقال سوف يسبب له المزيد من المضايقات الأبوية والتدخلات في حياته. قال محاولاً الظهور بمظهر المحاور الذكي: هذا وضع مأساوي.

- هو كذلك يا بني، لكن القضية يمكن تجاوزها ببعض الطرق والوسائل والتكتيكات. تحتاج المسألة الى القليل من العبقرية، ستتعلم هذه الأشياء قريباً.

أزعجته الفوقية في لهجة «جمال». تلفت «كريم» بحثاً عن شيء يعلق عليه الحوار. وقعت عيناه على العلبة الملفوفة بورق جميل، موضوعة على مخدة «جمال». قال وهو يقترب مادّاً يده ليلتقطها: شكراً على الهدية. أطبقت يد جمال على رسغه مثل السوط.

- إياك أن تلمسها، أيها الحيوان الصغير!

- آه، هكذا إذن، (أعصابك أعصابك)، ما الذي تخفيه هذه العلبة؟ هل هي صابونه معطرة برائحة فيوليت، أم وشاح بنفسجي، أم صورة لباقة زهر؟

دفعه «جمال» وأعاده إلى سريره من جديد: اهتمّ بشؤونك، ولا تتدخل في شؤون غيرك أيها الصغير!

- هذا أيضاً من شأني، أم أنك نسيت أنني سأعمل على تأمين صورتها لك؟

«آه»، قال «جمال» بتردّد، «حسناً، إذا كنت مصرّاً. هناك عقد في هذه العلبة، وأنا متأكد من أنها ستحبه لأنني سمعتها تتحدث وصديقاتها عن هذا العقد وهن يقفن أمام نافذة متجر فاخر في المدينة. سأعطيه لها غداً، فهي ذاهبة إلى السينما مع بقية شلتها. أبعد يديك الوسختين عن الصندوق لو سمحت.»

«وفر على نفسك عناء تقديم الهدية»، قال «كريم» ومشاعر التفوّق تبدو على محياه، «قد تذهب صديقاتها إلى السينما، أما هي، فيوليت، فلن تذهب، هذا ما أعلمه، وأعتقد أن معلوماتي أكيدة؟»

- ماذا؟ ولم لا؟

- لأنها مصابة بالزّكام، عيناها حمراوان، وأنفها متورّم، وهي تسعل باستمرار، وبصورة مقزّزة.

مع انتهاء جملته كان «جمال» يجلس فوقه، وبعد صراع وتشابك بالأيدي لبعض الوقت تمكن «كريم» من إبعاده عنه، والجلوس ثانية في سريره. قال «كريم»: كيف تمكّنت من تأمين ثمن العقد؟ نحن لم نتلقّ مصروفاً من بابا منذ أشهر، وبالتحديد منذ اندلاع الانتفاضة.

قال «جمال» دون أن ينظر في عينيه: قلت لك من قبل، تكتيك وألاعيب وخطط.

- أية خطط وأية تكتيكات؟ لا يمكن! هل سرقت العقد؟

بكبرياء وامتعاض قال «جمال»: لو سمحت! أنا لست لصّاً. لقد بعت شيئاً لأحد الأصدقاء، إذا كان لابد أن تعرف. لقد حصلت على مبلغ جيد مقابل ذلك الشيء.

- ما الذي بعته؟

- لعبة إلكترونية قديمة لعبناها مرات عديدة وباتت مملة جداً، لم نعد بحاجة إليها الآن.

شعر «كريم» بالبرودة تخترق عموده الفقري: أية لعبة تقصد؟

ابتعد «جمال» متراجعاً إلى الخلف. أزاح الكرسي ووضعه بينه وبين «كريم» ليشكّل حاجزا بينهما.

- لينمان، لعبة قديمة ومملة، وأنت تعلم ذلك. لقد أصبحت منتهية الصلاحية، إنها. «كريم»! توقف! انتبه لما تقوم به! هل جننت!

بالنسبة لـ «كريم»، كانت معجزة أن أمه لم تسمع صوت شجارهما ولم تهرع وتتدخل، لكنه في تلك اللحظة لم يكن سيمانع في تدخلها أبدا، بل على العكس، كان سيكون جاهزاً ليروي لها الحكاية كلها. كان سيبوح بسرّ فيوليت، ويسعد بمراقبة وجه «جمال» يصبح بنفسجيّ اللون من الخجل، ثم يراه يتلوى من الغيظ، مثل دودة معلّقة في عقاف شبكة. لكن أمهما لم تحضر، وانشغلت بتبادل الحديث مع أم رشا أمام الباب الخارجي لشقتهم. كانتا مستغرقتين جداً في حوارهما.

تراجع «جمال»، أمام حدة غضب «كريم» وثورته. «أنت لا تملك حقّ التصرف»،

صرخ عليه مرة تلو الأخرى. «لينمان هي لعبتي أيضاً، وليست ملكاً لك وحدك. أنا أكرهك!»

«نعم، حسناً، نعم، أنا آسف»، ظلّ «جمال» يردد، «اسمع، سوف أعوضك عن اللعبة، فقط ابتعد عني، ابتعد الآن.»

- تعوضني! كيف؟ أنا أريد لينمان الآن، أنا أريد استعادة لعبتي.

توصلا في النهاية إلى حلٍّ وسط: تعهد «جمال» بموجبه أن يجد شيئاً آخر ويقوم ببيعه حتى لو اضطر إلى بيع غيتاره ليستعيد لينمان من جديد. لكن ذلك سيتمّ بعد أن يوفر له «كريم» صورة فيوليت ويضعها بين يديه. بعد أن اختتمت الصفقة، قدر جمال أن من الحكمة أن يترك كريم وحده.

متألماً ولديه رضوض، ألقى «كريم» بنفسه فوق سريره. «الحياة ليست عادلة»، فكرّ «كريم»، «لا شيء عادل في هذه الدنيا».

شعر بالتثاقل يزحف إلى صدره ورأسه، وأصابته حالة من الاكتئاب. كاد في خضم أحداث الساعات الأخيرة ينسى ما حصل هناك في القرية، والإهانة التي تعرض لها أبوه، والإذلال، وبقاء المستوطنين دون عقاب على سرقاتهم. عادت تلك الصور إلى مخيلته بوضوح، وبدأت تضغط عليه بقوة. فقدان لينمان على ما يبدو جعل كل الأحداث السابقة تبدو أسوأ. كانت تلك اللعبة سلواه وملجأه خلال منع التجوال، وكانت تشعره بالتحسن كلما ساءت الأمور من حوله. هي المكان الذي يستطيع الانتقال إليه بعقله عندما يكون جسده مقيداً وعاجزاً عن الانتقال. لقد سرق «جمال» كلّ هذا منه، في حركة لا تخلو من الخداع والخيانة. «لا بدّ لي من امتلاك تلك الصورة الغبية»، قال لنفسه بأسى، «لا مفرّ من الحصول عليها، سأتصل بجوني الآن وسأصلح الأمور معه، ثم أذهب إلى بيته، سأقوم بذلك الآن، فوراً».

أمسك بالهاتف الخلوي فوق الطاولة، لأن هاتفه لم يكن يعمل، بطاقة التشغيل نفدت منذ أسابيع، وليس لديه نقود ليشتري واحدة جديدة. هاتف «جمال» ما زال يعمل. تنفس بعمق، ثم ضغط على الأزرار متصلاً برقم مألوف لديه. كان بمقدوره تخيل الشقة على الطرف الآخر من الخط حيث يدق التلفون. والدة جوني، روز، في المطبخ، الآن ستسمع صوت الهاتف، وتغسل يديها بسرعة وتجففهما ثم تسرع نحو الهاتف. أو قد يسمع جوني رنين الهاتف رغم صوت جهاز التسجيل العالي الذي

يملأ غرفته طوال الوقت. في الحقيقة، تمنّى «كريم» في تلك اللحظة أن تكون روز هي السباقة، وترد بنفسها على الهاتف. وهكذا كان.

«مرحباً»، قال «كريم». ظن «كريم» أن صوته كان غير طبيعي، «أنا «كريم»، هل بإمكاني التحدث مع جوني لو سمحت؟»

سمع صوت الهاتف ينزل من يد روز، ثم صوتا عاليا انطلق فجأة، بعد أن فتحت باب غرفة جوني. كان قادراً على رؤيتها ورؤية وجهها الممتلئ والمريح، وشعرها المتموج الذي يزين رأسها، والقميص المزركش والملون الذي ترتديه عادة في البيت. تناهت إلى مسامعه أصوات مختلفة غير مفهومة، ثم عادت أصوات خطواتها فوق البلاط الحجري وهي تقبل نحو الهاتف. استطاع تمييز نبرة الدهشة في صوتها: إنه. إنه مشغول الآن يا «كريم». سيتصل بك لاحقاً، هل يناسبك هذا؟

«شكراً لك»، قال «كريم» وهو يضع الهاتف جانباً. شعر بقلبه يغوص بين أضلاعه. لا بد أن جوني مستاء حقاً، ومتألم جداً. المسألة تحتاج إلى ما هو أكثر من مكالمة هاتفية لاستعادة جوني من جديد. تحرّكت مشاعر الثورة داخل صدر «كريم» فجأة. لماذا يفتعل جوني مشكلة من لا شيء؟ لقد كان يلعب الكرة مع الجندب، بحقّ السماء! جوني لا يملكه. في حياة كّل منا مساحة تتسع لصديق ثانٍ. فليذهب جوني إلى الجحيم. وليذهب الجميع إلى الجحيم. فكّر «كريم» بغضب: «سأذهب غداً وألعب مع الجندب، وسأذهب بعد غد، وكلما شعرت برغبة في الذهاب، ولن أكترث لما سيقوله الآخرون»

تركزت روح الانتقام على مدينة بيت لحم، فأغلقت المدينة بأسرها، وأرغم السكان على البقاء داخل بيوتهم، فيما انتشرت وحدات الجيش الإسرائيلي في الأرجاء. قتل ثمانية أشخاص جراء القصف الإسرائيلي المدفعي، بينما دمرت ثلاثة منازل على يد الجرّافات الإسرائيلية، بالكاد تمكن سكان هذه البيوت من مغادرتها والنجاة بحياتهم.

في رام الله، كان الوضع فيها عاديا ولكنه مشوب بالترقب والحذر.

«فتحت الجامعة أبوابها»، قالت لمياء في صباح اليوم التالي، بينما كانت العائلة تتجمع

حول مائدة الإفطار. «سأذهب إلى العمل، ولا أدري كم من الوقت سأمضي في الطريق، بوجود كلّ تلك الحواجز المنتشرة هنا وهناك. سأسأل أم رشا إذا كانت قادرة على رعاية سيرين»

ابتسم «كريم» بخبث لسماع النبأ. ها هي أمه تبتعد عن طريقه، وفرح ستعود إلى مدرستها الابتدائية، وأبوه ذاهب إلى متجره، أما هو، فسيكون طليقاً ليفعل ما يشاء.

«كريم»، قالت لمياء وهي تلتفت نحوه وتهمّ بالكلام. بدت وكأنها على وشك إصدار تعليمات له. حبس «كريم» أنفاسه متمنياً ألا تخطف منه أمّه حريته لهذا اليوم. لحسن حظه، قرع الباب، واتجهت أمه لفتحه. انسحب «كريم» بهدوء إلى غرفته. سينتظر هناك حتى تذهب الجارة وتغادر أمه إلى عملها. تمنى أن يكون وقتها ضيقاً وأن تضطر للإسراع وتنسى ما كانت ستطلبه منه.

الوضع أصبح مواتيا. انتظر «كريم» حتى اختفى صوت وقع حذاء أمه عند أسفل الدرج. جرى نحو شرفة المطبخ وراقبها وهي تهبط الطريق المؤدي إلى سفح التلة في اتجاه موقف الباص. جاء الباص على الفور، وكأنه كان في انتظار وصولها، وبدأ بالابتعاد عن المكان. التقط «كريم» كرته من غرفة الجلوس، وغادر الشقة. قفز نازلاً الدرج. لم يهدئ من سرعته حتى وصل قمة التلة، فوق المدرسة بقليل، وهناك شعور مستتر بالحرية. التفت إلى الأسفل، في اتجاه المدرسة ومخيم اللاجئين، ثم توقف في مكانه. كانت الدبابات الإسرائيلية قد سبقته إلى هناك. إحداها كانت مستقرة عند بوابة المدرسة تماماً، احتلت بهيكلها البني الضخم عرض الطريق، وكان الجنود بملابسهم الواقية من الرصاص وخوذاتهم وسلاحهم الشخصي يسدّون الطريق ويمنعون المارة من المضي في مسيرهم.

كور «كريم» قبضة يده، بغضب وثورة. «كلما حاولت القيام بعمل ما في هذا البلد، وكلما قررت الذهاب إلى مكان ما، ستجد العدو دائماً أمامك، واقفاً لك بالمرصاد. حتى لعبة كرة القدم ممنوعة». نظر أحد الجنود ورأى «كريم». بدا وكأنه يحدّق بنظره فيه. حاول «كريم» أن يبدو وكأنه غير مبالٍ. استدار ومشى مبتعداً. لم يكن أحد قادراً على التنبؤ بما يمكن أن يفعله أيّ منهم إذا شعر بالتهديد أو الإزعاج. كونه فقط في الثانية عشرة من عمرة لن يفيده أو يحميه، فبعض الأطفال الأصغر منه سناً أطلقت عليهم النيران في أوقات كثيرة، وأصابع هؤلاء الجنود على ما يبدو تتحرك باستمرار

فوق الزناد. سار مبتعداً، وعائداً من حيث أتى. يمكن أن يحاول الوصول إلى ملعب الجندب، (كما اختار أن يسمي ذلك المكان)، بالذهاب من الطريق الالتفافيّ الطويل الذي يتسلق التلة المقابلة، ثم يلتف حولها، ويعود ليهبط من الجهة المقابلة لموقع الجنود. لكن ذلك الطريق سيقوده إلى السير عند حافة المستوطنة الإسرائيلية التي تلف مدينة رام الله، ولا يمكن التنبؤ بما يمكن أن يفعله المستوطنون هناك. إنهم يقومون أحيانا بإطلاق النار بشكل عشوائي على المارة. لو أن الجندب معه الآن، لكان من الممكن أن يخاطر ليثبت له بأنه غير خائف، لكنه في حالته هذه لم يرغب في أن يكون هدفاً لهم وهو وحده.

سار ببطء نحو البيت. ربما بات عليه أن يجلس وينجز بعض الفروض المدرسية، فهذه الفروض لا بد من إنجازها إن عاجلاً أم آجلاً. مرّ الوقت بسرعة غريبة، رغم أن بعض الوظائف بدت مملة. أنجز «كريم» فروض الجغرافيا واللغة الإنجليزية بسرعة، لإبعادها عن طريقه، تبين أن التاريخ وعلى غير المتوقع كان ممتعاً، كان عليه قراءة فصل عن تاريخ مصر القديم، الذي يصف مجموعة من النظريات التي تتحدث عن الأساليب التي استخدمت في بناء معابد مصر وأهراماتها الضخمة وكيف نقلوا الحجارة الضخمة إلى أماكن شديدة الارتفاع. وجد «كريم» نفسه يحاول تخيل العملية على أرض الواقع، فبدأ يبني هرمه الخاص باستخدام كتبه وأقلامه وما توفر أمامه من أدوات مكتبية. انتهت محاولاته بسقوط مروع لهرمه الصغير وسلسلة طويلة من التثاؤب. كان الوضع مملا، ومن وجوده وحده في البيت، وشعر فجأة بأنه سيكون أكثر سعادة لو تفتح المدرسة أبوابها من جديد.

@ktabpdf تيليجرام

عندما انتصف النهار، كان الملل قد عصف به بقوة، فقرّر الخروج من المنزل. أخرج قطعة خبز من الصندوق فوق طاولة المطبخ، وسكب فوقها قليلاً من الحمص وبضع حبات زيتون. شرب كوباً من الماء، ثم انطلق خارجاً.

لن يحاول العودة إلى ملعب الجندب، بل سيذهب إلى مركز المدينة. سيتعرّف على أسعار الكاميرات الصغيرة الفورية التي تستخدم لمرة واحدة. وإذا وجد أسعارها محتملة، فسيبحث عن وسيلة لتوفير المال اللازم لشرائها. ربما يتمكن بعد ذلك من مصالحة جوني والذهاب إلى منزله، وحينها قد ينجح في التقاط بضعة صور لفيوليت. لم يستخدم الكاميرا من قبل أبداً، لكنها تبدو له عملية غاية في السهولة. كل ما يلزم هو تحديد هدفك بعينك، ثم الضغط على الزر. على أية حال، وعده

لـ«جمال» تضمن إحضار صورة، ولم يتضمن شرطاً حول جودة الصورة. شعر بأنه في مهمة، فها هو ذاهب وأمامه هدف محدّد، مشى بخطوات سريعة، وكان يدور حول كل عمود كهرباء ملقى على الأرض. ويضرب بقدمه كل ما يصادفه من المخلفات التي تناثرت فوق الأرصفة.

علبة مشروبات غازية فارغة لفتت نظره، فأنطلق يدحرجها أمامه، وهو يصعد الطريق الموصل إلى الهضبة. انصب تركيزه على العلبة، وغاب معها. استفاق فجأة على أصوات قادمة من مكبر صوت. كان الصوت يأمر الناس بالابتعاد. جاء الصوت من جهة اليسار، عند منعطف يفصل الطريق الفرعيّ عن الطريق العام الرئيس الذي لا يستخدمه إلا المستوطنون والجنود. المركبات العسكرية تتواجد هناك باستمرار، لمنع الفلسطينيين من الوصول إلى الطريق العام. توقفت ثلاث مركبات خلف جدار إسمنتي عريض، بينما هرع المواطنون في اتجاه أعلى التلة، بعيداً عن العربات الثلاث. بحبّ استطلاع كبير، تقدم «كريم» بضع خطوات عكس حركة الآخرين، ليتمكن من رؤية ما يحدث هناك، فبادره رجل قائلاً: عد أدراجك. توجد قنبلة هناك، على الطريق الخاص بالمستوطنين.

- أين؟ أين القنبلة؟

- هناك، تحت الجسر.

- ومن وضعها هناك؟

قال الرجل، بعد أن بدأ يبتعد عن «كريم»: كيف لي أن أعرف؟ لقد وجدوها الآن.

بدأ «كريم» بالابتعاد، وشعر بنبضه يتسارع مع حركة الناس المتسارعة حوله، حين لمح صبيا نحيلا يرتدي قميصاً أبيض وبنطالاً مغبراً يتسلق سقالة على جانب بناية شبه متهدمة. المكان لا يبعد كثيراً عن الجسر. ضاقت حدقتا عينيه وهو يحاول التركيز والتعرف على الفتى الذي بدا له لوهلة مثل الجندب، لا إنه الجندب نفسه، ما الذي يفعله هذا المجنون هناك؟ ولم لا يجري بعيداً عن المكان، كما يفعل الآخرون؟ كان «كريم» على وشكك الانطلاق مع الجموع، لكنه عاد وتوقّف، ونظر خلفه. شعر وكأن الجندب يتحدّاه للصعود على السقالة مثله، وكأنه يقول: «أنا شجاع بما يكفي لأفعل هذا، أما أنت فجبان!»

متجاهلاً الحكة التي أصابت جلده، والتوتر الذي اعتصر معدته، بدأ «كريم» بالنزول

عكس حركة الآخرين. صرخت امرأة مسنة: هل أنت مجنون؟ سيطلقون النار عليك! وصاح آخرون: «لا تذهب هناك».

كان الجندب قد واصل تسلقه حتى وصل قمة السقالة، ثم قفز خلف سور قصير يحيط بسطح المبنى من كل جانب واختفى. سار كريم بمحاذاة الطريق الموصلة إلى الجسر، محاولاً إخفاء نفسه قدر الإمكان. سيحاول الوصول إلى الفتحة التالية في الجدار، ويشقّ طريقه نحو السقالة بعيدا عن أعين الجنود. وعندها سيدخل منها ويتجه نحو المبنى المدمر. وهذا يعني التسلّق فوق حطام مجموعة من الأبنية التي قصفتها الدبابات الإسرائيلية، عندما شقّت الطريق الخاص بالمستوطنين. سيصل إلى هناك، فالمسألة لا تبدو مستحيلة.

أرتعد جسمه خوفاً وهو يفكر فيما ينوي القيام به. توقف مرتين للحظات، وكان على وشك العودة، لكنّه عاد وقرر في النهاية المضي إلى الأمام. «سأقترب قليلا»، قال لنفسه، «لن أقرّر في هذه اللحظة ما إذا كنت سأصعد هناك».

بدأت المجموعات البشرية تخف. لا يرى الآن سوى امرأة كبيرة في السن تجاهد أرجلا واهنة، وشاب ينحني ظهره تحت ثقل الحاسوب الذي يحمله فوق كتفه. أوشك على الوصول إلى فتحة الجدار، وبينما كان يهم بالنفاذ منها، سمع صوت خطوات تسير خلفه بسرعة عالية، التفت ليجد نفسه وجهاً لوجه أمام جوني. مفاجأة مذهلة! قال بانفعال شديد وبصرخة: ماذا تفعل هنا؟ هل فقدت عقلك؟

قبض «كريم» على ذراع جوني بقوة، وشدّه في اتجاه الفتحة في الجدار. هما بعيدان عن الأنظار الآن. لا يستطيع الناس في الأعلى رؤيتهما، ولا الجنود في الأسفل. قال «كريم»: ماذا تفعل أنت؟

- كنت في طريقي إلى البيت، ومررت من هذا الطريق للقاء ابن عمي، ثم سمعت الضجيج في الأرجاء، ثم رأيتك.

وقفا لوهلة ينظران في عيون بعضهما بعضا.

قال جوني: «هل تحاول أن تلقي بنفسك إلى الموت؟ إذا كان الأمر كذلك، فأنا لن أسمح لك».

حدق كريم في وجه صديقه. كانت عينا جوني تتحرّكان بسرعة، بينما تدحرجت حبات العرق فوق وجهه المستدير. قبض على حقيبته المدرسية بقوة شديدة، وبدت

أصابع يديه بيضاء تماماً، وكأن الدم توقف عن التدفق إليها. تراءى له جوني مضحكا بعض الشيء، وفي الوقت نفسه بطوليا

«لا أيها الغبي»، قال «كريم» بتأثر، وبمشاعر غامرة، «بالطبع أنا لا أريد الموت، لكن شخصاً أعرفه تسلّق هذا المكان واختبأ فوق السطح. لقد رأيته وهو يتسلق حافة المبنى، اسمه الجندب، وهو يذهب إلى المدرسة التي أذهب إليها.»

- وما الجديد في ذلك، مئات الفتيان يذهبون إلى مدرستك!

- هو مختلف قليلا، هو من مخيم اللاجئين، وهو الشخص الذي كنت ألعب الكرة معه ذلك اليوم.

- عندما رفضت أن تخبرني بما كنت تفعله!

- نعم، لا أدري لماذا فعلت ذلك، لقد شعرت بأنني غبيّ جداً بعد أن تركتك. اعتقدت أنك لن تحبه، أو شيئا من هذا القبيل. كنت محرجاً ومرتبكاً. خفت أن تعتبره شخصاً غريباً. في الحقيقة هو غريب بعض الشيء، لكنه ممتع أيضاً. كما قلت لك، هو مختلف بعض الشيء.

انتشرت ابتسامة عريضة على وجه جوني: أنت الغريب! لقد حسبت لوهلة أنك لا تريد صداقتنا، وأنك تحاول الابتعاد عني.

- أعلم، نعم لقد كنت غبيا. أنا آسف.

قطعت الصفارات التي انطلقت في المكان الحوار بينهما. استرق «كريم» النظر عبر الفتحة في الجدار. قال «كريم»: المزيد من الجنود يحضرون إلى المكان، وها هي سيارة إسعاف خاصة بهم تقترب. لا بد أنها قنبلة كبيرة.

كان منفعلاً، وتملّكه شعور ممزوج بالرغبة في الانتقام: أتمنى أن تنفجر القنبلة، وتدمّر طريقهم هذا، وتسحقهم جميعاً، هم وعرباتهم.

- صديقك الجندب هذا، هل هو الذي زرع القنبلة؟

- لا يمكن أن يكون هو الفاعل. كيف سيوفر تلك الأشياء، أعني المتفجرات والأمور اللازمة؟

- إذن، ما الذي يفعله هناك فوق السطح؟

– هذا ما كنت أحاول معرفته. ظننت أن باستطاعتي التسلق فوق الركام، واللحاق به إلى الأعلى.

تسارعت حركة عيني جوني أكثر وأكثر. «لا بد أنه خائف»، قال «كريم» لنفسه، «لكنه لن يعترف بذلك». مخاوف جوني جعلته يزداد شجاعة. قال كريم: «اسمع، عليك البقاء هنا ومراقبة الوضع، بينما أمضي أنا إلى الأمام، وإذا ما شعرت بأية حركة غريبة. »

«لن أتركك تذهب وحدك»، قال جوني بصوت حازم، «سأذهب معك».

ساد الصمت بينهما لوهلة طويلة. شعر «كريم» ببدء دخولهما مرحلة جديدة من مراحل حياتهما. كانا حتى لحظات قليلة مجرد طفلين عاديين، يراقبان الصراع الدائر من زاوية جانبية، ويحرصان على تجنب المشاركة في أية اشتباكات، عملاً بنصائح أبويهما. «هي بداية الانتقال إلى الرجولة المبكرة»، هذا ما قاله له «جمال»! قال «كريم»: تعال إذن، هيا بنا، لكن من الأفضل أن تترك حقيبتك هنا حتى لا تعيق حركتنا.

همّ جوني بإنزال الحقيبة عن ظهره، ثم عاد وتراجع: لا، الحقيبة تحمل اسمي، وبداخلها أشيائي. وإذا عثروا عليها سيظنون أنني المسئول عن القنبلة، وسيبحثون عني ثم يفجرون بيتنا.

بدت طبقات الرّكام أكثر ضخامة وارتفاعاً عندما وصلا إليها. صوت قرقعة الحجارة تحت أقدامهما كان يخترق الصمت المهيمن على المكان. وصلا في النهاية إلى طرف السّقالة التي امتدت على ارتفاع أربعة طوابق، وصولاً إلى سطح المبنى المهجور. شعر «كريم» ببعض الامتعاض: لو لم يظهر جوني في المكان فربما كان قد تراجع وعاد إلى البيت. لم يعد بإمكانه التراجع الآن، حتى لو أراد ذلك. مثل هذه المحاولة ستقلل من احترام جوني له.

«سأصعد أنا أولا،» همس جوني ووجهه شاحب، ولكنه مصمم.

« كلا، الجندب لا يعرفك، وقد يجفل إذا شاهد وجهك القبيح فجأة».

كان تسلق السقّالة أسهل مما تخيله «كريم»، فقد استطاع أن يقفز فوقها بسرعة، لكن وبعد أن تجاوز الطابق الثاني، تبين له أن المسافة نحو الأرض طويلة جداً.

«كيف يمكن لنا النزول ثانية»؟ فكر «كريم». كان مجرّد التفكير في طريق العودة يجعله يشعر بالضعف، وبدأ العرق بتصبب من راحتي يديه. لكن الأسوأ من فكرة العودة، كان التفكير بأنه وجوني أصبحا مكشوفين، ويمكن لأي أحد أن يراهما من على بعد أميال. ولو تقدم أي جندي مسافة قصيرة على التلة، فسيراهما، وسيظن أنهما المسئولان عن القنبلة، وسيقوم بتفجيرهما على الفور.

أمتلكه خوف حقيقي، ليس من احتمال السقوط إلى الأرض هذه المرة. تسارعت خطاه، وخلال دقائق وصل إلى نهاية السقّالة، وقفز من فوق الجدار، ليجد نفسه فوق أرض السطح. وصل في الوقت المناسب تماماً، فها هو صوت إحدى العربات تتحرك في اتجاه أعلى التلة. ستصبح السقّالة مكشوفة في أية لحظة، وسيقف جوني مكشوفا في مواجهتهم، وسيتسمر في مكانه كفراشة ثبتت بدبوس على بطاقة.

انحنى قليلاً فوق الجدار. قال بهمس: جوني، أسرع! إنهم قادمون!

نظر جوني إلى أعلى بوجه ممتقع خوفا: «لا أستطيع التقدم! علق قميصي بالحديد!

رأى «كريم» قميص جوني عالقا في حافة السقّالة. حاول جوني جاهداً تخليص نفسه دون جدوى. الحقيبة على ظهره زادت من صعوبة المهمة. العربة والحمد لله تتحرك ببطء، لكنها مع ذلك تتقدم، وقد تصل، وتظهر في المكان في أية لحظة. قال «كريم» بهمس: «لا تفزع، أنا قادم». شدّ على أسنانه محاولاً استجماع شجاعته للتحرّك، لكن، وقبل أن يرفع قدمه فوق الجدار، كانت قدما شخص آخر قد سبقتاه وانطلقتا فوق الحافة.

في لحظة، كان الجندب قد حرّر قميص جوني وسحبه هو وحقيبته عبر الأمتار القليلة المتبقية. تدحرجا سوياً فوق الجدار، ثم سقطا على أرض السطح، بعيداً عن الأنظار. في تلك اللحظة، وصلت العربة قريباً من المبنى المهجور. تجمّد الثلاثة في مكانهم بلا أدنى حركة. لم يكن «كريم» قادراً على قول شيء أو عمل شيء حتى لو أراد ذلك. قلبه ينبض بسرعة غريبة، وشعر للحظة بأن قلبه سينفجر خارج صدره.

كان الجندب أول من استعاد توازنه، وعدّل من جلسته على الأرض، ثم رمى الصبيين الآخرين بنظرات غاضبة.

- ماذا تفعل هنا بحق السماء يا «كريم»؟ ومن هذا؟

- هذا جوني، إنه رفيقي. وماذا عنك؟ ماذا تفعل هنا؟

« إنها قنبلتي»، قال الجندب، وهو يبدي استغرابا من مجرّد سؤاله عن سبب وجوده هناك.

.هل رأوكم؟ إذا كانوا قد رأوكم، فنحن ميتون لا محالة!

أخذ كريم يحملق فيه فاغرا فمه: ماذا تعني انها قنبلتك؟ كيف صنعت القنبلة؟ ومن أين لك المواد اللازمة لعملها؟

قبض الجندب على ذراعه وهزّها: هل رأوك؟ هل رآكم أحد؟

.لا أعتقد ذلك.

نظر الثلاثة بريبة وخوف فوق السقّالة والمبنى الطويل الذي يقف هناك عند منصف التلة، ليشكل حاجزاً أمامهم، ويحول دون رؤيتهم من قبل الناس في المنطقة المرتفعة من المدينة. إذا ما ظلوا على أرض السطح خلف الجدار، فان أحداً على الأرض لن يراهم. أطلق جوني و«كريم» زفرات الارتياح، بينما ظهرت ابتسامة مترددة على وجه الجندب.

قال الجندب: بما أنكم أصبحتم هنا، دعونا نتابع سويا بعض المشاهد الممتعة.

زحف نحو الجهة المقابلة من السطح، حيث ظهرت ثقوب عديدة في جداره، نتيجة قصف سابق تعرّض له المكان. اقترب من أحد الثقوب، وبحذر شديد صوّب نظره عبرها، تبعه «كريم» وجوني والتصقا بظهره. يستطيعون الآن رؤية الجسر بوضوح شديد، وتحت الجسر تظهر حزمة ملفوفة بكيس بلاستيكي. إنها بيضاء لامعة، وكان من الممكن أن تبدو مثل أي كيس قمامة عاديّ ملقى على الطريق، لولا الأسلاك التي ظهرت منها. كانت واضحة لهم حتى من هذه المسافة البعيدة. قال جوني: هل هذه هي، هذه هي القنبلة؟ وسأل كريم: أنت صنعتها؟ وهل قمت بوضعها هناك؟ هزّ الجندب رأسه بالإيجاب، وغمرته مشاعر الرضا والسعادة.

لم يكن ممكناً لهم رؤية العربات الإسرائيلية من موقعهم، فقد احتمت جميعها بالعوازل الإسمنتية عند حافة الجسر كان هناك فقط ثلاثة أشخاص يرتدون أقنعة شفافة فوق وجوههم، ودروعا واقية تغطي أجسادهم. همس الجندب: فرقة تفكيك المتفجرات، سيتطلب الأمر منهم ساعات طويلة من العمل.

من الموقع الجيد الخاص بهم، أمكنهم رؤية قسم كبير من الطريق الخاص بالمستوطنين.

وازدحمت عربات المستوطنين خلف الحاجز الذي شيده الجنود بسرعة. كان سائقو السيارات المنزعجون يقتربون ويطلّون من نوافذ سياراتهم، ويتبادلون الأحاديث مع الجنود، ومع بعضهم بعضا قال الجندب: انتظروا ولو لمرة، لنرى كيف ستحبون هذا!

قال «كريم»: لكن ماذا عن القنبلة؟ كيف أمكنك؟ أقصد المتفجرات وكلّ شيء آخر. ألم تخش من احتمال انفجار القنبلة بين يديك؟

- أخاف من بضعة حجارة وبضع أوراق ومجموعة من الأسلاك القديمة والشرائط اللاصقة؟ ماذا كنت تعتقد؟ هل تظنني غبيا؟

- تقصد أنها ليست شيئاً حقيقياً. هي مجرد خدعة؟

اختلطت مشاعر «كريم» فجأة، ولم يستطع تحديد إن كان مرتاحاً للنبأ أم أنه يحسّ بخيبة أمل، وإلى جانبه كان جوني يحاول منع انفجار ضحكته من الانطلاق من فمه. تمكّن أخيراً من قولها: «جندب، أنت. أنت رهيب»!

استدار الجندب نحوه. لم يستطع «كريم» قراءة التعبيرات بدقّة على وجهه. هل تعكس بعض الرضا أم اللامبالاة، أم حتى بعض العدائية؟ قال الجندب بأدب: هل لك أن تذكّرني باسمك؟

- جوني، جوني بطرس.

- هل أنت من أقارب زهير حسين؟

- من؟

- زهير حسين!

- كيف يمكن أن يكون قريبي، هذا اسم لعائلة مسلمة، وأنا مسيحي!

- إنه شخص من مدرستنا. هو خبيث، وأنت تشبهه، هذا كل ما في الأمر.

- ها، إذن يوجد في الكون شخص آخر في مثل وسامتي، هذا جيد!

فيما كان كريم يراقب المشهد عند الجسر بعناية، استمع إلى بعض الحوار الاستفزازي الدائر بين صديقيه. بدا المشهد له سيرياليا وغير واقعي: هم على سطح هذا المبنى، وخطر كبير يحدّق بهم، وصديقاه يدوران حول بعضهما بعضا مثل كلبين يشمان بعضهما.

أدهشه امتعاض الجندب المبدئي من جوني، وأعجب كثيراً بهدوء جوني وحسن تصرفه، ويبدو أن طريقة جوني وأسلوبه أثرا في الجندب الذي عاد ليتصرف بهدوء واسترخاء. عندما عاد «كريم» والتفت نحوهما من جديد، لم يصدق ما رآه، الجندب كان يضحك. قال الجندب وهو ينظر إلى «كريم» مبتسماً: أنتما الاثنان مخبولان، كيف فكرتما بالمجيء إلى هنا؟ أتعلمان ما الذي سيحصل لو حدث ورأونا هنا؟ سيطلقون النار على الفور.

قال «كريم»: إذن يفضل أن نظلّ بعيدين عن الأنظار. تحدّث بهدوء وصوت متوازن، رغم التوتر الذي كان يعتصر معدته. شدّ قميص جوني ليعيده إلى المخبأ. قميص جوني ناصع البياض بفضل حرص أمه روز وعنايتها، لكنه سيكون بمثابة علم واضح لأيّ شخص في الأسفل.

اقترب أحد الجنود زاحفاً نحو الكيس البلاستيكي، وأخذ يتمعن فيه. كان جنديان يديران ظهريهما منشغلين بشيء آخر، لم يستطع كريم رؤية ما يفعلان. قال جوني بلهجة العارف والخبير «سيقومون بالتفجير عن بعد، سينسفونه».

بدوا وكأنهم أنهوا الاستعدادات اللازمة، وابتعدوا مسافة مناسبة عن الجسر قال أحدهم شيئاً بالعبرية، بصوت حازم، ثم تبعه الآخران بسرعة، واختفوا جميعاً. الانفجار، الذي لم يكن أكثر من خبطة صغيرة، أخذ الصبية على حين غرّة، فقفز الثلاثة من أماكنهم، وانطلق الغبار والتراب من المنطقة تحت الجسر. لبضع دقائق لم يتحرّك أحد، ثم وبعد أن حملت الريح الغبار والأتربة بعيداً، خرج الجنود الثلاثة من مخبئهم. اختفت الحزمة البيضاء، لكن قطعاً من الكيس البلاستيكي الأبيض والورق كانت تتطاير في السماء وتهبط ببطء على الأرض. أحد الرجال ركل بطرف قدميه ما تبقى على الأرض من مخلفات بسخط. سحبه الجندي الآخر بعيداً ثم انحنى إلى الأرض والتقط شيئاً. تركّزت عيون الثلاثة على ذلك الشيء، ثم صرخ أحدهم، وأخذ يشتم. قذف بذلك الشيء في اتجاه جانب الهضبة بعيداً عن طريق المستوطنين.
قال «كريم»: ما هذا؟ هل هو شيء وضعته داخل القنبلة؟

كان الجندب يضحك بسعادة غامرة: كان حجراً كتبت على أحد جوانبه، «فلسطين حرة»، وعلى الجانب الآخر، «الموت لإسرائيل»، وعلى الحافة كتبت «أغبياء».
قال جوني ووجهه يوحي بمدى إعجابه وتقديره للموقف: آه، هذا رائع، مذهل.
قال «كريم» باعتراض: لكنهم لا يستطيعون قراءة العربية.

- كتبتها بالانجليزية!

أوشك أن يقول شيئا، عندما سمعوا صوتا يدوي عالياً فوق رؤوسهم. الصوت يعلو أكثر وأكثر ويزداد اقتراباً. قال «كريم»: «إنها مروحية! إنهم يمشطون المنطقة الآن. سيروننا لا محالة، وسيتم القبض علينا».

لم يضع الجندب أيّ وقت. قام بفحص السطح جيداً ثم أصدر تعليماته: تحت خزان الماء هناك، بسرعة، علينا الاختباء.

«هذا لن يجدي نفعاً»، ظنّ «كريم»، «لديهم أجهزة كشف حرارية قادرة على التعرف علينا. علينا النزول من فوق المبنى».

- لا وقت لدينا! بسرعة، إنها قادمة.

كان الجندب قد زحف والتصق بالسطح الإسمنتي تحت الخزان. قال بصوت عالٍ: يوجد متسع للجميع! تعالا

حشر الاثنان جسميهما إلى جانبه. لم تكن المساحة كبيرة تحت قاعدة خزانات الماء التي خردقها رصاص المستوطنين. ، لكن الفتيان التصقوا ببعضهم بعضا، وعملوا جاهدين على عدم بروز يد أو قدم أو طرف قميص أي منهم.

أصبحت الطائرة فوقهم مباشرة. ها هي تحلق وتملأ السماء صخباً وضجيجاً يصمّ الآذان. بدت قريبة جداً، ولو مدّ أحدهم يده في اتجاهها لاستطاع أن يلمسها. فكّر «كريم»: «لقد رأونا، ستحط الطائرة هنا، لا بد أنهم يحملون رشاشات، سنموت لا محالة». أغلق عينيه بقوة، وقبضت يداه على أقرب شيء إليه. قبض عليه بشدة. هذه هي النهاية! هذه هي! هذه هي! تدافعت الكلمات في رأسه بالتوازي مع صوت أذرع المروحة على ظهر الطائرة. مضت الثواني طويلة وبطيئة، وشعر «كريم» برغبة قوية في وضع حدّ للموقف. شعر برغبة في الخروج من مكانه، والقفز أمامهم ثم الصراخ عاليا: هيا. ها نحن هنا، تفضلوا وأطلقوا النار!

انتهى الموقف فجأة. الآلة القبيحة طارت مبتعدة في السماء، ثم اختفت فوق حافة التلة. تنفس الصبية الصعداء، وانطلقوا خارجين بقوة وطاقة وحيوية تشبه اللولب المضغوط بعد تركه. شعر «كريم» بالغثيان، أما الجندب فكانت بشرته خضراء. جوني كان الأكثر هدوءاً وحيوية. انحنى قليلاً ليتفحص كاحل قدمه، ثمّ صرخ موجهاً كلامه إلى «كريم»: أنت أيّها الغبي، هل كنت تحاول خلع قدمي عن ساقي أم ماذا؟

كنت تضغط على كاحلي بطريقة مجنونة، وأظن أنك أوقفت جريان الدم في قدمي. قد أموت بالغرغرينا بسببك. نظر «كريم» حائراً ومنهكاً: أنا آسف، كنت بحاجة إلى التشبث بشيء.

قال الجندب، وهو يكشف عن كوعه: تماما، كما فعل جوني بذراعي وكاد يقطعها. هيا بنا، دعونا نغادر المكان الآن.

زحفوا نحو الثغرة في جدار السطح، وتفحصوا الأجواء. الحاجز اختفى، وحركة السير على طريق المستوطنين عادت إلى طبيعتها. سيارة الإسعاف اختفت أيضا، لكن السيارات العسكرية كانت لا تزال في المنطقة. وقف عدد من الجنود على مسافة ليست بعيدةً عنها. أحدهم كان يتحدّث في هاتفه الخلوي. تجمع الجنود الآن، عند الجهة المقابلة للمبنى. السقّالة أصبحت بعيدة عن أنظارهم. قال «كريم»: لا بد من التحرك بسرعة، سيمشطون المنطقة كلها. كان النزول على السقّالة مريعاً أكثر من الصعود عليها. تملكتهم موجة من نشوة النصر، وخلال دقائق وصلوا أكوام المخلفات والركام، وانطلقوا في طريقهم نحو أعلى التلة، ووقفوا في أمان نسبيّ فوق الشارع. وقف ثلاثة صبية لايختلفون عن أية صبية آخرين، يرقصون فرحاً وهم ينظرون إلى مكان انتصارهم.

-١٢-

بدا أن الذهاب إلى ملعب الجندب أكثر عمل طبيعي يمكن أن يقوموا به، فبعد كل ما مروا به من أحداث، لم يعد أي من الثلاثة بحاجة إلى الحديث عما حدث، غير أن شيئا غير متوقع حدث على ذلك السطح. لقد أصبحوا ثلاثيا. قال «كريم» حال وصولهم: «خسارة، ليتني أحضرت الكرة معي! كنا سنلعب لعبة جيدة».

كان يراقب جوني محاولاً أن يقرأ ردّ فعله على المكان. قال جوني: ماذا تريد أن تفعل هنا؟ لم يستطيع «كريم» أن يميز ما إذا كان جوني متحمساً للمكان أم لا قال بلهجة المدافع: نلعب الكرة! ما الذي يمكن عمله غير ذلك؟

قال الجندب وهو يميل بكتفيه نحو الجدار: لماذا تسأل؟ هل لديك أفكار أخرى؟ والتقط عشبه جافة من بين حجرين على الأرض وبدأ تمريرها بين أسنانه. قال جوني وهو

يتجول في المكان: حسناً، نعم، المكان يحتمل بعض الإمكانيات. والتقط بعض القطع المعدنية وعبوات البلاستيك الفارغة، ونظر من خلف الجدار محاولاً تقدير المسافة وتقييم الوضع وأضاف: يمكن الاستفادة من هذا المكان، يمكننا عمل شيء فيه. قال «كريم» وقد بدأ يشعر بالانزعاج: نعم، يمكننا أن نلعب الكرة. تابع الجندب جوني بنظراته محاولاً قراءة أفكاره. أبعد القشة عن فمه وألقاها بعيداً.

- تفعل ماذا ونفعل ماذا؟

- لا أدري، أنا أفكر بالمسألة، مثلاً. أعني. هناك في تلك الكومة، أليست تلك سيارة مهشمة تحت ذلك الركام. يمكننا تنظيفها وتحويلها إلى قاعدة ومركز للمكان. وبراميل الزيت تلك يمكن ان تفعل بها شيئا.

قال «كريم» بنفاذ صبر: أعرف ما الذي تحاول فعله، تريد تحويل المكان إلى ملعب كاراتيه.

قال الجندب وهو يقترب من جوني مبتعداً عن الجدار، وقد بدا مهتماً: أنت تلعب الكاراتيه؟

بدلاً من الإجابة، تحرك جوني ووقف مستعداً. رفع إحدى يديه ووجّه ضربة. فقد توازنه وكاد يسقط على الأرض. قال «كريم»: هو يعتقد أنه يعرف حركات الكاراتيه. أقدّم لكم البطل حامل الميدالية الذهبية في ألعاب الكاراتيه، بطل العالم، بطل فلسطين، حسناً، بطل رام الله. بل ربما بطل هذه البقعة!

قال جوني وهو يعدل من وقفته: حسناً، حسناً، كفى خفة دم!

ابتعد الجندب عنهما وتفحص كومة من الركام التي ارتفعت عالياً.

- أنت على حق بالنسبة للسيارة، يمكننا إزالة كل هذا الركام والوصول إليها، سيكون لدينا مكان خاص بنا، مكان نلجأ إليه.

انحنى وسحب حزمة من الأنابيب البلاستيكية التي كانت تبرز من تحت الركام. خرج معها عدد من علب المشروبات الغازية وزجاجات بلاستيكية وبلاط مكسر وستائر ممزّقة. ظهر جانب السيارة، حيث مقعد السائق. بدا واضحاً أن أبواب السيارة لم تكن موجودة.

«لا تزال مقاعد السيارة هناك»، قال «كريم» مظهراً حماسة للمشروع. بدأ يرى ما قد

تجلبه السيارة لهم من متعه .

انشغل الجندب بالركام الذي غاص فيه بيديه الاثنتين . أخذ يزيح طبقات المخلفات محاولاً الكشف عن بقية أجزاء السيارة . تراجع فجأة مع صيحة ألم واضحة ، ودسّ إبهامه بين شفتيه . سأل جوني : ما بك؟

- لا شيء ، جرحت نفسي بقطعة زجاج .

فتح جوني حقيبته المدرسية وأخرج منديلا ورقياً نظيفاً من علبة المناديل ، أعطاه للجندب ، فلفه حول إصبعه ، وصوّب نظرة ذات مغزى نحو «كريم» . قال «كريم» : أعلم ذلك . يحمل علب المناديل . نقر بإصبعه على ظهر جوني بمحبة وابتسم الجندب . لم يعرهما جوني انتباهه ، بل شقّ طريقه عبر الفتحة التي صنعها الجندب في الرّكام ، محاولاً الوصول إلى جانب السيارة . قال : ستكون لدينا مساحة جيدة إذا أخرجنا المقاعد إلى الخارج . ثمّ بدأ صوته يضعف ، واندفع إلى الخلف مطلقاً صوتاً تحذيرياً .

«ماذا حدث؟ ماذا يوجد هناك؟» قال «كريم»

- لا أدري ، شيء حيّ يتحرك هناك ، قد يكون! . ربما أفعى أو شيء آخر .

«أفعى! في وسط رام الله؟ هذا غير معقول» أجاب الجندب ، لكنه لم يحاول الاقتراب لتحرّي الأمر بنفسه .

من دون سابق إنذار ، وفي حركة غير متوقّعة ، قفزت قطة كبيرة مرقطة وغاضبة بذنب مرفوع ، تجاوزتهم منطلقة نحو السيارة ، ثم اختفت هناك . قال كريم :

- لن تفوّت على نفسها الفرصة إذا كانت هناك أفعى في الداخل .

وقفوا يراقبون المشهد بصمت وترقب . خرجت من المكان أصوات غريبة وقرقعة ، ثم ودون أدنى شك ، صوت مواء قطة حديثة الولادة! قال جوني بصوت هادئ مفعم بالراحة :

- إنها تحتفظ بصغارها هناك . هذا بالتأكيد ما كان يتحرّك في الداخل .

زحف «كريم» بحذر قريباً من جانب السيارة ، ونظر إلى الداخل . كانت القطة مستلقية في المقعد الخلفي ، والهرة الصغيرة . لا الهرتان ، تستلقيان في أحضانها . رفعت رأسها واظهرت أسنانها وهي تحدق فيه ، لكنها لم تنوِ مهاجمته . قال بهدوء :

- هذا مكان جيد، مبارك عليك، نعم يمكنك البقاء هنا.

سعد بفكرة وجود القطط هناك، وجودها منح السيارة القديمة وضعاً جديداً وأهمية خاصة. إنه مكان جيد لهم، آمنٌ وسرّي، إنه مكان للاحتماء.

واصل جوني إزاحة قطع الطوب المهشّمة من بين الركام الذي لا يزال يغطي مقدّمة السيارة. قال «كريم» وهو يقبض على ذراع جوني لحثّه على التوقف: انتظر، توقف!

قال جوني: ماذا دهاك؟

- ألا ترى ما يجري هنا؟ لو أننا تركنا هذا الركام وبنينا فوقه طبقات أخرى فستختفي السيارة تماماً عن الأنظار. كل من يقترب من المكان سيتعامل مع الكومة على أنها مخلفات وقمامة، لكننا نستطيع أن نحوّلها إلى مكان خاص له مدخل سرّي يقود إلى الداخل.

@ktabpdf تيليجرام

قال الجندب بإعجاب: هذا رائع.

قال جوني موافقاً: سيكون مكانا للاختباء والابتعاد عن أنظارهم.

سار الجندب فوق تلة الركام صعوداً ونزولاً محاولاً دراسة الاحتمالات كافة. تسلق جوني التلة حتى قمتها، ثم وقف على سطح السيارة، وألقى نظرة شاملة على المنطقة. قال مخاطباً الجندب: «كريم» على حق، تعال إلى هنا وانظر بنفسك.

تبعه الاثنان وتسلقا ظهر السيارة بعد أن علقت ثيابهما بزنبرك سرير قديم ملقى هناك، محاذرين قطع الزجاج المكسور. وقفا فوق السيارة بحذر، خوفاً من أن يتقوس الحديد تحت أقدامهم. اعتاد «كريم» على مراقبة مشهد تلال رام الله شديدة الانحدار، لكن المشهد من هنا تقريبا جديد عليه: لمعت سفوح تلال فلسطين الصخرية الجافة كالذهب والعاج تحت أشعة الشمس. وانتصبت المباني الجديدة في كل مكان، والحفريات في الأرض، حيث ستقام مبان جديدة، كشفت عن تراب بنيّ خلّاب. بعض أشجار الزيتون لا تزال هناك في حقول منسيّة، تتمايل أغصانها تحت تموّجات الريح فتتلألأ أوراقها الخضراء لتبدو رمادية أحياناً. هنا وهناك، وفي بعض مداخل البيوت القديمة، تقع العيون على شجرة تين باسقة، سيتم على الأغلب خلعها قريباً في خضم حركة بناء المدينة الجديدة. الشمس التي ترسل خيوطها من جهة الغرب بدأت بالهبوط نحو التلال البعيدة والمنخفضة، وها هي تقترب من السهول الخصبة الواقعة في المنطقة

بين رام الله والبحر. قال جوني محاولاً جذب انتباه «كريم» إلى الموقع المحيط بهم مباشرة: ما رأيك إذن؟

نظر «كريم» ثانية إلى الموقع. لا بد أن كل هذا الركام وصل إلى هنا بواسطة عربات وشاحنات لنقل مخلفات البناء، ويبدو أنه وصل على دفعات، ما جعل بعض المناطق تبدو أكثر ارتفاعا من غيرها. بعض الأكوام يصل ارتفاعها إلى مستوى سطح السيارة، وأكوام أخرى ترتفع أعلى من ذلك بكثير. بعض المخلفات وضعت إلى جانب السيارة تماماً من الجهة الأخرى، فحالت دون وصول العابثين إلى أبوابها من الجهة الثانية، فظل البابان الآخران سليمين في مكانهما. الزجاج الأمامي للسيارة ظلّ هو الآخر سليماً بإعجوبة، ولم يتعرّض لأيّ كسر. قال الجندب: علينا تغطية سقف السيارة بأي شيء. سنغطيها بطريقة تجعل أيّ شخص، حتى لو وقف هنا مكاننا، غير قادر على التمييز بأنه يقف فوق سيارة.

- لكننا إذا غطينا الزجاج الأمامي سنمنع وصول الضوء الى داخلها، وستصبح مظلمة تماماً من الداخل.

لم يهتم الجندب بالبحث عن إجابة. قفز مبتعداً واتجه نحو أحد الأكوام القريبة. لحق به «كريم» وجوني بينما كان يحاول جاهداً سحب ستارة نافذة معدنية من تحت كوم من الحجارة وقطع الإسمنت. عملا معه بجهد وحماسة، متجاهلين الجروح في أيديهم، والإرهاق العام الذي بدأ يصيب أجسادهم. وقفوا بعد دقائق يحتفلون بنصرهم، وينظرون بإعجاب إلى اكتشافهم. حملوا ستارتهم ورفعوها فوق سطح السيارة. فرشوها فوق السطح بحذر وعناية.

قال «كريم»: انظروا، يمكننا أن نحركها إلى الأمام وإلى الخلف كما نشاء، فإذا ما كنا هنا وأردنا أن يدخل الضوء إلى السيّارة، سنسحب الستارة إلى الخلف بعيداً عن الزجاج الأمامي. وقبل أن نغادر، أو إذا أردنا الاختباء، بإمكاننا إعادتها إلى الأمام ثانية.

أخضعوا الستارة للاختبار العملي. تحركت فوق السطح بسلاسة ونعومة، وتقرر بالإجماع أنها جيدة وتفي بالغرض تماماً. بعد أن هدأت حركتهم فوق السطح، جاءتهم من الداخل أصوات احتجاج القطط التي أطلقت مواءها الغاضب، فملأت بصوتها الأرجاء. قال «كريم»: لقد أخفنا القطط. عليها منذ الآن التعود علينا، هكذا ستكون الأمور منذ اليوم.

مكتبة الرمحي أحمد

قال جوني: سنجد لها شيئاً تأكله. حليب وقطعة لحم وأشياء أخرى.

قال الجندب باستهجان: لحم! هل لديك فائض من اللحم لإطعام القطط؟

- أبي يملك متجراً. تتبقى لديهم عادة قطع لحم قديمة لا تباع ولا تصلح للاستهلاك البشري. القطط ليس لديها مانع، ولا تعترض على هذه القطع.

انطلق صوت قادم من طرف المخيم، صوت مكبرات المسجد، ها هو أذان المغرب ينطلق في الأرجاء. قال كريم: هل حان وقت آذان المغرب؟ لا يمكن! بهذه السرعة!

نظر إلى جوني كمن اكتشف شيئاً جديدا، ثم عاد ونظر إلى ملابسه. قام جوني بالحركة نفسها، وصعق الاثنان لمظهرهما، فالغبار والتراب غطّاهما من رأسيهما حتى أقدامهما. كمّ قميص جوني تمزّق، وبنطال «كريم» يحمل ثقبا عند الركبة. «ستقتلني أمي»! قالها الاثنان في آن واحد. ضحكا. شعر «كريم» بسعادة غامرة ممزوجة بعدم المبالاة. لا يهمّه ما سيكون عليه الحال عند عودته إلى البيت. لقد أمضى يوماً جيداً، بل يوما رائعا.

- يجب ان نذهب، نراك غداً.

كانا في منتصف الطريق الصاعد نحو التلة عندما تذكّر كريم شيئاً: جوني، أتعلم! لن تصدّق ما سأقوله لك. أخي الغبي معجب بأختك، وهو يريد صورة لها.

توقّف جوني في مكانه ونظر إلى «كريم» بعدم تصديق.

- ماذا؟

- أعلم، هذا شيء محزن، أليس كذلك؟

- أقصد فيوليت من بين كلّ البنات؟ اختار فيوليت وأنا الذي اعتقدت دائماً أن «جمال» شاب عصري وذكي!

- هل لديك صورة لها أم لا؟ هذا هو المهم.

- لن تصدق، لديّ أعداد هائلة منها، ففيوليت شديدة الغباء، وهي تدعنا نلتقط لها صورا طوال الوقت. اترك المسألة لي، لا توجد أية مشكلة.

انحسر همّ كبير عن ظهر «كريم». رفع يده عالياً والتقت بكفّ جوني علامة على اتفاقهما. وصلا المفترق الذي يقود كل منهما إلى اتجاه مختلف. «إلى الغد»، قال

كريم. «إلى اللقاء»، قال جوني وهو ينقل حقيبته من كتف إلى آخر، ويطلق العنان لقدميه تقودانه إلى البيت.

١٣

كانت العاصفة التي انطلقت فوق رأس «كريم» حالما وصل مما لم يحدث من قبل. كان يأمل أن يتمكن من التسلل بهدوء عبر غرفة الجلوس إلى غرفته، لكن هذا لم يحصل. «كريم»، قالت أمه مزمجرة، «أين كنت بالضبط؟ أتعلم كم هي الساعة الآن؟ ألا تدرك حجم القلق الذي عشته أنا. .»

توقفت بعد أن انتبهت إلى مظهره، وحلّ الذعر والقلق مكان الغضب: آه يا حبيبي، لا بد أنك علقت في منطقة التفجير يا إلهي! ملابسك، إنها ممزقة! هل؟أصبت؟ أين إصابتك؟

قال «كريم» وهو يحاول تهدئتها: لم أصب. فقط كنت في الخارج ألعب، هذا كل شيء.

تفحصّته عن كثب من جديد، ثم عادت ثورتها ثانية: أنت تخفي شيئاً ما. أنت في مأزق؟ قل لي الآن: أين كنت وماذا كنت تفعل؟ هل أوقعت نفسك في مشاكل؟ قل لي يا كريم، ماذا كنت تفعل؟

جاء حسان العبودي من المطبخ في تلك اللحظة، وسرعان ما انضم إلى الاستجواب القائم. ازدادت حدة العاصفة، وتفاقم الغضب، وتواصلت الاتهامات لفترة، أحس «كريم» بأنها كانت ساعات طويلة. راقبت فرح المشهد بعيون سوداء صغيرة، ونظرات امتزج فيها حبّ الاستطلاع ببعض الشماتة. تركت سيرين واللعبة التي كانتا تلعبانها لتراقب ما يجري. اقتربت سيرين من لمياء وتشبثت بطرف بنطالها راجية إياها أن تحملها. صوت أمها الصاخب أخافها وأقلقها. ظلّ المشهد يتفاعل حتى لحظة قدوم «جمال» من الخارج. وجد «جمال» نفسه فجأة وسط الحلبة دون أن تكون لديه أدنى فكرة عما يدور. وقف يستمع باهتمام، ثم اقترب من أمه: لا بأس يا ماما، «كريم» كان مع جوني. رأيتهما يلعبان في الأرجاء، ويتنقلان على غير هدى من مكان إلى آخر.

استدارت وجوه حسان ولمياء نحو «جمال»، وهدأت الثورة قليلاً: مع جوني؟ ولماذا لم يقل لنا ذلك؟

هزّ «كريم» كتفيه بامتعاض: لم يعطني أحد الفرصة لأقول أي شيء.

قال حسان بحزم: لا تتحدث مع أمك بهذه اللهجة.

قال «جمال»، مع ابتسامة خبيثة: لو كنت مكانك لما تفوهت بكلمة، ثمّ مدّ ذراعيه متصنّعاً الهدوء واللامبالاة، وبلهجة هادئة قال: بابا، إنه في الثانية عشرة، لا بدّ وأنه دخل في شجار مع أولاد من عمره، لكنكم لن تفهموا منه شيئاً. لم لا تدعونه الآن يأخذ حماماً ساخناً، أستطيع أن أشمّ رائحته من هنا، إن رائحته قطعت شهيتي. بالمناسبة يا ماما، ماذا لدينا على العشاء، أشمّ رائحة كرات اللحم!

اخترق «كريم» الصفوف ودخل إلى الحمام. خلع ملابسه ووقف تحت الدشّ مذهولاً ببراعة «جمال» وقدرته على التصرّف. شعر بامتنان شديد نحوه. الماء المتدفق فوق رأسه كأنه يغسل كلّ شيء، ليس غبار هذا اليوم الحافل وأوساخه فقط، بل أيضا الرّعب الذي حمله من سطح تلك البناية، والذي كان أشبه بجرح عالق في رأسه. خرج من تحت الدش، ولفّ جسمه بالمنشفة، وانتبه أنه جائع جداً، ومنهك جداً. رفع ثيابه المتسخة عن أرض الحمام ليضعها في سلة الغسيل. تردّد للحظة. «في المرة القادمة، عندما يذهب إلى ملعب الجندب، سيأخذ معه ملابس قديمة، ويرتديها هناك، ثم عند عودته سيتركها في السيارة. هذه أفضل طريقة لتجنب الدخول في معركة مع أمه كل يوم». أعجبته الفكرة. تنفس الصعداء. ألقى بثيابه المتسخة في السلة، وذهب إلى غرفته.

- أنا مدين لك بسبب ما فعلته من أجلي.

كان «جمال» يكتب شيئاً. لم يعلق على جملة «كريم».

- تحدثت مع جوني، سيجلب لك الصورة.

التفت «جمال» قائلاً: لم تقل له لم أريدها؟

«بالطبع لا». كان كريم يتوقع السؤال، «أخبرته أنك تريدها لموضوع بحث عن الشبان الصغار في رام الله، شيء للمدرسة».

- عظيم، أين كنت هذا المساء؟

نظر «كريم» بقلق: مع جوني، كما قلت أنت. أنت لم ترنا كما قلت لماما وبابا؟

- لا، كان مجرد افتراض مني.

رغب «كريم» بقوة في أن يحدث «جمال» عن قنبلة الجندب الوهمية والهيلوكبتر وسطح البناية المهجورة. سيعجب «جمال» به ويقدّره، لكنّه تراجع ورأى أن من الأفضل المحافظة على بعض الحدود. لا بدّ أن يكون الانفتاح بين الأخوة مدروسا بعناية، خشية أن يقع ضحية لاستغلال «جمال» في المستقبل، إذا وقع بينهما خلاف. من الممكن حينها أن يشي به إلى والديه.

«العشاء جاهز!» نادت لمياء. هكذا انتهت حيرة «كريم». ارتدى قميصاً قطنيا أبيض نظيفا، وانطلق مع «جمال» إلى المطبخ. جلسا في مقعدين متجاورين، وسادت بينهما حالة من الانسجام نادرة.

لم يجرؤ «كريم» على مغادرة البيت إلا بعد ظهر اليوم التالي، رغم أن أمه خرجت في الصباح الباكر في طريقها إلى الجامعة. خشيت أن تتأخر على الحاجز، فقررت الخروج قبل الوقت المحدد. حسان العبودي لم يكن مستعجلاً للخروج في ذلك اليوم. نشر دفاتر حساباته فوق الطاولة في غرفة الجلوس، وانهمك يراجعها. ملامحه حملت الكثير من القلق والتوجس. سأله «كريم» بتوجس: أما يزال المحل مغلقا يا بابا؟

- حتى ساعة متأخرة من صباح اليوم، سيكون مغلقا، أنتظر وصول بضاعة. لماذا لا تأتي معي وتساعدني قليلاً؟ لا يزال أمامنا بعض أعمال التنظيف. إنها فرصة جيدة، ما دمت لا تذهب إلى المدرسة.

عضّ «كريم» على شفته غاضباً من نفسه. في الحقيقة، إنه يستمتع بالمساعدة في المحل. عمليات التنظيف الكبرى أنجزت، ولم يبق سوى القليل، وترتيب البضاعة الجديدة، عندما توضع أجهزة المايكروويف والمكاوي والخلاطات وغيرها في أماكنها. لقد وصلت البضائع بأعجوبة، رغم كل العقبات. مزاج حسان العبودي القاتم بدأ يتحسن، بينما كان يرتب المكان لعرض بضائعه الجديدة. أخرج من كل مجموعة نموذجاً أو اثنين، لعرضها في نافذة المحل، ووضع بقية الصناديق في غرفة خلفية تابعة للمتجر. قال أخيراً: يمكنك الآن الانطلاق للعب مع أصدقائك، لكن دون مشاجرات، أليس كذلك؟

قالها حسان وهو يحتضن كتفي «كريم» بطريقة تحمل الكثير من المعاني والمشاعر.

شعر «كريم» ببعض الذنب، وبالحبّ، وباختلاط الأمور في الوقت نفسه. سحب كيس الملابس القديمة التي أحضرها معه من تحت الطاولة وانطلق به. كان الوقت قد تأخر. ولا بد أن جوني غادر المدرسة منذ فترة، وانطلق إلى ملعب الجندب. ربما منذ ساعات. انطلق بسرعة كبيرة، ووصل المكان وأنفاسه تتلاحق. ظنّ لوهلة أن المكان مهجور. نظر حوله بخيبة أمل، ثم سمع أصواتا خفيفة قادمة من جهة موقع السيارة القديمة. شقّ طريقه بين الأكوام بحذر حتى لا يفسد جينزه المفضل، ويوسخه، ثم أطل داخل السيارة. كان جوني هناك وحده، منحنياً، وبيده قطعة لحم يحركها أمام القطط الصغيرة التي كانت تقفز محاولة التقاطها. بدت الأم حذرة، لكنها ليست مذعورة. استلقت وبدأت تنظف جسدها بلسانها. كانت مسترخية في المقعد الخلفي بفخامة وكبرياء. قال جوني، بعد أن لمح «كريم»: هذه القطط الصغيرة رائعة. هذه أكثر نشاطاً من الثانية. سألقبها جنجر. تبدو الثانية ضعيفة وكسولة. حاولت إطعامها، لكنها لا تتجاوب بسهولة.

وقف «كريم» يراقب جنجر وهي تتعلق بقطعة اللحم بمخالبها الدقيقة الحادة. كانت تلعب بها ببراعة، بينما يمسك جوني بطرفها الآخر بأصابعه. رفع جسمه وعاد إلى الخلف: سأذهب لأغير ملابسي. لقد أحضرت بعض الملابس القديمة، لأن ماما ثارت كالمجنونة عندما رأتني ليلة أمس.

ابتعد عن السيارة ولحق به جوني: أمي أيضاً لم تكن بخير، لقد عاملتني وكأني ارتكبت أقبح جريمة ممكنة. كأني قتلت أحداً، أو شيئا من هذا القبيل. إنها فكرة جيدة أن تحضر ملابس قديمة، ليتني فعلت مثلك!

- سأتركها هنا، سأخبئها داخل السيارة.

هزّ جوني رأسه موافقاً: عظيم، سأفعل مثلك.

- أين الجندب؟

- لا أدري، لم يحضر بعد.

تلفت «كريم» حوله باحثاً عن مكان ليغيّر ملابسه. لم تكن المسألة صعبة، فأكوام المخلّفات في ملعب الجندب تضمّ الكثير من الزوايا التي يمكن الاختباء خلفها دون أن يراه أحد. خرج بعد دقيقة مرتديا قميصاً قطنياً قديماً باهت اللون، وبنطالا عريضاً كان لأخيه فيما مضى. لن يفتقد «جمال» ذلك البنطال أبداً. كان جوني سيسحب شيئاً

من حقيبته المدرسية. سأله «كريم»: ما هذا؟

- صورة لأختي، حسب طلبك. لكن صوته كان به بعض الشك

.دعني أرى.

سحب الصورة من يد جوني، الذي تردد قليلا، ثم انفجر ضاحكاً: لا بد أنك تمزح.

كانت الصورة قد التقطت في أستوديو تصوير خاص. ظهرت فيوليت جالسة أمام قوس من الورد الأحمر، وذقنها مرتاح فوق رسغها بطريقة استعراضية ساذجة، تنظر الى الكاميرا بنظرة حالمة. إنها الصورة المثالية. الصورة الملائمة لتلك الرومانسية الغبية التي ستسعد «جمال» في الغالب. العيب الوحيد في الصورة هو أن أحدهم عبث بها ورسم شارباً فوق فم فيوليت، كما رسم إطار نظارة حول عينيها.

قال جوني: «اعتقدت أن الحصول على صورة لها مسألة سهلة جداً. فيوليت كما قلت لك لديها مئات الصور، لكني نسيت أنها وصديقتها الحميمة تعشقان ألبومات الصور، فهما تلصقان كل صورهما داخل تلك الألبومات، ما يجعل العثور على صورة طليقة لها مسألة صعبة. لقد بحثت في كل مكان، ولم أجد غير هذه الصورة. ماما هي الأخرى تضع الكثير من الصور في إطارات، وتوزّعها في أرجاء البيت، وبالطبع لم أجرؤ على الاقتراب من تلك أيضاً».

- من رسم النظارة وهذه الأشياء؟

قال جوني بحرج: أنا. كان هذا قبل سنوات. كنت غاضباً منها فأخذت قلم تخطيط ورسمت هذه الخطوط.

قال «كريم» وهو يتفحص الصورة عن قرب: هذا جيد، أقلام التخطيط يمكن إزالة خطوطها. هذا النوع من الحبر لا يلتصق جيداً بالورق المصقول.

جلس على حجر ووضع حقيبة جوني على ركبتيه ثم وضع الصورة فوقها. لحس طرف أصبعه ليبلله قليلاً، ووضع الصورة على ركبته، وبدأ يمسح الشارب فوق فم فيوليت. قال جوني وهو يتفحص حركة إصبعه: انتبه! أنت بذلك ستمحو ملامحها.

- ليس تماماً. ها هو الحبر يزول.

حمل الصورة عاليا. الآن بدت فيوليت مضحكة بالظلال التي ظهرت فوق فمها. كانت مثل رجل لم يحلق منذ بعض الوقت، لكنها بالتأكيد بدت أفضل من السابق. بدأ «كريم» يعمل على إزالة النظارات من حول عينيها، وكان جوني قد حددها بخطوط أكثر سمكاً من خطوط الشارب. بدأت العلامات السوداء بالاختفاء مخفية معها أجزاء من الصورة نفسها. يبدو وجه فيوليت الآن أشبه بوجه البومة، مع كل هذه الدوائر الرمادية والبيضاء التي تحيط بعينيها. بدت الصورة غريبة جداً، لكن الناظر إليها لم يكن ليعرف بالتحديد سبب تلك الغرابة.

قال جوني وهو يخرج علبة ألوان من حقيبته ويقدمها إلى«كريم»: قد نتمكن من تحسين مظهرها قليلاً، وتعديل الألوان.

أختار «كريم» قلماً بلون قريب إلى لون البشرة، وبدأ يغطي الأماكن التي محيت. عمل بتركيز عالٍ وحرص شديد، وعندما انتهى من المهمة حمل الصورة عالياً أملاً في الحصول على مباركة جوني. قال جوني: إذا عرضت الصورة من مسافة بعيدة، ونظرت إليها بعيون نصف مفتوحة، فستجدها مقبولة.

هزّ «كريم» رأسه موافقاً: هي صورة والسلام. المهم أنك تستطيع تمييز فيوليت على أنها صاحبة الصورة. ماذا يتوقع أكثر من ذلك هذا السخيف؟ شكراً جزيلاً لك على أية حال. لقد أنقذتني من ورطة كبيرة. والآن يمكنني استعادة لعبة لينمان من جديد.

سمع صوت خطوات خلفهم. ها هو الجندب يقترب منهم. قال باقتضاب: مرحباً.

«مرحبا»، قال «كريم»، وأوشك على سؤاله عن سبب تأخره، لكن وجه الجندب كان صارماً وجاداً وبادرهما بالقول: أليس من المفروض أن نبدأ العمل؟

نظر إليهما، وتلفت حوله بخيبة أمل، وكأنه كان يتوقع رؤية تحولات كبيرة في المكان عند وصوله. سأل جوني: أي عمل؟

ظلّ الجندب واقفاً في مكانه شابكاً ذراعيه حول صدره، ووقف الاثنان ينتظران أية أفكار محددة منه. قال الجندب أخيراً: ينبغي جعل قاعدتنا أكثر أماناً. بهذا الشكل سيكون من السهل العثور على المكان إذا ما أتوا للبحث عنا.

قال «كريم» وهو يتفحص برميلاً قديماً ملقى بجانبهم: لنغلق المدخل إذن؛ أليس هذا ما تقصده؟

كان نصف مملوء بالتراب والحجارة، حاول دفعه، لكنه لم يتحرك من مكانه. قال دون أن ينظر إليهما: تعالا وساعداني. يمكننا قلبه على الأرض ودحرجته.

صار البرميل بالقرب من السيارة. وقال الجندب: إذا أعدنا توقيفه ثانية على قاعدته، يمكننا أن نملأه بأشياء كثيرة، ثمّ نأتي ببراميل أخرى، على أن نترك فسحة بسيطة يمكننا من خلالها أن نزحف وندخل إلى السيارة، فسحة لا يراها إلا من يقترب كثيراً من هذه النقطة.

قال جوني: نحتاج إلى براميل أخرى، إثنين أو ثلاثة على الأقل.

اعترض «كريم»: شريطة أن لا نصف البراميل إلى جانب بعضها بطريقة تثير الشكوك وتلفت الأنظار!

انطلق نحو برميل كان ملقى بعيداً على جانبه، ونصفه مغطى بالتراب. حاول تحريكه ودفعه لإخراجه من بين التراب. لحق به جوني والجندب، ودفعه الثلاثة سوياً، فتطاير التراب والحجارة من حولهم، وخرج البرميل من الحفرة. حرّكوه نحو السيارة، ووضعوه بطريقة فنية لإخفاء المدخل المؤدي إليها. قال جوني:

- هذا جيد جداً. نحن بحاجة إلى برميل آخر.

قال «كريم» بنفاذ صبر: ليس الآن! أين الكرة؟ هيا بنا نلعب.

أمسك الجندب برسغ جوني، ونظر في ساعته: لا أستطيع البقاء أكثر من ذلك، سأترككم خلال دقائق.

قال جوني بخيبة أمل: لماذا؟

ردّ الجندب بطريقة بدت غريبة: امي تحتاجني.

لم يعلّق أي منهما.

- كانت اليوم في القدس، ذهبت لزيارة أخي سليم.

سأل جوني: ماذا يفعل أخوك سليم في القدس؟

- في السجن، في سجن المسكوبيّة.

ارتجف جسد «كريم» وهو يتخيل العذاب الذي يمّر به سليم وغيره من السجناء

الفلسطينيين في ذلك السجن الإسرائيلي سيئ الصيت. سأل جوني: متى تم اعتقاله؟

قال الجندب وهو يتنهد بعمق: «قبل شهرين. كنا عند الحاجز العسكري، وطلبت المجندة منه إبراز هويته. أعطاها إياها. نظرت إليها ثم ألقتها على الأرض أمامه وأمرته بأن يلتقطها. كانت السماء تمطر بغزارة، والأرض غارقة في الوحل.

شدّ «كريم» على أسنانه غاضباً: وهل فعل؟

قال الجندب بمزيج من الفخر والندم:

- لا، أنت لا تعرفه. لا، لقد أدار وجهه في الاتجاه المعاكس.

- وماذا حصل؟

كرّرت أوامرها له بأن يلتقط الهوية عن الأرض، لكنه لم يفعل، ولم يتحرك على الإطلاق. كنت ارتعد من الخوف، أدركت أن أمراً سيئاً على وشك الوقوع، كانت نبرة التهديد واضحة في كلامها، وكانت تستمتع بقوّتها وهي تقول: «لن يحصل لك خير إذا لم تلتقطها». في النهاية انحنى سليم ورفع هويته عن الأرض بعد أن شعر بأنها على وشك أن تتلف في الماء. اعتقدنا أن المسألة انتهت هنا وبدأت أنا وسليم بالتحرك بعيداً، لكن المجندة تحدثت إلى جندي آخر، فقام بدوره بتوجيه نداء نحونا، وطلب من سليم التوجه إليه. طلب هويته ونظر إليها وقال: من المستحيل قراءة ما هو مكتوب عليها، إنها مغطاة بالطين، هذه الهوية لم تعد صالحة، ولذلك لن أستطيع السماح لك بالمرور، عليك أن تعود أدراجك.

أصبح الوضع في تلك اللحظة لا يطاق.

تهدّج صوت الجندب، ورفع ذراعه ليمسح عينيه بكم قميصه. أرتبك «كريم» لرؤية الجندب على تلك الحال. كان دائماً يراه صلباً وخشناً. حاول أن يقول أيّ شيء، لكنه لم يستطع: ظلّ سليم - هادئاً ومتماسكاً، لكنه ما إن بدأنا العودة حتى فقد هدوءه. استدار، وقبض على ذراع الجنديّ، وبدأ يهزّها ويصرخ في وجهه. اقترب جنديان آخران منه، وأمسكا بذراعيه، وقيداه بشريط بلاستيكي، ودفعاه على وجهه إلى الأرض. نظر سليم إليّ وقال: انتبه لأمك، ولا تدخل نفسك في أية مشاكل. أخذوه بعيداً، ولم تتعرّف ماما على مكان سجنه حتى الأسبوع الماضي. واليوم كانت أول محاولة لها لزيارته هناك. خرجت من البيت في السادسة صباحاً، واجتازت

الحاجز، ووصلت القدس دون متاعب. لكنّهم تركوها تنتظر حتى الساعة الثانية بعد الظهر، ستّ ساعات، ثم قالوا لها إنها لا تستطيع رؤيته. لقد تركتها وهي تبكي دون توقف، فشعرت بالحاجة للابتعاد عن البيت قليلاً، وجئت إلى هنا، والآن اشعر أن عليّ العودة لتهدئتها وتطمينها. إنها دائمة الخوف عليّ من الاعتقال.

قال «كريم» محاولاً خلق حوار وتخفيف التوتر: معها حق في مخاوفها، طالما أنك تقوم بزرع عبوات مزيّفة، وتقوم بأعمال مشابهة.

ابتسم الجندب: كان ذلك محاولة بسيطة للانتقام.

حمل جوني حقيبته: لن نكمل عملنا هنا بدونك. سننتظر حتى نتمكن جميعاً من استكمال عملنا سوياً.

ابتلع كريم خيبته. كان يحلم بتمضية وقت جيد في التخطيط وتنظيم المكان: حسناً، نعم أظن أن جوني على حق.

بتردد واضح قال الجندب: أتمنى لو تأتون معي وترونها، أعني ماما، إنها خائفة جداً، وتعتقد أنني أرافق صبياناً خشنين من المخيم، الأمر الذي من شأنه أن يوقعني في مشاكل جدية، كأن أتورط في أعمال تفجير حقيقية. سيكون مريحاً جداً لها لو تعرّفت إليكم.

قال جوني: ها، إذن تعتبرنا مجرّد صبيين ناعمين!

قال الجندب بعد أن تغيرت تعابير وجهه، واستدار لينطلق مبتعداً: حسناً، لستما مضطرين إلى القدوم معي. أعتذر لأني طلبت ذلك.

قال «كريم: لا لا سنحضر معك. فقط انتظر لحظة حتى أغير ملابسي وأخفي أشيائي في مكانها.

اختفى عند الزاوية التي اختارها، وخرج بعد ثوان مرتدياً ملابسه المرتبة. زحف بحذر داخل السيارة. همهم بهدوء مطمئناً القطط هناك، وحشر كيس ملابسه تحت المقعد الأمامي.

قال الجندب: إخفاء الأشياء هنا فكرة جيدة. هيا بنا. دعونا نتحرك.

فتح الجندب الباب الحديديّ الخارجي الذي كان نصف مفتوح، ثم دفعه وشرّعه على مصراعيه. خلع حذاءه وتركه عند مدخل البيت الحجريّ الصغير. «كريم» وجوني خلعا حذاءيهما أيضاً. وجدا نفسيهما في حجرة جلوس صغيرة ذات جدران بيضاء. كانت الكنبة التي احتلت طول المساحة بين جدارين، مزدانة بوسائد مطرزة بألوان زاهية. هناك مقعدان منفردان على جانبي الكنبة، وطاولة قهوة في الوسط، وفوقها باقة من الأزهار الاصطناعية. على أحد المقاعد جلس رجل طاعن في السنّ، يرتدي كوفية ناصعة البياض وعقالاً أسود، عيناه براقتان وحادتان بالمقارنة مع تجاعيد وجهه الأسمر الذي لوحته الشمس. استراحت يداه فوق رأس عصا ارتكز بجسمه عليها كانت عيناه تحدّقان في الأرض، لكنه ما إن رأى الأولاد حتى شعّ وجهه وبرقت عيناه. قال وهو ينظر نحو الجندب: سامي، هذا أنت؟

« سامي!» فكر «كريم» بدهشة، «إذن هذا هو اسم الجندب الحقيقي». معرفته لاسم الجندب الحقيقي جعلته يبدو أصغر قليلاً. اقترب الجندب وقبّل جده: سِيدي، هؤلاء صديقاي «كريم» وجوني»

قال الرجل رافعاً يده بالتحية: أهلا بكما. تفضلا بالجلوس.

اختفى الجندب عبر باب مفتوح إلى غرفة أخرى، بينما حشر جوني و«كريم» نفسيهما عند طرف الكنبة وقد انعقد لساناهما. وصلت إلى مسامعهما أصوات أطباق وحوار غير مفهوم. عاد الجندب وأمّه من خلفه. هذه هي المرأة التي رآها «كريم» تحمل كيساً كبيراً ثم نادت عليه تسأله عن مأربه. لا يبدو أنها تميّزه. عيناها حمراوان من آثار البكاء، ووجهها يحمل قلقاً وتوتراً، لكنها رسمت على وجهها ابتسامة لتحيتهما قال الجندب محاولاً إثارة إعجابها: هذا جوني، وهو يدرس في مدرسة خاصة، وهذا «كريم»، وهو يدرس في مدرستي، ويسكن في الجانب الآخر من المدينة. هو مجتهد وعلاماته جيدة في كافة المواضيع.

خجل «كريم» من الإطراء. لا يستطيع تصديق التحوّل الواضح البادي على الجندب، الذي انقلب من صبي جريء ومتمرّد، إلى شخص مهذّب يتصرّف باحترام عالٍ. بدا له الجندب أصغر حجماً وأصغر سناً. أخرجت الأم قطعا نقدية من جيبها ودسّتها في يده. همست في أذنه فانطلق خارجاً. عاد بعد دقائق وهو يحمل زجاجات من المشروبات الغازية. فتح الزجاجات بسرعة ثم وزّعها حول طاولة القهوة. شرب

«كريم» وجوني بتأنٍّ وتهذيب. شعرا فجأة بأنهما كانا عطشين.

سأل «كريم»، موجّهاً عينيه إلى صورة معلقة على الجدار تحمل وجه شاب نحيل الوجه جدّي التعابير: هل هذا سليم؟

قال الجندب: لا، هذه صورة قديمة، إنه والدي.

تنهد الرجل المسن وهزّ رأسه: رحمه الله!

تبادل جوني و«كريم» النظرات، وشعرا بالضيق بعض الشيء. تنهدت أم الجندب بثقل: كان ذلك قبل عام تقريباً.

قال الجندب محاولاً التوضيح: ذهب إلى الكويت بحثاً عن عمل. لم يجد عملاً مناسباً هنا. كان يرسل لنا المال من هناك، ولولا ذلك لما تمكنا من الانتقال من المخيم والسكن في هذا البيت، لكن وقع حادث في موقع البناء الذي كان يعمل فيه، ولم نعرف حتى الآن ما الذي حصل بالضبط.

الدموع التي حبستها للترحيب بهم واستقبالهم عادت لتنهمر فوق وجهها. انحنى الجدّ مقتربا منها، وبدأ يربت على يدها مهدئاً قال الجندب: ماما، «كريم» يلعب الكرة بشكل جيد. نحن نلعب سوياً.

مسحت دموعها وابتسمت: جيد، هذا جيد. عليكم أيها الصبية أن تبتعدوا عن المشاكل، ولد واحد في السجن يكفي.

كانت عينا جوني تتفحصان أرجاء الغرفة، وصورة المسجد الأقصى، والإطار الذي يحمل تطريزاً لعبارة تقول: بارك الله هذا البيت، ثم ذلك المسمار على الجدار الذي يحمل مفتاحاً قديماً وكبيراً. وكان الجد يتابع عيني جوني. قرأ علامات التعجب على وجهه. قال الجدّ: هذا مفتاح بيتنا.

نظر جوني إلى الباب الحديدي. بدا المفتاح له أكبر وأقدم من أن يتناسب مع الباب. قال الجد: ليس هذا البيت. بيتنا في الرملة.

قال جوني بدهشة: لكن الرملة في إسرائيل. كنت أظن أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى هناك.

برقت عينا الجد: ما يسمحون به وما لا يسمحون به! ما زلت حتى هذه اللحظة أتذكّر تفاصيل اليوم الذي طردونا فيه. كان ذلك قبل أكثر من خمسين سنة، لكن المشهد في

رأسي واضح، وكأنه حدث بالأمس: انطلق الرصاص في كلّ اتجاه. دبّ الذعر في نفوس الجميع، وانتشرت حالة من الفوضى والقلق. أقفلت أمي الباب ونحن نغادر، وأعطتني المفتاح وقالت: كن حريصا، ولا تدعه يضيع منك. سنعود قريباً، ربما بعد أيام أو أسابيع، عندما تهدأ الأحوال. كيف كان لها أن تتخيّل أنّهم سيأخذون بيتنا وكلّ ما كان فيه، ولن يسمحوا لنا بالعودة من جديد؟

احتقن وجهه احمراراً وأوشك على استكمال روايته، لكن ما إن التقت عيناه بعيني الجندب حتى غيّر رأيه. هزّ رأسه مغيراً الموضوع: إذن أنتم لاعبو كرة قدم أيها الفتيان؟ هذا عظيم. قد تأخذون فلسطين إلى بطولة العالم. ها؟

ضحك الجميع، وارتاحوا لإنفراج الأجواء.

قال الجندب وهم يغادرون البيت، ويمرون بالقرب من حوض الخضار الذي زرعته أمه بعناية واضحة: شكرا لكما. رؤيتكما خففت عنهما وأسعدتهما. أستطيع رؤية ذلك. كانا متوترين بسبب سليم، ويكرران باستمرار أنهما يرتعدان خوفاً عليّ كلما خرجت من البيت.

قال جوني: لا يمكنك لومهما على ذلك، خاصة وأنت تنتقل هنا وهناك وتقوم بزراعة قنابل وهمية!

ابتسم الجندب. لم يكن «كريم» منتبها للحوار. ذهب عقله مع عائلة الجندب والأشياء المروّعة التي حدثت لهم: «أنا آسف لما حلّ بوالدك، أن يموت في الكويت بهذه الطريقة!». ماذا لو أن ذلك حصل له، لو أن أباه مات و«جمال» اعتقل، هل كان سيتحمل الوضع؟ مجرّد التفكير في هذا الاحتمال جعله يرتعد خوفاً. «الجندب حقيقة شجاع، شجاع جداً»! فكر كريم بإعجاب.

قال جوني وهو يمسح بقايا العصير عن ذقنه: أنت وسليم الولدان الوحيدان للأسرة؟ أليس لك أخوة وأخوات آخرون؟

قال الجندب وهو يومئ بنظره نحو مجموعة من المباني المتزاحمة في إحدى زوايا المخيم: لدي أخت واحدة، منى، وهي متزوجة وتعيش في المخيم.

سأل «كريم» بفضول شديد: هل ذلك المفتاح هو حقاً مفتاح بيتكم في الرملة؟

- نعم، وسيظل معلقاً هناك حتى يأتي اليوم الذي يسمحون لنا فيه بالعودة إلى بيتنا القديم هناك.

- لن يسمح الإسرائيليون للاجئين بالعودة أبداً إلى بيوتهم.

قال «كريم» ذلك، ثم ندم على ما قاله. لم يعلق الجندب، لكنه حرك كتفيه بغضب واحتجاج. فكّر «كريم»: أنا لست لاجئا. لم يتساءل من قبل كيف هي حال الناس هنا في المخيم، ولا طريقة تفكيرهم. قال جوني: سأذهب إلى البيت، أبي في انتظاري. لقد اتفق مع أحد الأساتذة على إعطائي بعض الدروس الاضافية في الرياضيات.

ودّعا الجندب وانطلقا مسرعين عائدين إلى المدينة. لم يكن لدى أي منهما مزاج للحديث. قال «كريم» عندما اقتربا من المفترق الذي يفصل بين بيتيهما: شكراً على الصورة.

ردّ جوني مازحاً: يمكنك الحصول على الأصل في أي وقت إذا أردت ذلك. لقد وجدت الأخوات على سطح الأرض فقط لتعذيب الأخوة.

قال «كريم» وهو يفكّر في فرح: أعلم ذلك! أنت على حق تماماً! نعم، أنت على حق.

كانت فرح ورشا تلعبان في غرفة نوم البنات عندما وصل إلى البيت. انطلق صوت ضحكهما من الغرفة وهما تحاولان دفع سيرين للقيام بحركات بهلوانية أو ارتداء ثياب لا تريدها سأل أمه بطريقة لا مبالية: هل «جمال» هنا؟

نظرت إليه بتفحص: نعم، وأين كنت أنت؟

- مع جوني! كنا نصمّم أعمالا فنية من مجموعات من الصور.

- أعمالا فنية! لم أكن أعلم بأنك مهتم ب.

كان «كريم» قد ابتعد ودخل غرفته وأغلق الباب وراءه. غمرته سعادة فائقة في طريق عودته إلى البيت لأنه سيعطي «جمال» الصورة التي يحلم بها. سرّ بمستوى ذكائه وهو ينتظر الآن شكر «جمال» وامتنانه له، والأهم من ذلك أنه يتطلع بفارغ الصبر إلى استعادة لعبة لينمان. لكنه ما أن وقعت عيناه على وجه جمال الوسيم المعروف المتقلب حتى فقد ثقته بإمكان الفوز بما حلم به. رفع «جمال» حاجبيه وهو ينظر نحوه، فالصورة ذات الحواف المحية قد تكون اسوأ مما يتذكر، وقد يظن جمال انه يتلاعب به. قال بلهجة تعمّد أن تخلو من أية احتفالية، وهو يدسّ يده في جيب معطفه الداخلية: عندي شيء لك.

كان «جمال» مستلقياً على سريره. رفع جسمه واعتدل في جلسته وقال بلهجة غير المصدق: أحضرتها؟ دعني أرى.

مدّ «كريم» يده بالصورة، وحمل وجهه تعابير تدلّ بوضوح على قلق وتردد. وضع الصورة في يد جمال. ابتعد عن متناوله منتظراً. سحب «جمال» الصورة، وألقى نظرة طويلة عليها. بدا سعيداً، محتارا، ومشككاً في آن واحد: كأن أحدهم كان يرسم خطوطاً على الصورة! اجابه كريم يبدو أن المصور أجرى عليها تعديلات، يحدث هذا أحياناً. فقال جمال كأن إطار نظارة غير مرئي يحيط بعينيها!

- حقاً! دعني أرى *مكتبة الرمحي أحمد*

دسّ «كريم» رأسه وأمسك بالصورة متظاهراً بالاهتمام وتفحصها: لا، هذا فقط بسبب انعكاس الضوء، الخلفية جيدة، أليس كذلك؟

سحب «جمال» يده ونظر إلى «كريم» بعيون صغيرة. قال «كريم» وهو يمدّ ذراعيه: والآن! ألا أستحق كلمة شكر؟ أليس هذا ما أردته؟ صورة لفيوليت. هذه صورة فيوليت، أم أنني مخطئ. إنها تبدو رائعة إذا طلبت رأيي.

قال «كريم» ببعض السخرية: شكراً لك يا «كريم». أنت أخ عظيم. سأحضر لك لعبة لينمان على الفور. سأحضر معطفي على الفور وانطلق لإحضارها لك.

- انظر، الصورة باهتة هنا، أعني فوق شفتها العليا.

- أية شفة؟ ما الذي تقوله؟

فتح الباب فجأة. اندفعت فرح داخل الغرفة ونظرت إليهما. أخفى «جمال» الصورة فوراً تحت كتاب على الطاولة. لاحظت ذلك فرح، ورسمت تلك الابتسامة الخبيثة على فمها. بادرها «كريم»: إذا رأيتك هنا ثانية، أيتها الخبيثة الصغيرة، فسأكسر أقدام عرائسك، وستمضي تلك اللعبة بقية حياتها في مأوى خاص بذوي الأقدام المبتورة. هل تفهمين؟ هيا أخرجي!

فتحت فرح فمها استعدادا للبكاء والنحيب. نظر «جمال» وقال لها بحزم واضح: أغلقي فمك واخرجي.

خرجت فرح من الغرفة وأغلقت الباب خلفها بهدوء، وبخوف واضح. جلس «جمال» إلى الطاولة والصورة في يده. وتعبير حالم على وجهه. نظر كريم إلى

«جمال» باستخفاف وشيء من عدم الاحترام. «ها قد سارت الأمور على ما يرام»، قال لنفسه، «لقد أحبّ الصورة في نهاية المطاف». بدأ «كريم» يردد بفرح: لينمان، لينمان، لينمان. قال «جمال» دون أن يتحرك: سمعتك. قريبا، أعدك بذلك، أما الآن فأغرب عن وجهي قليلاً

فتحت المدرسة أبوابها بعد يومين. لا تزال رائحة الإسمنت والدهان تفوح من غرف الصف. الغبار والتراب يغطي كل شيء. مختبرات العلوم مدمرة تماماً. بدأت عملية تعديل جداول الدراسة. كانت سجلات المدرسة والطلبة قد ضاعت بسبب فقدان الحواسيب كافة. عمت الفوضى في المكان، وبدأ العمل لتنظيم سجلات جديدة، ومع ذلك انتظمت الحصص الدراسية، وحاول الجميع بذل أقصى جهودهم لإعادة العملية إلى حالها الطبيعي.

«لماذا ينبغي أن تكون المدارس مملة؟» سأل «كريم» نفسه هذا السؤال للمرة الألف، بينما كان يجلس في مقعده الذي أصابه التشقق. نظر عبر النافذة إلى ملاعب المدرسة. لم ينتبه إلى صوت الأستاذ محمد الذي ملأ الغرفة، لكنه انتبه فجأة بعد ضربة على مؤخرة رأسه «كريم عابودي!»، قال الأستاذ محمد الذي كان يقف فوق «كريم» مباشرة. وضع يده على رأسه وأمسك بحزمة من شعره وحرّكه إلى الخلف. كان كريم ينظر في وجه الأستاذ محمد القبيح. الشعر يخرج من فتحة أنفه، وخطوط حمراء فوق بياض عينيه: انسخ. انسخ. عليك أن تدوّن كل ما كتبته على اللوح. لم تفتح كتابك حتى الآن. وأين قلمك؟ هل أنت كسول أم غبيّ أم ماذا، ربما أنت أصمّ؟

«آسف يا أستاذ» همس «كريم».

شعر بالقبضة فوق رأسه تخفّ، فتجرأ على إخراج قلمه. تحرّك الأستاذ محمد بعيداً، ثم عاد يجلس إلى مكتبه الذي يواجه طلبة الصف كلهم. بدأ «كريم» الكتابة. سارت فترة الصباح ببطء يخدر العقل. عمل «كريم» كلّ ما طلب منه دون تفكير. نسخ، حلّ التمارين، دوّن ملاحظات، لكنه ظلّ طوال الوقت يتجنب النظر في عيون الأساتذة الذين كان توترهم وغضبهم أكثر من المعتاد. واصلوا التهديد بإنزال أشد العقوبات

بحقّ من لا ينتبه للدروس، أو يخرق التعليمات. لقد تعرّض للضرب مرة على يد أستاذ، ولا يريد تكرار هذه التجربة.

لم يكن من السهل التركيز على الحصص والدروس. عاد إلى النظر عبر النافذة، متجاهلاً صدى صوت الأستاذ محمد وناسياً الكتاب المفتوح أمامه على الطاولة. انطلق في الأرجاء صوت انفجار قويّ قريب من المكان. أحسّ «كريم» فجأة بذلك الانقباض الذي يصيب معدته أحياناً، ووقف شعر رأسه من الخوف. تدافع الطلبة القريبون من النافذة إلى وسط الغرفة، وانبطحوا على الأرض خوفا من تطاير قطع الزجاج فوق رؤوسهم. وسيم، الصبي النحيل الذي نادراً ما يسمع صوته في الصف، أطلق صيحة، ثم تسمّر واقفا في مكانه. تمتم بكلمات غير مفهومة، وبصوت مرتجف. فتح باب الغرفة، وأطل مساعد المدير برأسه.

- إنهم يتحركون مبتعدين في اتجاه المخيم، والمدير يطلب من الجميع عدم مغادرة المدرسة دون إذن مسبق.

توقف ونظر إلى وسيم بوجه متعاطف: لا بأس عليك يا حبيبي، ليس هناك ما تخشاه هنا، أنت بأمان.

نهض الأولاد عن الأرض واتجهوا بحذر عائدين إلى مقاعدهم. توقف وسيم عن التمتمة، وعضّ على شفتيه. تنقل الأستاذ محمد بين المقاعد. اقترب منه وأمسك بذراعه. اعتاد الجميع على وسيم وحركاته الغريبة كلما انطلق صوت رصاص أو انفجارات في الأرجاء. شيء ما كان قد حدث لوالد وسيم. «كريم» غير متأكد من تفاصيل الحادثة، لكن الجميع يتوقعون ردّ الفعل هذا من وسيم. بدأت آثار الخوف تختفي بالتدريج، لكن الأولاد ظلوا منزعجين وقلقين. عاد الأستاذ محمد إلى موقعه أمام الصف.

- اهدأوا الآن، وسنعاود الدرس من جديد. افتحوا الكتب على الصفحة ٢٣، وأقرأوا السؤال في آخر الصفحة.

لم يستعد الأولاد تركيزهم. كانت العيون متجهة نحو النوافذ، والآذان مصغية، في محاولة للتعرف على ما يحدث في الخارج. ولم يكن الأستاذ محمد أفضل حالاً كانت يداه ترتجفان، لكنّه كالعادة تصرّف بغضب، تاركاً العنان لثورته بالانطلاق: اقرأوا السؤال، هيا! قال مركزاً ثورته على الولد الأقل حظاً الذي صادفه أولا: هل

أنت غبي أم جاهل أم مزيج من الاثنين؟ ألا تدرك أننا أضعنا ما يكفي من الوقت حتى الآن؟ ستكون معجزة لو تمكّن أي منكم من تحصيل تعليم جيد. هيا بنا، عليكم أن تنسوا ما يدور في الخارج، ودعونا نركز على الصف.

«إنه منافق»، فكر «كريم» وهو ينظر إلى الأستاذ، «إنه نفسه خائف، ولهذا يصبّ غضبه عليهم لأنه خائف. لماذا لا يكون لدينا أستاذ محترم مثل مدرس جمال»؟ استعاد صورة الأستاذ بشير الذي كان يسير في الممر هذا الصباح، ومن حوله تجمع الأولاد بشغف لرؤيته وسماع المزيد منه. تظاهر بالنظر إلى كتابه، لكن الكلمات كانت تقفز فوق السطور. كانت الصدمة التي رافقت الانفجار كافية للحيلولة دون عودة الأمور إلى طبيعتها بعد ذلك.

سمح لخياله بالانطلاق نحو ملعب الجندب، التفكير بذلك أعطاه الشعور بالراحة والهدوء. حالما ينتهون من تنظيف مساحة من الأرض، سيتمكنون من لعب مباريات حقيقية. سيدعون أولاداً آخرين، ويشكّلون فريقاً، وينظمون مباريات. سيكون مكانهم الخاص بهم، وسيكونون مسئولين عنه بالكامل.

دون أن يعي لما يفعله، كانت قدماه فوق الارض المغبرة تتحركان وكأنهما تركلان الكرة حول الملعب. ها هو يركلها إلى وسط الملعب، ثم إلى منطقه الجزاء، يمسك بالكرة من جديد ويلتفّ حول حارس المرمى، الكرة عند قدمه تصبح جزءا منه! ها هي تدخل الهدف.

بدأ الصف بالارتخاء والهدوء، لكن «كريم» ظلّ في عالم آخر. كان يسير منتصرا خارج الملعب. يرفع ذراعيه عالياً لتحية الجموع المهنئة، ويبتسم بتواضع أمام عدسات الكاميرات. حرّك لسانه حول شفتيه، كان يشعر بالعطش بعد كلّ هذا الجري. يبدو أن الغبار المتراكم في أرجاء الغرفة هو السبب وراء العطش. مهما كان السبب، هذا جعله يفكر في أنهم يعطشون عندما يكونون في ملعب الجندب. سيطلب من جوني إحضار بعض المرطبات من دكان والده، ليحتفظوا بها داخل السيارة، وعندما يحل فصل الصيف سيخصّصون منطقة مظللة بعيدة عن الشمس في إحدى الزوايا لتكون بمثابة مقهى خاص بهم، وسيجدون فناء جميلاً للجلوس. هذا سيكون جيدا، سيكون تواجدهم في المكان دائماً إلى حدّ ما.

بما أن الجندب يداوم في صف آخر، لم يكن «كريم» يراه كثيراً خلال ساعات الصباح، لكنه عند انتهاء فترتهم، وتركهم المدرسة ليفسحوا المجال لطلبه الفترة

المسائية، يلتقي بالجندب عند البوابة، ويندفعان سوياً خارج المدرسة. يسيران في العادة جنباً إلى جنب، لكن الجندب اليوم انطلق قبله وسار أمامه. قال «كريم» منادياً عليه: انتظرني!

لم يبطئ الجندب خطاه. أسرع «كريم» ولحق به، أمسك به من ثيابه وقال: ماذا دهاك؟ لم كل هذه العجلة؟

عندما التفت، كانت تعابير وجهه ممزوجة بالمرارة والهلع: إطلاق النار! ألم تسمع؟ قالوا إنه قادم من ناحية المخيم.

شعر «كريم» بالخجل من نفسه، لأنه كان سعيداً لمعرفته أن ما جرى لم يكن بالقرب من بيته. لم يفكر حينها بحال الجندب، وتأثير ذلك عليه. انطلق الاثنان بسرعة، متوقعين في كل لحظة أن تصادفهم دبابة أو مركبة عسكرية عند أي مفترق طرق، أو أصوات آمرة أو نداءات عسكرية خلال مسيرتهم. لكن شيئاً لم يحدث، وكانت الطريق سالكة. انعطف الجندب نحو الممر الضيق الذي يقود إلى حوض الخضار الخاص بأمه. كان جده واقفاً هناك يتحدث مع رجل آخر في مثل عمره. قال الجندب لاهثا: سمعنا صوت إطلاق نار بينما كنا في المدرسة. قالوا لنا إن هناك اشتباكات في المخيم، ما الذي حصل؟

حرّك الجدّ جسمه لينقل ثقله من فخذه المتألم من الروماتزم الى الآخر انتهت المواجهة. قاموا ببعض الاعتقالات. أخذوا طارق زهير وعلي فؤاد وآخرين. حاصروا الناس وأطلقوا بضع قذائف في اتجاه البيوت. أصيب خمسة أشخاص، والحمد لله أن أحداً لم يقتل.

- هل منى بخير؟

- نعم، أختك بخير، لقد ذهبت أمك لرؤيتها.

واستدار ناحية الرجل الآخر الذي قال: لا بد أن هذا ابن يوسف الذي حدثتني عنه، والآن، أخوه في

اختفت كلمات الرجل، بينما كان «كريم» والجندب يبتعدان نحو الطريق العام.

- كيف حال أخيك؟ هل من أخبار عنه؟

هزّ الجندب رأسه بالنفي: ليس كثيراً! ليس من السهل معرفة أخباره، لديّ خال في

القدس، وهو يذهب أحياناً إلى السجن أملاً في رؤية أي من الذين يطلق سراحهم ليحدثوه عن أخباره، لكنه من جهة أخرى مرتبط بوظيفته، وليس لديه وقت للذهاب إلى هناك دائماً

ساد الصمت لبعض الوقت، ثمّ قال «كريم»: أتمنى لو نستطيع الوصول إلى المسكوبيّة لنساعد سالم على الهرب! أتعلم، كما يحصل في أفلام جيمس بوند.

وقف بحركة مسرحية، متظاهراً بحمل مسدس عند مستوى حوضه، وبدأ يحرّك يده في جميع الاتجاهات، مصدراً أصواتاً كأصوات إطلاق النار.

قال الجندب: يتملّكني شعور غريب بأن حدثاً سيئاً سيحلّ به، بأنه سيموت هناك، وبأنني لن أراه من جديد.

-١٦-

بات الأولاد أكثر استرخاء لدى وصولهم إلى ملعب الجندب. استعاد «كريم» الكرة من داخل السيارة وركلها نحو الجندب الذي التقطها بقدمه ثم احتجزها تحت قدميه وجلس فوق حجر كبير كان آخر عقبة عليهم إزالتها من المكان الذين عملوا جاهدين على تنظيفه. غرق الجندب في أفكاره، ولم يعرف «كريم» ما عليه فعله أو قوله. صوت مواء جعلهما يلتفتان. ظهرت القطة الأم. اقتربت من الجندب وبدأت تحكّ فروتها على قصبة ساقه، ثم عادت وجلست بجانبه فوق الحجر الكبير رفعت إحدى قدميها بنعومة، وبدأت تلحس بطنها الأبيض. مسح الجندب بيده فوق ظهرها برفق، وهمهم لها بأصوات رقيقة. بدت القطة وكأنّها تصغي له، ثم قوّست ظهرها ودست رأسها في راحة يده. راقبهما «كريم» وانتابه للحظة شعور غريب بأن كلا منهما يفهم الآخر. نظرت القطة إلى الجندب وكأنها تقرأ أفكاره. لحست راحة يده، ثم بدأت تخرخر ابتسم لها وداعب ذقنها.

«كلاهما يبدو بريّا». شعر «كريم» بالغيرة لوهلة. قال بصوتٍ خافت: أين القطتان الصغيرتان؟ لم أرهما في السيارة؟

قال الجندب بنبرة الخبير والعارف: إنهما تنموان وتكبران. ربما كانتا تتجولان في المكان وتكتشفان المحيط حولهما.

«كانوا يطلقون قذائف الدبابات باتجاه المخيم»، قال كريم وهو ينظر إلى الجندب.

وصل جوني لاهثا. ألقى بحقيبته على الأرض وجلس على الحجر بعد أن ترك له الجندب مكانه. قال: تعم المدينة فوضى كبيرة. المزيد من الاعتقالات الإسرائيلية في كلّ مكان، وصلت إلى هنا بصعوبة.

رفع الثلاثة رؤوسهم إلى الأعلى بصورة تلقائية، وكأنهم يحاولون سماع ما قد يصدر من أصوات في الأرجاء، والقلق يظهر على وجوههم. فتح جوني حقيبته وأخرج منها كيساً صغيراً. فتح الكيس وأخرج منه رؤوس دجاج مقطوعة، وأجزاء أخرى من اللحم، ونثره على الأرض أمامهم، فانطلقت القطة في لمح البصر، جالت بأنفها فوق الطعام ثم تناولت رأسا وبدأت تقضمه ثم اختارت قطعة منه وانطلقت بها نحو الركام. قال جوني: إنه وقت الاحتفال بالنسبة للقطط الصغيرة.

عادت بعد لحظات، واقتربت فوراً من الجندب. جثت تحت قدميه والتفتت حولها، ثم أصدرت صوتاً يشير إلى سعادتها. قال جوني معترضاً: - أنا من عليك توجيه الشكر له، لا هو. أنا الذي جلبت لك قطع الدجاج هذه!

ابتسم الجندب بفرح، وبدا فجأة أصغر من عمره: لكنها مع ذلك تحبني أكثر، أليس كذلك يا عزيزة؟

سأل «كريم»: عزيزة؟

- نعم، هذا هو اسمها.

- هي قالت لك ذلك على ما أظن.

علّق «كريم» وهو يشتعل غيظاً. الجندب لم يحر جوابا. التقطت عزيزة قطعة أخرى وذهبت بها بعيداً. قال «كريم» بعد أن فرغ صبره: هيا بنا، هل سنلعب أم لا؟

وبدأ يقفز ويتحرك وكأنه لاعب احتياط في مباراة كبيرة، يستعدّ، ويهيئ نفسه للنزول إلى الملعب. تحرك الآخران ببطء، بعيداً عن الحجر الكبير. لاحظ أنهما لم يكونا في مزاج ملائم للعب، وفي الحقيقة كان هو نفسه أيضا غير متحمّس للعب. ركل الجندب الكرة نحو جوني فردها جوني بكسل واضح. راقبهم «كريم» بينما كانت حماسته تختفي بالتدريج. انطلقت الكرة نحوه فجأة، فوجد نفسه يركلها بقوة غريبة. انطلقت الكرة بسرعة هائلة إلى مسافة لم يتوقعها ولم يخطط لها، وهبطت

فوق الركام الكبير، واختفت هناك.

« غبي!» قال جوني ذلك مازحاً وبدأ يتسلق الركام للبحث عنها. مزاج «كريم» الآن يزداد سوءاً. بدت كل الأمور حوله سيئة.

اتجه الجندب إلى داخل الركام للبحث عن عزيزة وأطفالها، بينما وقف «كريم» يتفحّص المساحة التي تم تنظيفها. ما الهدف من كل ما فعلناه؟ هذا المكان! إنه لا يساوي شيئاً، لا يوجد شيء في هذا المكان، حتى أنا لم أعد أستطيع ركل الكرة بطريقة صحيحة.

هبطت الكرة فجأة وتدحرجت أمامه. أمسك بها ونظر إلى جوني الذي كان يخرج من بين الركام حاملاً علبة تنكية في كل يد. قال وهو ينادي بلهجة المنتصر ويلوح بما في يديه: أنظروا ماذا وجدت!

قال «كريم» بلؤم: حقاً، اكتشاف مذهل، علب فارغة.

عقد جوني قدمه حول ساق «كريم» في محاولة لإيقاعه. حافظ «كريم» على توازنه بصعوبة، واستدار نحو جوني للانتقام منه، لكن الأول دفع قريبا بإحدى العلب في وجهه قائلاً: إنه دهان، أحمر واخضر، ما زال هناك الكثير من الدهان داخلها، اسمعوا!

حرك العلبة ليسمعوا صوت السائل في داخلها. عاد الجندب من جولته: دهان! دعني أرى!

قال جوني: لم أتمكن من نزع غطائها. حاولت، لكن يمكنك معرفة لون الدهان في الداخل من الدهان الذي سال على جوانب العلبة.

أخرج جوني سكيناً سويسرياً من جيبه وعالج الغطاء قليلاً بطرفه محاولاً فتح العلبة. قال «كريم»: انتبه، قد يتطاير الدهان عليك. دعني أحاول.

أخذ السكين وأغلقه وأخرج من الجهة الأخرى مفتاح ربط. انشغل بالمحاولة بعض الوقت حتى نجح. أبعد الغطاء، واقتربت الرؤوس الثلاثة إلى داخل العلبة التي احتوت دهانا صافياً أخضر اللون. قال جوني: إنه جميل.

قال جوني: هذا رائع.

قال الجندب: هذا عظيم.

فتحوا العلبة الثانية، وجاء الأحمر أكثر صفاء من الأخضر، كان يلمع مثل شقائق النعمان، وكان حاداً كلون الدم. قال «كريم»: من المؤسف أنه ليست لدينا ألوان سوداء وبيضاء. كان باستطاعتنا تصميم علم فلسطين.

قال جوني: كيف؟، ليس لدينا ما نرسم عليه العلم؟

قال «كريم» وقد بدأ يستعيد حماسته: بلى، ذلك الجدار عند نهاية الملعب، سيبدو العلم عظيماً هناك.

قال جوني معيداً الحوار إلى نقطة البدء: لكن ليست لدينا ألوان بيضاء وسوداء.

كان الجندب يراقب عزيزة التي عادت لتلحس ما تبقى من أثر للدجاج على كيس البلاستيك الذي أحضره لها جوني. قال الجندب بهدوء: يمكننا تصميم علم، إذا ما استخدمنا حجارة متفرقة ومنفصلة. يمكننا طلاء بعضها ولف البعض الآخر بأكياس بلاستيكية سوداء وبيضاء، ويمكننا صفها على الأرض لتشكل علماً.

نظرا إليه بإعجاب وسعادة. قال جوني: هذه أروع فكرة سمعتها. وقال «كريم»: إنها مذهلة!

دبّت الحرارة أخيراً في عروق الثلاثة، وانطلق كلٌّ منهم في اتجاه، لجمع الأحجار المطلوبة، ولم تمض سوى دقائق حتى كانوا قد جمعوا كومة لا بأس بها من الحجارة. قال جوني: ليست لدينا فرشاة للطلاء.

قال الجندب: لسنا بحاجة إلى ذلك. انتظر.

غاب في الرّكام قليلاً ثم عاد يحمل غطاء برميل قديم، وضعه على الأرض ليكون بمثابة وعاء كبير، وصبّ بعض الطلاء الأخضر فوقها، غمس الحجارة في الدّهان من جميع الجوانب ثم أخرجها ووضعها على الأرض لتجف. قال «كريم»: دعني أكمل ذلك.

تشارك الثلاثة في طلاء الحجارة، كل بدوره، وجاءت النتيجة مرضية تماماً. مع انتهاء الطلاء، كان لديهم ثمانية عشر حجراً أخضر لامعاً. قال جوني مخاطبا «كريم»: الطلاء يغطي حذاءك كله.

ردّ «كريم»: وماذا عن يديك؟ وذقنك أيضاً؟

أحضر الجندب غطاء برميل ثانٍ ووضعه على الأرض، وبدأ بسكب الطلاء الأحمر فيه. عليهم الانتباه أكثر هذه المرة، لأن كمية الطلاء الأحمر كانت أقل من الأخضر قليلاً أحضروا بقايا ستارة، وبطرف القماش كانوا يلتقطون الطلاء ويوزعونه على الحجارة. استعملوا بقية القماش لتنظيف أنفسهم، لكن المحاولة لم تكن عظيمة. قال جوني ضاحكا: أنتما الاثنان تبدوان في حالة مزرية.

قال الجندب: لا يهمني ذلك.

قال «كريم»: أما أنا فيهمني كثيراً، ستقتلني أمي! لكنه واصل البحث عن الأكياس البيضاء والسوداء لاستكمال العلم.

هذا الجزء هو الأسهل، لأن هذه الأكياس تتراكم دائماً هنا وهناك. وخلال دقائق فقط جمعوا كمية جيدة منها، ثمّ رتبوا الحجارة الخضراء في صفّ واحد، ثم خط من الحجارة البيضاء إلى جانبها، ثم جاءوا بقطعة بلاستيك سوداء كبيرة، أفرغوها مما في داخلها من مواد بناء وحولوها إلى غطاء مناسب للحجارة في الصف الثالث. رتّبوا الحجارة الحمراء بطريقة فنية، وشكلوا بها المثلث عند أحد جوانب العلم. عند انتهاء علمهم، وقفوا يتأملون ما أنتجته أيديهم. كان أجمل بكثير مما توقّعوا. ساروا حوله، وتفحصوه من الزوايا كافة، بإعجاب شديد. قال «كريم» وهو يعدّل أحد الأحجار البيضاء، لم يكن راضياً عن طريقة وضعه: كان من الممكن أن نجعله أكبر حجماً.

قال جوني: أعتقد أنه ممتاز على حاله هذه.

قال الجندب: سيحبّه سليم عندما يخرج من السجن.

انقلب مزاج «كريم». هو يشعر الآن بالكثير من الفخر وبثقة عالية بالنفس. لقد أنجزوا شيئاً هنا، فوق قطعة الأرض الصغيرة هذه، التي باتت مكاناً خاصاً بهم.

التلفاز مضاء كما هو حاله دائماً. لمع زوج عيون براقة عند زاوية غرفة الجلوس المظلمة فيما كانت أوراق النبتة الخضراء الطويلة بجانبه حتى كادت تغطي الشاشة. جاء صوت المذيع قائلاً: دخل جنود إسرائيليون أحد مخيمات اللاجئين في غزة، قتلوا ثلاثة فلسطينيين من بينهم طفل في الثامنة، وجرح جندي واحد. وفي حادث آخر في جنين، دخلت الدبابات الإسرائيلية المدينة، وهاجمت ثلاثة منازل يشتبه بقيام أصحابها بنشاطات عسكرية. قتلت سيدة فلسطينية مسنة تحت أنقاض أحد تلك المنازل، بعد أن فشلت في مغادرته في الوقت المناسب.

«لماذا تأتي أخبارنا دائماً بما هو سيء»؟ فكّر «كريم» وهو يشعر من جديد بألم ينهش معدته، «لماذا لا تحدث لنا أشياء جيدة ومفرحة»؟

كان يزحف على ركبتيه، يبحث عن القلم الذي تدحرج تحت الكنبة. كان قادراً على سماع صوت أنفاس والديه الصامتة وهما يستمعان إلى صوت المذيع المدروس الذي لا ينم عن أية مشاعر، ثم أصوات نحيب أفراد عائلة تشيّع فقيدها إلى مثواه الأخير. مدّ ذراعيه جيداً حتى عثر على القلم. لم يتمكن من الإمساك به، لكنه نجح في دحرجته وإخراجه بعيداً عن الكنبة. قال حسان العبودي بغضب: لن يهدأ لهم بال حتى يطردونا جميعاً خارج البلاد، ويحتلوها كلها. هذا ما يسعون إليه، صدقيني يا لمياء.

توقف كريم عن الاستماع. التقط قلمه وذهب إلى غرفته. أغلق الباب خلفه. سيخصص نصف ساعة أو ربما ساعة كاملة من العمل المتواصل لإنجاز وظائفه المدرسية. لا بد أن يأخذ الدراسة بشكل جدي. قبل الذهاب إلى أرض الجندب، لا بد من النجاح في الامتحانات.

درس ساعة متواصلة. كان صامداً في مقعده أمام مكتبه، ومحاطاً بالكتب والدفاتر تنهد بارتياح. ألقى بقلمه. وقف، ثم تحرّك نحو باب الغرفة على رؤوس أصابعه. أفضل طريقة للخروج من البيت تكمن في مفاجأة والديه وعدم إعطائهم فرصة للتفكير بحجّة لمنعه من الخروج. فتح الباب بهدوء. كانت غرفة الجلوس خالية. جاءه صوت والديه قادماً من المطبخ.

«أنا ذاهب لرؤية جوني»، قال وهو يطل برأسه من باب المطبخ ويسحبه بسرعة. وقبل

أن يخطو بعيداً جاءه صوت أمه حاداً: آه، لا تذهب، عليك البقاء هنا.

- ماذا؟، لا أستطيع يا ماما، لقد وعدني جوني بأن يساعدني في حلّ بعض مسائل الحساب، لقد.

ارتسمت على وجه والده تكشيرة، فاختفى صوت «كريم»: «أريدك أن ترعى أختك في غيابي»، قالت لمياء، «دون أي نقاش يا «كريم»، فأنا لا أستطيع تركها عند أم رشا لأنها ستذهب لحضور جنازة، وأذن سيرين عادت لتسبب لها الألم من جديد، وهي ترغب في البقاء في البيت. والدك سيذهب إلى المحل، وأنا لديّ موعد في المدينة.

قال «كريم» غاضباً وهو يحاول عدم النظر إلى جهة والده: لماذا قررت اختياري أنا لهذه المهمة؟ أليس من أحد غيري للقيام بذلك؟ أين «جمال»؟

- إنه يستعد لامتحاناته مع باسم، ولا أريد سماع المزيد منك حول هذا الموضوع.

قالت أمه بحزم: آن الأوان أن تتحمل بعض المسؤوليات في البيت وتمضي وقتاً أطول معنا. أنت دائماً في الخارج، ولا تقول لنا أين تمضي أوقاتك، وتعود إلى البيت متسخاً. كان الطلاء يغطّي كل جسمك البارحة. ولا تكرر على مسامعي تلك الأقوال عن مشروعك الفنّي مع جوني. ماذا؟ أتراني غبية إلى هذا الحد؟ حتى عندما تكون في البيت، فإنك في الغالب تكون غارقاً في خيالك، وأحلامك. لا أعلم ما الذي دهاك مؤخراً. على أية حال، دواء سيرين ينبغي إعطاؤه لها في الساعة الرابعة تماماً، ملعقة صغيرة من الزجاجة التي في الثلاجة، وحاول أن تمنع فرح من تعذيبها، فهذه المسكينة بحاجة إلى بعض السكون.

عاد إلى غرفته، وألقى بجسمه فوق السرير. خطوات أمه في غرفتها تصل إلى مسامعه. ها هي تجمع أغراضها. أمه تنتعل حذاءها استعداداً للخروج. سمع صوت الباب الخارجي يقفل بعد أن خرج والده. قالت أمه وهي تطل من باب غرفته على عجل: لا تنس، ملعقة شاي صغيرة عند الساعة الرابعة من الزجاجة التي في الثلاجة. ثم خرجت. تأوه متألما، ثم جلس فوق السرير. لا بدّ أنهم وصلوا ملعب الجندب، ويتساءلون الآن عن سبب تغيبه. فتح حقيبته بحثاً عن هاتفه الخلوي. مهنئا نفسه لأنه اشترى بطاقة جديدة. يستطيع على الأقل أن يرسل رسالة سريعة إلى جوني.

ما إن انتهى من إرسال الرسالة حتى سمع صوتاً قادماً من الغرفة الأخرى. كان صوت فرح ينتحب عاليا وهي تقلّد بكاء سيرين. أدرك أنها تسعى إلى إغاظتها ودفعها

للبكاء. فتح باب الغرفة بقوة، «حسناً، أنت!»، قال موجهاً ثورته إلى فرح، التي جلست على الكنبة بجانب سيرين. التفتت فرح إليه بوجه يحمل علامات الخبث والدعابة.

- هيا، إلى الخارج، اذهبي للعب مع رشا والأخريات عند أسفل الدرج، ولا تعودي إلا عند عودة ماما من الخارج.

ابتسمت فرح باستهزاء: رشا ليست هنا، لقد خرجت مع أمها.

- هذا غير صحيح، لقد رأيتها قبل نصف ساعة تلعب عند الدرج. وحتى لو كان هذا صحيحاً، فإن بقية الأولاد هناك، أمامك، ونظر الى ساعته، أمامك ثلاث دقائق لتغادري الشقة، وإلاّ! قالت فرح بفضول: ماذا؟ وإلاّ سأحتجزك في غرفتك، ولن أدعك تلعبين مع أحد على الإطلاق.

لحسن حظه، تجاوبت فرح مع التهديد. قامت وهي تتمتم وتتأفف، وحملت عروستها الباربي التي تجلس عادة بجانب التلفاز، وغطاء صوفياً صغيراً لتلفّها به، وخرجت تاركة باب الشقة مفتوحاً على مصراعيه. لقد تعمدت ترك الباب هكذا.

أغلق «كريم» الباب وعاد إلى سيرين التي استلقت فوق الكنبة وإبهامها داخل فمها: أتريدين شيئاً لتشربيه؟

أحضر لها كوب عصير من الثلاجة وجلس إلى جانبها حتى شربته. سار الوقت بطيئاً بعد ذلك. اختار فيلم توم وجيري من مجموعة الأفلام بجانب التلفاز، وأشعل جهاز العرض. استلقى بجانب سيرين، وشاهدا الفيلم معاً. غفت سيرين مع انتهاء الفيلم. بدأ الملل يستولي عليه، فذهب إلى المطبخ، ثم إلى الشرفة. كانت أغطية السرير معلقة على حبال الغسيل؟ إنها أغطية سرير فرح التي أصبحت بعد زيارتهم المشئومة للقرية تستيقظ في الليل فزعة من الكوابيس التي تهاجمها بين حين وآخر، كلما حدث توتر في المدينة تبلل فراشها. أزاح «كريم» الشراشف إلى جانب واحد، ونظر إلى المشهد أمامه. بدت الطرق الواصلة بين المباني السكنية الجديدة عند سفح التلة فارغة إلاّ من بضع سيارات تتحرك في المكان. صوت أطفال يلعبون تحت الشرفة وصل إليه. فرح ورشا هناك في مكان ما.

قبل أن يلتفت ويعود إلى الداخل، وقعت عيناه على فرح التي جلست على الدرج عند مدخل البناية. كانت تحتضن لعبتها وتشدّها إلى صدرها. فتاة أخرى كانت تقف

أمامها وتضع يديها حول خصرها. كانت تميل برأسها فوق أحد كتفيها فيما وقف الآخرون في حلقة يراقبون الفتاتين. لم يتمكن من سماع الحوار والكلمات التي قيلت، لكنه رأى أخته تتحرك إلى الخلف، ثم إلى الأمام، ثم تصرخ قائلة شيئاً ما. ضحك الآخرون. وقفت رشا وظهرها إلى الحائط، كانت مستاءة وتأكل أظافرها، بدأ الأطفال الأربعة أو الخمسة بالتحرّك والغناء سويا. وصلته كلماتهم واضحة بعد أن صعدت عبر الشرفات الخمسة: فرح لها رائحة البول فرح رائحتها بول.

استشاط غضباً، وشعر بتعاطف شديد وحزن على العذاب التي تتعرّض له أخته، وفي لمح البصر فتح باب الشقة ونزل الدرج مثل ثور هائج، ووصل إلى المكان بعيون تقدح شرراً.

«أنت!» قال مشيراً إلى قائدة الحلقة، «أنت أيتها المزعجة الصغيرة، يا صاحبة الأظافر القذرة التي تصلح لنزرع فيها شجرة زيتون». ثم استدار نحو الثاني وأشار بأصابعه وقال: أنت شعرك مثل عش العصافير، وعلى ما يبدو فأنه مليء بالديدان ووسخ الطيور.

نظر الأولاد إليه بعيون مذهولة وأفواه فاغرة.

«أما أنت»، قال للثالث، «فتبدو وكأنك كنت تتمرّغ في قذارة الحيوانات. أنت مقزز ومقرف ويمكنني شمّ رائحتك من هنا». اغتبط «كريم» من أدائه، وشعر بالغضب ينحسر عنه.

و«ماذا عني؟»، قال الطفل الأصغر وهو يخرج من وسط الحلقة، «ما هي أسوأ صفاتي؟»

«المخاط يغطي أنفك، وعيناك مليئتان بالقذى. أنت مثل ميكي ماوس، دون أسنان أمامية». لم يستطع كريم منع نفسه من الابتسام على تعبير الرضا الذي بان على وجه الصغير

ابتعدت رشا عن الآخرين، وجلست على الدرج بالقرب من فرح. اقتربت فرح منها والتصقت بها. قال كريم: هل تريدين الدخول الآن يا فرح؟ نظرت إلى رشا التي هزّت رأسها بالنفي، ثم إلى الآخرين، ثم إلى «كريم». التقطت أنفاسها ثم قالت: وليد في الحقيقة لا يحمل في رأسه قملا يا «كريم»، فقط لديه سيبان. لم تكن المزحة مضحكة جدا، لكنّ الآخرين ضحكوا لها، ونسي الجميع توترهم وخلافاتهم.

مكتبة الرمحي أحمد

«كما تريدين!»، قال «كريم» وهو يستدير عائداً، وابتسامة شكر واعتزاز تلحق به، حتى وصل الباب الرئيسي للبناية. شعر برضا عالٍ وهو يدخل الشقة، ونظر في ساعته. أيقظ سيرين وأعطاها الدواء، ثم اختار لها فيلماً ثانيا لتجلس وتشاهده.

كانت رؤية فرح بين الأطفال المتنمّرين صاعقة له. رآها وحيدة تجلس هناك لتكون محطّاً لسخريتهم. لم يفكر من قبل في أنها طفل مثل باقي الأطفال. لم يرها يوماً كباقي البشر، كإنسان حقيقيّ. كل ما كان يراه فيها هو الأخت المزعجة. عاد بأفكاره قليلاً إلى الأيام الماضية: فرح لم تعد كالسابق. إنها خائفة معظم الوقت. تبكي بسرعة، ولأتفه الأسباب. تبدو أضعف، وأقّل ثقة بنفسها. تتوتّر عند سماع أي صوت لانفجار أو إطلاق نار، مهما كان بعيداً.

تثاءب «كريم»: الساعة الأخيرة مرّت بطيئة وقاتلة. ليس هناك ما يريد فعله. الشيء الوحيد الذي يحتلّ تفكيره الآن هو ملعب الجندب. ترى ما الذي يفعله الجندب وجوني الآن هناك؟

اتصل جوني به بعد نصف ساعة من عودة لمياء إلى البيت: العلم أصبح أجمل. عثرنا على المزيد من الطلاء، وأضفنا إليه حجارة جديدة، فصار أكبر. يمكن الآن مشاهدته من على بعد أميال.

قال «كريم» بحسد: عظيم.

- الدهان سال في كلّ مكان، شعري الآن صار أخضر، أما الجندب فلا تسأل، صار شكله كأنه قادم من المريخ، هل ستأتي غداً؟

- لا، لا أستطيع، عليّ الاعتناء بأختيّ، فالجيران ما زالوا غائبين، ربما يوم الخميس.

- حسناً، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

«لا يوجد وقت كاف لأي شيء الآن»، قال «كريم» لنفسه. أصبحت الحياة أكثر ضغطاً وأقل مرحاً. المدرسون يكثّفون الحصص، ويزيدون من أعباء الدراسة، في محاولة للتعويض عن أسابيع التوقف حين أغلقت المدرسة، كما أنهم يخشون من عودة الدبابات الإسرائيلية إلى المدينة في أي وقت، وفرض حظر التجوال من جديد، ما سيؤدي إلى توقف الدراسة مرة أخرى.

بذل «كريم» جهداً كبيراً في المدرسة، لكنه رغم ذلك وجد صعوبة في تركيز ذهنه حول الدروس. ظلت الأفكار تسرح به بعيداً نحو ملعب الجندب. كان قد رسم للمكان صورة جميلة في مخيلته، ملعب الكرة بالتأكيد هو محورها تخيل مقاعد المتفرجين، والمنصّة الخاصة بوسائل الإعلام، وغرف تبديل الملابس، ثم هناك عند نهاية الأرض، لم لا يخصص مجمع للأماكن التي يحب ارتيادها، مقهى للانترنت حيث سيلعب كل ألعابه المفضلة دون أن يضطر لدفع مقابل، فالمقهى سيكون لهم. وإلى جانب المقهى يمكن إقامة أكشاك لبيع العصير والساندويتشات، ثم دار سينما صغيرة لا تعرض إلاّ الأفلام المميزة والجيدة.

تختفي الأحلام دائماً بسرعة أكبر من اللازم، وتتطاير كالفقاقيع في الهواء. مقهى انترنت! هل جننت؟ دار للسينما؟ وأكشاك؟ يا لغبائي! المكان لا يتسع لمباراة كرة قدم جيدة. إنها ليست سوى قطعه أرض صغيرة، هذا كل ما في الأمر، أرض صغيرة مغطاة بالركام والقمامة. غالباً ما تنتهي أحلام «كريم» بحركة إيقاظ تعيده إلى واقعه: صفعة على الرأس من الأستاذ محمد، أو سؤال مباشر من أستاذ آخر يقف فوق رأسه ويحرجه أمام الصف. لم تكن هناك فرصة للعودة إلى الملعب، ومواصلة إنجاز شيء ما. ليست وظائف المدرسة وحدها هي العائق، فرغم عودة أم رشا واعتنائها بالبنات من جديد، إلاّ أن والده يكرر طلبه أن يساعده في المحل بعد دوام المدرسة.

خرج حسن العابودي من حالة الإحباط التي مرّ بها، وها هو يعاود نشاطه التجاريّ، ويحاول تحسين محله. أعاد ترتيب نافذة المحل. أحضر الكثير من الكتيبات التجارية، وهو منكبّ على دراستها، في محاولة لاختيار البضائع التي تتماشى مع ذوق سكان رام الله الذين يصعب إرضاؤهم، واحتياجاتهم.

مهمة «كريم» تدور حول تنظيف المكان باستمرار، وإعادة ترتيب الأشياء، ومراقبة مدخل المحل، والترحيب بالزبائن، إذا كان أبوه بعيداً في المخزن.

رغم انشغالاته الكثيرة لم يغب عن «كريم» التنبه إلى أن «جمال» كان متوتراً أكثر من العادة، وكان في معظم الوقت صامتاً. صورة فيوليت مخبأة بعناية بين صفحات كتاب على رفّ مرتفع، بعيداً عن يدي فرح التي تعبث أصابعها بكل ما تلمسه. ما يشغل بال «جمال» شيء آخر. لقد نفد رصيد مكالماته في هاتفه الخلوي، وهو مضطر الآن لاستخدام هاتف المنزل. مكالمات صديقه المقرب باسم كثيرة، وتزداد يوما بعد يوم. اعتاد «جمال» وباسم اللقاء في ساعات المساء عند مركز المدينة. كانا يتسكعان بالقرب من المقاهي ومراكز التسوق. لكن كريم أحس بأن هناك أمرا ما. لا بد أن جمال يخطط لأمر ما.

كان «كريم» عصر يوم الأربعاء في المحل يساعد والده في نقل بعض الصناديق من المخزن إلى المحل. أنهى مهمته وأطلق الوالد سراحه. لمح «جمال» وباسم يسيران بسرعة واضحة على الرصيف المقابل. كانا يزاحمان المارة ويتجاوزان أكشاك البيع التي تنتشر فوق الأرصفة وتحتلها. بدا عليهما التوتر والجدية، أو الحزم والإصرار. ارتفعت درجة التطفل عند «كريم»، وأراد معرفة ما ينويان عليه. قال منادياً والده الذي كان في الخلف: سأذهب لرؤية جوني يا بابا، لن أتأخر عن موعد العودة للبيت، أعدك بذلك. تسلل إلى الشارع محاولاً الاختفاء عن أنظار «جمال»، وبدأ متابعة خطى الشابين. كانت المهمة صعبه في البداية، فالأرصفة مزدحمة جداً، و«كريم» بقامته القصيرة لم يتمكن من متابعة ما يجري أمامه من فوق رؤوس الناس. أصبح الأمر سهلاً عندما تجاوز «جمال» وباسم منطقة وسط المدينة. اعتقد «كريم» أنهما في طريقهما إلى منطقة قلنديا، حيث الحاجز العسكريّ الإسرائيلي الذي يقطع الطريق العام بين رام الله والقدس. بنى الجيش هناك نقاط مراقبة دائمة عزّزها بأكياس رمل وبجدران عالية من الإسمنت غيّرت معالم المنطقة واتجاهات السير، وخلقت أزمة في حركة مرور العربات. يسمح الحاجز أحيانا للناس بالمرور بسهولة، ثم فجأة يقرّرون إغلاق الطريق، فيخلقون أزمة مفاجئة.

فوجئ بأن «جمال» وباسم انحرفا عن الطريق العام وسارا في طريق ينحدر يمينا في اتجاه منطقة سكنية جديدة. أصبحت المتابعة أكثر صعوبة الآن، حيث لا توجد أكشاك في الطريق للاختباء خلفها، كما أن حركة المارة بطيئة جداً لكن لحسن حظه بدا «جمال» وباسم منهمكين فيما ينويان عليه، فرأى «كريم» أن احتمال التفاتهما إلى الخلف ورؤيته ليست واردة.

لدى اقترابهما من نهاية الطريق، سمع «كريم» أصواتا تنادي وترحّب. كان الصوت قادما من الطريق القادم من اليسار. خرج شابان آخران وانضما إليهما. ركز نظره في محاولة للتعرف على القادمين. كان من الصعب تمييزهما، فقد لفّ كل منهما كوفية بيضاء وسوداء حول رأسه، تركها تغطي وجهه دون أن تترك سوى العينين واضحتين.

كان متاكداً تقريبا أن ذلك الشاب القصير يشبه أخا لباسم، أما الطويل الذي يرتدي معطفاً بسحّاب من الأمام فهو على الأغلب طارق، الولد الأكثر هدوءا من بين أصدقاء «جمال». أشار طارق وصديقه إلى الطريق التي أتيا منها، وتحرك الأربعة في ذلك الاتجاه. توقفوا ثانية، بينما كان طارق يشير إلى الكوفية حول عنق «جمال»، فيما وجد «كريم» لنفسه جداراً عند المفترق ليحتمي به ويراقب. رفع كل من «جمال» وباسم كوفيته التي عادة ما يلقي بها على كتفه كالوشاح، ولفّا رأسيهما على طريقة طارق والآخر «كريم» الآن على مسافة قريبة تسمح له بمتابعة الحوار. سأل طارق «جمال»: هل معك « شعبة؟

قال «جمال»: لا

أوشك «كريم» على التدخل ليقول لطارق: «جمال» ذو الاصابع المصنوعة من الزبدة يصوب حجارته بالشعبة؟ كان ألم معدته يزداد حدة، لكنه كان سعيداً بقراره اللحاق بأخيه. «جمال» سيخلق فوضى كبيرة الآن. مشهد لا يرغب «كريم» في تفويته على الإطلاق.

دسّ طارق يده في جيبه وأخرج قطعة قماش طويلة ورفيعة مدّها نحو«جمال». تفحصها «جمال» وشدّها بقوة ليختبر تحمّلها. أخرج باسم شعبة من جيبه وعرضها أمام طارق بزهو. كانت مؤلفة من خيوط مطاطية من تلك التي تصنع منها إطارات العربات.

« ممتاز»، ربت طارق على كتف باسم. أشار إلى «جمال» وانطلق الجميع تحت قيادة طارق. تحرك «كريم» وراءهم، محاولاً طيلة الوقت البحث عن شيء يخفيه عن الأنظار. ظهر الهدف واضحاً: الطريق الجانبي الخالي، الذي يتفرّع من ذلك الطريق المزدحم هناك، عند أسفل الوادي. حاجز إسرائيلي مؤقت أقيم هنا. سيارة جيب عسكرية مصفحة تحمل على ظهرها أضواء صفراء قطعت منتصف الطريق. على مسافة ليست بعيدة وقفت دبابة عند الجانب الآخر من الطريق. في وسط الطريق

وضعت قضبان معدنية تحمل رؤوساً مدببة لمنع أية سيارة من عبور الطريق دون أن يأذنوا لها بذلك. يبدو أن خبر تمركز هذا الحاجز قد انتشر، فالطريق خال تماماً، لا بدّ وأن العربات قبل اقترابها تلمح الحاجز فتستدير عائدة بحثاً عن طريق أكثر أمانا حتى وإن كان أبعد. سيطر على كريم شعور بالخوف والكراهية عند رؤية العدو مباشرة وبوضوح، راوده إحساس بأن الأربعة هناك يشاركونه تلك المشاعر. رآهم يجمعون الحجارة وهم في طريقهم. كانوا ينحنون ويختارون القطع الصغيرة من الحجارة والإسمنت المكسور وقطع البلاط التي خلّفتها الدبابات وراءها عندما عبرت المكان. كان طارق يشرف على تحرّكات المجموعة بطريقة قيادية واضحة، وبينما حمل كل منهم شعبته المملوءة بالحجارة، وصلت إلى مسامع «كريم» عبارة «فلسطين حرة»، خرجت من فم طارق الذي انطلق وتقدم إلى الأمام ملوحا بشعبته عاليا فوق رأسه. أطلق شعبته. طار الحجر وحطّ مباشرة على جانب سيارة الجيب، ثم عاد وسقط على الأرض. وكأنه أصاب لتوه عشاً للدبابير: الجنود الثلاثة الذين كانوا يتسلون بالسخرية من فلاح مارّ من المنطقة في شاحنته المملوءة بالخضار، فوجئوا بالهجوم. انطلق اثنان منهم نحو الدبابة، وشرعا في تحريك مدفعها الضخم تجاه الشبان.

كان باسم وأخوه قد أفرغا ما في شعبهم من حجارة، أصاب أحدها الأرض مباشرة قرب السيارة العسكرية. أحد حجارة أخيه «جمال» حالفها الحظ ومرت بالقرب من خوذة جنديّ كان منحنيا فوق الجيب. اختفى الجندي خلف السيارة محاولاً الاحتماء بها، ورفع هو ورفيقه بنادقهما فوق ظهر السيارة، محاولين تصويبهما بدقة في اتجاه الأولاد. تناوبت مشاعر الرعب والإثارة في صدر «كريم» الذي راقب «جمال» بإعجاب. قبل وقت قصير، كان «كريم» يتطلع إلى الفوضى التي سيتسبب بها «جمال»، لكنه الآن يتمنّى من كل قلبه لو أن واحداً من حجارة «جمال» يصيب ذلك الجندي بين عينيه، ويلقيه على الأرض.

«هيا، ركز على هدفك أيها الغبي الكبير!» قال بصوت عالٍ بينما كان «جمال» يلوّح بشعبته محاولاً تقليد طارق. بدت الضربة جيدة لأول وهلة، ثم اتضح أن «جمال» أطلق يده مبكراً فسقط الحجر قريباً واصطدم بجدار ثم وقع على الأرض دون أن يؤذي أحداً. واصل الثلاثة الآخرون إطلاق حجارتهم المصحوبة بشعارات غاضبة تقول: «الموت لإسرائيل»، «فلسطين حرة»، «الله اكبر». ألقى «جمال» بشعبته بعيداً بعد أن نظر إليها بازدراء، وبدأ بالتقاط الحجارة وإلقائها بأصابعه المجردة. لاحظ «كريم» أنه كان يحرّك أصابعه هو أيضاً، وكأنه يحمل الحجارة معهم. كان يكبح جماح قدميه

اللتين أرادتا الانطلاق مع الآخرين، لكنه وقف في مكانه غير قادر على اتخاذ قرار في هذا الشأن. كان ردّ فعل طارق و«جمال» أكثر من خشيته من الجنود. «سيثورون في وجهي إذا علموا أنني لحقت بهم، و«جمال» لن يتوقف عن إزعاجي». كان الجنود يصرخون بعبارات باللغة العبرية، ثم توقفوا فجأة وهدأ الجو.

انطلق حجر من شعبة طارق وأصاب الجيب العسكريّ، ثم سقط بمحاذاة العربة. كان الحجر بمثابة إشارة البدء لهم. شهروا بنادقهم وانطلقت رصاصتان سريعتان نحو الشبان. ارتعد كريم من صوت الاطلاق وأخفى نفسه. باسم و«جمال» انبطحا أيضاً، لكن طارق الذي لم يستشعر جدية الموقف ظلّ يطلق حجارته، يلوح شعبته عالياً ثم يطلق ما فيها. انطلق حجر آخر ليقع فوق الشبكة التي غطت نافذة العربة، لم يحدث أي أذى. انطلقت رصاصة الجندي في اللحظة نفسها. انطلق الصوت الذي كان «كريم» يتوقع سماعه: صوت صفارات آتية من شارع جانبي. لا بدّ وأن الجندي في الدبابة قد اتصل وطلب قوات مساندة. الآن ستتمّ محاصرة الشباب إذا لم ينتبهوا جيداً. سينتهي بهم المطاف ربما بكسر رجل أحدهم أو تهشيم رأسه. وربما إذا لم يحالفهم الحظ سينتهون في سجن إسرائيلي.

«جمال»، باسم، إنهم قادمون. أسرعوا، من هنا من الخلف»! صرخ «كريم» ذلك بصوت عالٍ، بعد أن انطلق من مخبئه متجهاً نحو أخيه: عليك الفرار بسرعة، الآن!

كان «جمال» يهمّ بالتقاط حجر آخر. لم يرَ «كريم» سوى عينيه من بين الكوفية التي لفت رأسه. كانتا حمراوين من الغضب، لكن بعض الحذر قفز فيهما الآن.

صرخ «جمال» وهو يبعد «كريم» جانباً: باسم، هيا بنا، إنهم قادمون، طارق، الجميع، هيا بنا.

أعتقد كريم أنهم سيعودون من حيث أتوا، لكن الرصاص القادم من خلف سيارة الجيب أرغمهم على الاحتماء.، لحقوا بطارق، وتسلقوا جداراً، ثم ألقوا بأنفسهم خلفه. هبطوا أمام ساحة مبنى سكني كبير. عبروا موقف السيارات وخرجوا من الناحية الأخرى. تسلقوا التلة من جديد، مرة بالالتفاف خلف مبانٍ، ومرة بالدخول من أبواب حدائق، ومرة عبر حقول الزيتون. في النهاية وصلوا. وجدوا أنفسهم في شارع مزدحم في أعلى التلة، وأيقنوا أنهم باتوا في أمان.

في آخر مرحلة من مراحل التسابق مع الزمن، وقع الحادث. كان جمال منهمكاً بنزع

كوفيته، وللحظة لم ينتبه أمامه فأرتطم رأسه بحافة مكيّف هواء خارج من نافذة أحد المحلات التجارية. كانت الحافة حادة، وانبثق الدم من رأس جمال، وسال فوق وجهه.

بقدر حرصه على البقاء بعيداً عن قصف الجنود، ظلّ «كريم» حريصاً على البقاء بعيداً عن «جمال»، لكن مع رؤيته يصطدم بحافة المكيف، والدم يندفع من رأسه، طار كالسهم، وأقترب منه: هل أنت بخير؟

نظر إليه «جمال» بغضب: طبعاً، أنا بخير، ماذا تعتقد؟ كسر رأسي هو إحدى هواياتي المفضلة.

مع استمرار نزف رأسه، بدا شاحباً، أغلق عينيه لوهلة، وكأنه على وشك الإغماء. تقدم منه كريم لكي يسنده، فوضع جمال ذراعه مرغما على كتف كريم لكي يوازن نفسه.

«هل كنت هناك منذ فترة طويلة؟» سأله كريم بسذاجة: «هل ألحقتم بهم أية إصابات؟ لقد سمعتهم يصرخون ويطلقون النار، هل كان الرصاص مطاطياً أم حقيقياً»؟

فتح «جمال» عينيه ونظر إلى «كريم» بريبة. دسّ «كريم» يده في جيبه فوجد منديلا ورقياً مغبراً، قدّمه له، فوضعه الأخير تحت جرحه لمنع سقوط الدم فوق عينيه، ثم قال جمال: «أنت تعلم بالضبط كم مكثنا هناك، لقد تبعتنا أيها الخبيث» ارتدى وجه «كريم» ملامح البراءة المطعونة أو المجروحة: «ماذا؟ تبعتكم؟ لا، ولماذا أفعل ذلك؟ كنت أزور بيت عمي محمد عندما سمعت صوت إطلاق النار فسارعت إلى المكان لمعرفة ما يجري»

رغم أن جرح رأس «جمال» لم يكن عميقاً، فالدم كان لا يزال يندفع منه. ضغط على الجرح بطرف الكوفيّة، الأمر الذي جعله يلطخ جبينه بالدم. باسم، الذي كان قد وصل إلى الطريق العام، عاد مسرعاً نحوه: «جمال»! ما الذي حصل؟ هل أصابوك؟ هل أنت بخير؟

قال «جمال»: جرح بسيط. لقد.

قبل أن يكمل كلمته، كانت أصوات صرخات ناعمة قد انطلقت قادمة من نهاية الطريق في الأعلى. نظروا في اتجاه الصوت ليروا مجموعة من الفتيات تراقبهم برعب وقلق. كانت فيوليت معهم. جرت بسرعة وسبقت بقية الفتيات وخلال ثوانٍ كانت

والأخريات تتحلّقن حول «جمال» وكأنهن مجموعة من الفراشات الهائجة. قالت إحداهن لباسم: لقد رأينا أخاك هناك. قال لنا إن اشتباكات وقعت في منطقة ما. لقد سمعنا صوت الرصاص، لكنه لم يقل لنا إن أحداً أصيب. يا إلهي، لا بد أنهم كانوا يطلقون الرصاص الحي في كل اتجاه هل جرحك عميق»؟

أزاحت فيوليت الكوفية ونزعتها من بين أصابع «جمال» المرتجفة، خلعت وشاحها المزين بالأزهار وبدأت بتجفيف جرح رأسه بلطف. أغلق «جمال» عينيه مجدّداً، لكن وجهه هذه المرة لم يكن شاحباً. أحمرت وجنتاه، وتدفق الدم فيهما من جديد.

قالت فيوليت بشغف مثيرة هلع الفتيات الأخريات: لو انحرفت الإصابة سنتمترا واحدا إلى الأسفل، لكانت اخترقت دماغك. كنت ستصبح في عداد الشهداء.

التقت عينا «جمال» بعيني «كريم» الذي كان يخفي ابتسامة ساخرة: هل تشعر بالإعياء؟ ألا ينبغي أن تذهب إلى المستشفى؟ جاء صوت فيوليت مفعماً بالتعاطف.

نفض «جمال» كفيه بشجاعة: المسألة بسيطة، أنا بخير، هذا ليس سوى جرح سطحيّ.

قال «كريم» وهو يستعيد قدرته على الكلام: وماذا عن الصدمة والدم الذي فقدته؟

أمسك «جمال» بذراعه وشدّ عليها بقسوة، محاولاً إبلاغه رسالة ما.

أنا بخير، شكراً. لطف كبير منك أن.

شعر «كريم» بالغثيان. حاول سحب ذراعه، لكن قبضة «جمال» ازدادت قوة.

قال «جمال» بتردّد: علينا الذهاب. ستعمّ الفوضى في البيت إذا تأخرنا.

قالت فيوليت: يا إلهي، نعم سوف يجن جنونهم عندما يرونك مصاباً هكذا ويعلمون أنك تعرضت لإطلاق نار.

قال «جمال» محاولا الظهور بمظهر النبيل: نعم، لذلك لن أقول لهم. سأكتفي بالقول أنني اصطدمت بمكيف هواء أو أي شيء آخر.

أصدر «كريم» صوتاً وكأنّه على وشك الاختناق. لم تلحظه فيوليت. كانت تمسح جبين «جمال» للمرة الأخيرة بوشاحها: توقف النزيف تقريباً الآن. اعتن به جيداً يا «كريم»، ودعه يجلس إذا شعرت بأنه منهك أو سيفقد وعيه.

كان «كريم» قد بدأ بشد «جمال» وسحبه بعيداً.

« أنت! أنت!» قال «كريم» بعد أن أصبحا بعيدين عن الأنظار. كان «جمال» يعيش حلماً جميلاً، لم يبد عليه أنه يسمع صوت «كريم»:

«جمال»، أنت ممثل بارع. أنت لست سوى محتال محترف.

صوّب «جمال» نظره نحو «كريم»: مكتبة الرمحي أحمد

هل رأيتها؟ هل رأيت نظراتها إليّ؟ لقد مسحت دمي بوشاحها! ماذا؟ لماذا تنظر إلي هكذا؟

أنت تثير اشمئزازي، تركتها تعتقد أنك قد أصبت بعيار ناري!

همهم «جمال»: ماذا كان باستطاعتي أن أفعل؟ أنا لم أقل شيئاً، هي التي افترضت ذلك، وأنا لم أكذب.

لكن! لا ، كان بإمكانك! أقصد.

وهربت الكلمات من رأس «كريم».

استيقظ «جمال» فجأة وقال: كنت على وشك البوح، أليس كذلك؟ لا، لم أنو ذلك، هل تراني غبياً؟

نعم، لقد رأيتك، كنت على وشك قول شيء.

لكني لم أفعل، ولن أفعل، لذا عليك الكفّ عن إزعاجي.

يفضل أن لا تفعل إذا كنت تريد مصلحتك، ويفضل أن لا تبوح بالأمر لأحد، ولا حتى جوني.

كانت يده » تمتد الى جيب سترته الداخلية، وهو يضيف: وإلاّ سآخذ هذه وأبيعها من جديد لأول شخص تقع عليه عيناي.

وضع في يد «كريم» علبة صغيرة مربعة ومسطحة، فشعّ وجهه فرحا:

لينمان! من أين لك النقود لشرائها؟ هل بعت غيتارك؟

شعر «جمال» بالحرج: لا، هل أنت مصر على معرفة مصدر المال؟ حسناً، لقد أعدت العقد إلى المتجر الذي اشتريته منه.

شعر «كريم» بدفء قلب «جمال» وحرارته، وأكبر فيه هذه التضحية.

على أية حال، ومما رأيته اليوم، لا يبدو أنك كنت أصلاً بحاجة إلى العقد أو سواه. كان واضحا أنها في غاية الإعجاب. لقد حققت نجاحاً، وكان هذا واضحاً.

أعاد «جمال» ترتيب كوفيته حول عنقه وتعمّد أن تظلّ آثار الدم واضحة للعيان. بدا مستمتعاً بنظرات المارة التي حملت تساؤلات وافتراضات.

في الحقيقة، كنت أنوي إعادة العقد في كافة الأحوال، فباسم كان قد سأل ابنة عمه عن رأيها في العقد فقالت له إنه عقد تقليدي ولا يتماشى مع صيحات اليوم، لذا قررت إعادته.

دسّ «كريم» الصندوق الصغير العزيز في جيبه، وقال وهو يحاول فهم ما يدور في رأس أخيه: هكذا إذن! لكن لا تحاول أخذ اللعبة ثانية، اتفقنا؟ أنا بحاجة إلى هذه اللعبة، أنا بحاجة ماسة إليها، وإذا حصل شيء لها بعد اليوم، فأنت تعلم ما الذي يمكن أن أفعله!

وصلت رسالتك ولا داعي للحديث في الموضوع.

لفّ «جمال» يده بحنان حول كتف «كريم»، وسارا معا نحو البيت.

انتشرت أخبار الاشتباكات الأخيرة مع الإسرائيليين، وإصابة «جمال» البطولية، بسرعة انتشار النار في الهشيم في أوساط الشبان في رام الله. ظلّ اللاصق الطبّي يغطي جبين «جمال» لعدة أيام، وظل الآخرون يتعاملون معه على أنه بطل، واحترم الجميع تواضعه ونكران ذاته، وإصراره أمام الجميع- باستثناء مجموعة صغيرة مختارة- على أنه لم يتعرض أبداً لإطلاق نار. تقبل الآخرون روايته، هزّوا رؤوسهم، وهمهموا بين بعضهم: إنه يحاول تجنيب أمه المسكينة تحمل المزيد من القلق والخوف.

فرح كريم باستعادته لعبته الغالية، لكنه لم يجد الوقت ليلعب بها. كان برنامجه حافلا بطريقه لم يعهدْها أبداً في حياته. إنه يتنقل بسرعة بين المدرسة والمتجر والاجتماعات بسرية مع أصدقائه، وفي أفضل الأحوال يستطيع تخيل المشهد المثالي الذي يحلم به لمستقبل ملعب الجندب، وفي أسوأ الأحوال لا يرى في رأسه سوى قطعة أرض مليئة بالتراب والغبار وأكوام المخلفات، ما يدفعه إلى الاكتئاب والحزن.

أصبحت لقاءات الأصدقاء الآن تسير وفق نمط منتظم: يصلون إلى ملعب الجندب تقريباً في وقت واحد عند ساعات العصر بعد أن يكون جوني قد أنهى دراسته، ويكون «كريم» الذي يغادر المدرسة في وقت أبكر قد مرّ بمتجر والده قليلاً، كما يكون الجندب قد أنهى ما عليه من واجبات تجاه أمه. يبدو أنه توقف الآن عن محاولة بيع أجزاء من القرآن في المدينة. لم تكن العلمية مربحة، ولم تعد تستحق العناء.

عندما يصلون إلى المكان، يسارعون إلى السيارة، ويتفحصون القطط هناك. لا ينسى جوني أبداً إحضار طعام لها، وكان «كريم» يفعل ذلك أحياناً. ثم يخرجون ملابسهم المخبأة هناك ويرتدونها، يركلون الكرة لبعض الوقت، ثم ينتقلون للمهمة التالية التي يحدودنها لأنفسهم.

قال«كريم» لرفيقيه، وهم يجلسون لأخذ قسط من الراحة، بعد جولة حماسية ساخنة في كرة القدم: لو نتمكن فقط من إبعاد تلك الصخرة الكبيرة من طريقنا.

قال جوني وهو يلقي بحجر صغير في اتجاه الصخرة التي كانت تتربع في وسط الملعب بشكل مزعج، فارتدّ الحجر مبتعداً عن الصخرة التي بدت وكأنها تسخر منهم: ذلك الشيء؟ هل تمزح؟ لن نتمكن حتى من تحريكها من مكانها. نحن عالقون معها.

اختفى داخل السيارة، ثم عاد حاملاً زجاجة عصير برتقال فارغة، واحدة من

الزجاجات القليلة التي أحضرها من دكان والده بعد أن اقترح «كريم» ذلك مرة. فتح الزجاجة ومرّرها بين أصدقائه الذين شربوا منها بالدور. مسح الجندب فمه. اقترب من الصخرة وانحنى فوقها ثم دفعها بكل قوته. عاد إلى مكانه دون أن يتفوه بكلمة. أخذ الزجاجة من يد جوني وشرب منها.

تململ «كريم» منزعجاً من الهزيمة. نظر إلى الصخرة، وضاقت حدقتا عينيه. لقد حرك الناس في الماضي أجساماً أكبر من هذه بكثير، المصريون القدماء فعلوا ذلك، لكن القوة الجسدية وحدها لم تكن كافية، لا بد من إعمال العقل هنا. اتجه نحو الصخرة ودرسها بعناية من جميع الجوانب. كانت غارزة في التراب الصلب المتحجر. ركل الأرض بقدمه عند قاعدة الصخرة فتطاير الغبار والتراب، لم يكن التراب قاسياً حول القاعدة. ملأ الأثير فجأة صوت صافرة قوية بدت مهيمنة على المدينة للحظات. سكت الثلاثة وتلفتوا حولهم. قال جوني ولكن ليس بثقة تامة: إنها واحدة من سيارات الإسعاف الفلسطينية.

انتظروا قليلاً علهم يسمعون أصواتاً أخرى، إطلاق نار، أو أصوات صراخ، أو صوت حركة دبابات أو عربات عسكرية. ظل صوت سيارة الإسعاف وحده مهيمناً، لكنه بدأ بالابتعاد. مهما كان الأمر فقد أصبح بعيداً الآن.

بدون أي تعليق عاد «كريم» لتفحص صخرته. اتجه نحو الركام وعاد ومعه قطعة حادة من بلاطة مكسورة، انحنى إلى الأرض وبدأ بتفتيت التراب حول قاعدة الصخرة. تمت العملية بسهولة كبيرة. لم يكن قد توقع ذلك. نقل التراب الناجم عن العملية بيديه بعيداً عن القاعدة. كان زميلاه يلهوان معاً. قال جوني للجندب: لا، أنت تقف بطريقة خطأ. الكاراتيه فن مدروس، عليك تثبيت قدميك هكذا. ثم تتوازن.

توقف كريم عن الإصغاء لهما ووضع كل تركيزه على المهمة التي أمامه. لقد أزاح حتى الآن كمية لا بأس بها من التراب. نهض واقفاً. اختار زاوية مناسبة بعناية، وضع يديه فوق الصخرة ودفع إلى الأمام، شعر بالصخرة تتحرك قليلاً.

- حسناً، أنتما! إنها تتحرك! تعالا وساعداني! هيا.

انضم جوني والجندب إليه. انحنوا فوق الصخرة، ثم حبسوا أنفاسهم ودفعوا سوياً. تحركت الصخرة حركة صغيرة لا تكاد ترى. قال «كريم» بحماسة: هيا نحاول من جديد!

حاولوا من جديد. شعر «كريم» بالدم يتدفق إلى رأسه، أوتار كتفه مشدودة وترتجف. الصخرة لا تزال في مكانها. قال جوني وهو يرفع قامته وينفض التراب عن يديه: هذا غير مجد.

قال «كريم» بإصرار شديد: بلى، يجب أن ننجح.

صوب الجندب نظرة نحو الطريق. كانت فترة الدراسة المسائية قد انتهت للتو، وخرج الطلاب من مدرسة المخيم، سبعة أو ثمانية أولاد كانوا يسيرون هناك. قال الجندب: أنا أعرف هؤلاء الأولاد.

نادى بأعلى صوته: مرحباً محمد. علي. أنتم أيها الشباب، تعالوا إلى هنا!

اقترب الأولاد مسرعين. قال أحدهم: من صنع هذا العلم؟ إنه رائع!

قال الثلاثة في آن واحد: نحن صنعناه.

سأل آخر وماذا تفعلون الآن؟

- نحرك هذه الصخرة.

- لماذا؟

- نحاول جعل المكان ملعبا لكرة القدم، والصخرة تقف في طريقنا.

قال الولد بإعجاب: فكرة رائعة!

ألقى بحقيبته على الأرض، وثبّت كتفه فوق الصخرة. انضم الآخرون إليه وتدافعوا وتزاحموا ليتمكن كل منهم من الوصول إلى الصخرة ودفعها. صبيّ طويل القامة عريض الكتفين دسّ جسمه واحتل مكان «كريم». تراجع «كريم». عضّ على شفتيه. لم يكن متأكداً من صواب هذه الخطوة. ملعب الجندب كان مكانهم الخاص، له ولجوني والجندب. هؤلاء الأولاد لا يعرفهم، وهم ليسوا أصدقاءه، لا يريد لغرباء أن يقتحموا هذا المكان.

رأى الصخرة تتحرّك بعيدا، تحركت ببطء، لكنها بدأت «نعم. هذا عظيم»، صرخ كريم«: واحد، اثنان، ثلاثة. هيا!»

في غمرة الانهماك وقعت عيناه على شخص يمر في الطريق القريب من المكان، وعندما انطلق صوته بالعدّ، توقف ذلك الشخص والتفت نحوهم. لم يعره «كريم»

اهتماماً. كان منهمكا في العملية متحمّساً لحركة الصخرة: جيد، إنها تتحرك، دفعة واحدة أخرى، هيا!

كالشجرة التي خلعت من جذورها، بدأت الصخرة الآن بالتدحرج، ثم عادت وتوقفت. الرجل الذي كان على الطريق يقترب الآن منهم، و«كريم» مصّر على تجاهله. «واصلوا الدفع، هيا!» قال «كريم» وهو يرقص فرحاً فوق الفراغ الذي خلفته الصخرة، «واصلوا الدفع، أبعدوها حتى تختفي تماماً عن الأنظار. هيا، دحرجوها، أكثر، أكثر. جيد جداً».

واصل الأولاد عملهم بجد ونشاط. وأخيراً، وصلت الصخرة إلى جانب أكوام الركام، حيث أراد لها «كريم» أن تستقر. جاءه صوت مألوف من خلفه: «كريم»، ما الذي تفعله هنا بحق السماء؟

التفت ليرى «جمال» ينظر إليه بدهشة وذهول. قال وفرحة الانتصار تغمره، ولم يتنبه إلى أن سرّه قد كشف: نبني ملعبا لكرة القدم. لو رأيت هذا المكان من قبل، لقد أزحنا أكواما كبيرة جداً من القمامة، سيصبح هذا المكان عظيما، لقد صنعنا علماً.

- أنتم صنعتم كل هذا أيها الأولاد؟

- نعم، أنا وجوني والجندب، هذا هو الجندب هناك.

مسح «جمال» المكان بعينيه، وحملت نظراته احتراماً لم يتعمّده.

- حسنا. لا بد من القول إنني معجب بهذا، إذن هذا ما كان يشغلك طوال الوقت؟

- نعم، لا يمكنك أن تتخيل كم عملنا حتى صار المكان هكذا، أترى كل تلك الحجارة هنا؟ نحن.

هزّ «جمال» رأسه: يمكنك محادثتي بكل هذا فيما بعد، أما الآن فعلينا الذهاب إلى البيت، ألم تسمع آخر الأخبار، لقد وقعت عملية جديدة، والإسرائيليون.

كان أحد الأولاد يسأل: هل معكم كرة؟

رغم اهتمامه بتحذيرات «جمال» ونبرة صوته الجادّة، لم يستطع «كريم» مقاومة إغواء النداء للبدء بلعبة كرة قدم.

قال وهو يشير إلى المنطقة حوله، ثم عاد ونظر في وجه «جمال» محاولاً قراءة مدى جدية وإلحاح الموقف: نعم الكرة هناك، في مكان ما.

قال «جمال» بحزم: أمامك نصف ساعة فقط. أعتقد أن الإسرائيليين سيفرضون حظر التجوال من جديد. هكذا يقول الجميع. الدبابات بدأت تعود إلى المدينة. سيحتاجون بعض الوقت للوصول إلى هنا، ابق متيقظاً وتابع حركاتهم ولا تجازف، أنا لست على استعداد للتورّط مع ماما إذا ما علقت في الخارج بعد فرض الحظر.

هزّ «كريم» رأسه موافقا، ثمّ قال محاولاً لفت انتباه بقية الأولاد: هل سمعتم هذا؟ الدبابات في طريقها إلى المدينة من جديد.

قال أحدهم: لكنهم لم يصلوا بعد، هم لا يدخلون المدينة عادة إلا بعد الساعة السادسة. أين الكرة؟

قال جوني وهو يخرج الكرة من المكان الذي استقرّت فيه: ها هي.

قال صبيّ يدعى لطيف وهو يشير إلى الجدار عند نهاية قطعة الأرض: أنظر، يوجد مرمى للكرة هناك.

كان «كريم» قد رسم على الجدار خطوطاً أصبحت مرمى الكرة ونقطة التهديف. خلال ثوان قليلة، كان الأولاد قد جعلوا من حقائبهم المدرسية حدوداً للهدف الثاني في الملعب. قسموا أنفسهم إلى مجموعتين وبدأت الاستعدادات لمباراة ساخنة بين الفريقين. اندفع «كريم» بين الجندب وأحد الصبية الجدد، أصاب الكرة بقدمه وبدأ دحرجتها عبر الملعب. سمع صوت «جمال»من جديد: «كريم»! لا تطل البقاء هنا، نصف ساعة فقط، لا أكثر، لن أستطيع البقاء والانتظار، سأذهب للقاء باسم.

طارت كلّ التحذيرات من رأس كريم بعد أن انطلقت المباراة واشتدت المواجهة. بدأ أحد الأولاد مزاحمة «كريم». كان يناور بطريقة جيدة، ويحاول سحب الكرة من تحت قدميه. كان التحدي حقيقياً. شعر «كريم» باستعادة مهاراته وهو يواجه الخصم. يركز الآن فقط على إبقاء الكرة معه. استخدم كل ما عرفه من حركات وركلات أمامية وجانبية لتحقيق هذا الهدف.

أصبح مرمى الكرة أمامه الآن، والخطوط على الجدار تبدو واضحة، لكنّ الصبي حارس المرمى كان نصف منحن، ويمدّ ذراعيه إلى الجوانب ليعرقل وصوله. ظن «كريم» أنه تمكن من قراءة ما يجول في رأسه. كلما قفز الصبي يمينا كان «كريم» يتحرّك

إلى اليسار، حتى تمكن من ركل الكرة أخيرا داخل زاوية مرمى الهدف.

ازدادت اللعبة احتداما وحرارة، فمنافس «كريم» جيد، وهو يجري خلف الكرة بشغف، من أول الملعب إلى آخره. كان جوني والجندب له بالمرصاد، ولوهلة تسمر «كريم» في مكانه وكاد يشعر بالاختناق من شدة الانفعال والسعادة معا. هاهم يتوصلون أخيرا إلى شيء حقيقي. لقد صنعوا مكانا جيدا من مجمع القمامة. ربما لن يكون هناك ملعب احتراف، ولا كاميرات ولا صحفيون، لكن كلّ هذه الأشياء يمكن أن تنتظر. الأهم هو هذا المكان، هذه المساحة التي صنعوها بأنفسهم. لقد خلقوا شيئا جديدا اليوم، وهؤلاء الأولاد جيدون. قدومهم كان مفيدا دون شك. يمكن منذ الآن أن تعقد مباريات كرة حقيقية، مباريات بفرق ولاعبين. الأهم من ذلك أن «جمال» كان هنا وبارك الخطوة، لا بل عبّر عن إعجابه بهم. أحس كريم بأن حياته التي كانت موزّعة ومنقسمة أصبحت الآن متكاملة.

الأهم من كل هذا هو الكرة، وما تمّ هنا اليوم. هذا التجانس والتناغم بين عقله وقدميه وعينيه، ذلك السحر والبراعة في كل حركة، تلك القوه والمهارة التي انبعثت فيه.

أوشك على العودة إلى الانهماك بالمباراة عندما سمع صوتا قريبا، صوت آليات ثقيلة: إنها دبابات أو ربما جرّافات أو كلاهما، تسير على الطريق المقابل: انتبهوا! إنهم قادمون، إنهم هنا.

«ممنوع التجوال»، قال الصوت القادم من مكبرات الصوت.

-٢٠-

رؤية الدبابات الثلاث، وسماع الضجيج القادم منها، جعل ضربات قلب «كريم» تتسارع. تيقّظت حواسه فجأة، ووقف شعر رأسه فزعاً. انطلق الأولاد في كلّ مكان، وتسلقوا أكوام الركام ليختفوا عند الطرف المقابل. قال جوني: هيا! أسرع.

استدار «كريم» ليودع الجندب. توقف مرتعبا. رأى الجندب يسير مسرعاً بعكس اتجاه مسيرة بقية الأولاد. إنه يسير مباشرة نحو الدبابة الأولى. توقف «كريم» في مكانه: جندب، هل أنت مجنون؟ توقف.

ثم لمح من بعيد رجلاً مسنا يجرّ عربة محملة بالخضار ويناور مع عجلاتها ليبتعد بها

عن طريق الدبابات. انقلبت العربة، وتناثرت بعض حمولته على الأرض، فانطلق وراءها يحاول جمع ما أمكنه من حبات البندورة والباذنجان والفلفل التي انتشرت في المكان. رفع الرجل قامته! إنه جدّ الجندب. سمع صوت الجندب عالياً: اتركها مكانها يا جدّي! ابتعد عن المكان.

تردد الرجل قليلاً، ثم بدأت الدبابة التي في المقدمة تبطئ من سيرها، بينما تحرك الأنبوب الكبير على ظهرها وأصبحت فوهته في مواجهة الرجل. انطلق الرجل محاولا الابتعاد، تلتفّ أطراف ردائه الطويل حول أقدامه.

انطلق «كريم» نحو الركام، تسلّق بسرعة، وشعر بقشعريرة في ظهره لمجرد التفكير بأن بنادق الجنود قد تكون مصوبة نحوه. ألقى نظرة أخيرة قبل أن يتعثر بحجر تدحرج من كتلة من الرّكام والأحجار ووقع بكل ثقله. شعر بألم حاد في كاحل قدمه فسقط جاعلا منها أسوأ حاول الوقوف ولم ينجح، كما لم يتمكن من الزحف. أصوات عالية تنطلق من جهة الدبابات. لم يستطع فهم ما كانوا يردّدونه بالعبرية. ترك جسمه يتدحرج في اتجاه حفرة، جارحا كف يده اليمنى. توقفت الدبابات.

«لقد رأوني، إنهم قادمون نحوي»، فكر «كريم». جف حلقه من الذعر. نظر إلى الأعلى. كانت الحفرة أعمق بكثير مما توقع. إنه بعيد عن أنظار الجنود. من هنا لا يستطيع رؤية شيء سوى السماء وأكوام المخلّفات، لكن الأصوات تزداد حدة. تجاهل الدم على يده اليمنى. أجلس نفسه بحذر شديد، وبدأ ينظر من خلال شق بين برميلين صدئين. رأى الجندب واقفاً هناك بقامته النحيلة كعفريت جامح. كان يتراقص أمام الدبابة الأولى كالمسكون. يتحرك كالزئبق. كان تجسيدا للمقاومة. انحنى على الأرض بطريقة غريبة، بحرص وهدوء، والتقط شيئا. ماذا يحمل في يده؟ ضاقت حدقتا «كريم» وهو يحاول تمييز ذلك الشيء بلون بنفسجي! «يا إلهي، باذنجانة»! قال متمتماً، «وما حاجته إليها الآن بحقّ السماء»؟ رفع الجندب الباذنجانة بتباهٍ حذر، وبحركة تحدٍّ واضحة، قرّبها من فمه وعضّ على رأسها الأخضر. بدت الحركة تماما وكأنها محاولة لسحب دبوس قنبلة يدوية، ثم صوّب الباذنجانة وألقاها في اتجاه الدبابة.

الشبح الرمادي بلباسه الحديدي وخوذته الهائلة، الذي كان يتابع من خلال منظار رشاشه الولد الذي يرقص أمامه مثل الإله عطارد، محاولاً تركيز فوهة الرشاش عليه، تابع انطلاقة الباذنجانة القادمة في اتجاهه. أطلق تحذيرا للآخرين، واحتمى بجسم

الدبابة منبطحا على الأرض. هبطت الباذنجانة فوق الجسم الحديديّ، وانشطرت إلى أشلاء.

كانت قبضتا «كريم» مشدودتين من التوتر، لكن كان قلبه يرقص من الفرح. قال هامسا: عظيم، أنت غير معقول! لكن عليك الإسراع بعيدا الآن!

بدلاً من الابتعاد، جرى الجندب من جديد في اتجاه الدبابة. راقبه «كريم» بفزع، وكاد قلبه يتوقف عن الخفقان. قفز الجندب بحركات بهلوانية فوق مدفع الدبابة، وبدأ يتأرجح عليه وكأنه في الملعب يتأرجح فوق قضيب. بدت تلك اللحظة وكأنها زمن طويل. بدا الجندب أمام «كريم» كتمثال منيع محاط بالعزّة والنصر والقوة. لكن إلى متى سيظل الحظ حليفا له؟

أخذ الجنود يخرجون من مخابئهم، ويخرجون رؤوسهم من فتحة الدبابة كالأرانب، كانوا يصرخون على بعضهم ويصوبون بنادقهم. لم يستطع كريم النظر. أغلق عينيه بقوة، وأمسك برأسه. بدأ صوت إطلاق النار. اعتقد لوهلة أنه سيفتح عينيه ويرى الجندب ملقى على الرصيف بلا حراك. فتح عينيه، فرأى من بعيد قامة صديقه الرشيقة وهو يسرع ويغوص ويقفز راكضا في اتجاه شارع فرعي مبتعدا عن الموقع. سلك طريقا فرعية تقود إلى المخيم، لا يمكن اختراقها كانت النيران تطير في أثره، أصابت حجارة وغاصت في الجدران. كان الجندب يمسك كوع يده اليمنى بيده اليسرى، ثم اختفى. لم يعد يراه. إنه في أمان وسط المخيم وقلبه الحصين.

تنفس «كريم» الصعداء. جسمه لا يزال يرتجف، والعرق يتصبّب منه. خرج فريق من الجنود من قلب الدبابات، وانتظموا خلف جرّافة ضخمة يتناقشون. عادوا وتفرّقوا مجددا، وصعد كل منهم إلى دبابته. بدأت الدبابات تستدير في اتجاه المخيم، وفوهاتها مصوبة إلى بناياته المتراصة. سيذهبون إلى المخيم ويدمّرونه بيتا بيتا حتى يعثروا عليه. الشعور العظيم الذي تملكه وهو يراقب الجندب وتحدياته اختفى فجأة.

يشعر الآن بأنه ضعيف، وبالخزي أيضا. لماذا لم يكن هو هناك مستعدّا للدفاع عن فلسطين؟ لماذا ترك الجندب وحده في مواجهتهم مسلّحا بلا شيء سوى باذنجانة! لماذا لم يتمكّن من الرقص فوق فوهة مدفع الدبابة؟ لماذا يستلقي هنا بينما يستعدّون لجرف المخيم وتدميره؟

تحرّكت الدبابات من جديد على غير توقع والتفّت عائدة. تستعدّ الآن على ما يبدو للتحرّك في اتجاه المدينة.

«المهم أن تبتعد»، قال «كريم» لنفسه. شعر ببعض الراحة لمجرّد الفكرة. سينتظر حتى يصلوا إلى نهاية الطريق، ويعود الجوّ هادئاً. سيزحف مبتعدا عن الركام، ثم يبدأ القفز على قدم واحدة متجها نحو البيت بالسرعة التي تمكنه قدمه المجروحة منها، متسللاً من الطريق الخلفي الذي لم يحتله الإسرائيليون حتى اللحظة. استجمع قواه استعدادا للحركة التالية، لكنّ الدبابات التي كانت على وشك الزحف بعيدا لم تكن تحرّكت فعلا، ولا تزال تحتل الطريق الذي خلا تماما من المارة والعربات. رفع «كريم» رأسه قليلاً، ثم عاد وأنزله بسرعة. لقد تنبه الجنود للعلم الفلسطيني الذي تشكّل من الحجارة في ملعب الجندب. اثنان من الجنود أخذا في ركل الحجارة بعيدا وهما يوزعان الشتائم كما ظهر من أصواتهم.

شدّ قبضة يده غضباً، شاعراً بالإهانة. لا حول ولا قوة له. قال بهمس: انصرفوا من هنا. انصرفوا من هنا. هذا المكان لنا، هيا، أخرجوا.

امتدت أنظار الجنود نحو بقية أرجاء الملعب. ها هم يستدعون الآخرين. وقف جندي في فتحة الدبابه شاهراً بندقيته استعداداً لإطلاق النار. كان يقف عالياً في منطقة موازية لمستوى قمّة الركام. كان بإمكانه رؤية ما يجري على الجهة المقابلة. صفيحة معدنية قديمة عند حافة الهاوية التي وقع فيها «كريم» أخفته عن الأنظار بأعجوبة. استلقى بلا حركة، ملتصقاً بالحجارة قدر الإمكان. ضغط وجهه بقوة نحو الأرض، أملاً في ألا يراه الجنديّ هناك. يتحول إلى شيء خفي غير مرئي. زحفت الثواني بطيئة جداً، ثم سمع أصواتا تصرخ، ثم أصوات الدبابات وهدير محركاتها. إنها تبتعد. كان واضحاً له أنها تسير فوق الطريق مبتعدة، فتنفس من جديد. انتظر اختفاء الصوت تماما، لكن هذا لم يحدث. بعض العربات غادر، وبعضها لا يزال قريباً، بل هي تقترب أكثر فأكثر من المكان. لفّه الشعور بالرّعب، وبدأ جسمه كله بالارتعاش، عندما أدرك أن تلك الدبابة الأخيرة بدأت بالزحف نزولاً إلى قلب ملعب الجندب.

استلقى كريم فوق الركام من جديد، محاولاً عدم التحرك قدر المكان. شحذ سمعه جيداً ليتمكن من معرفة ما يجري. «سيذهبون بعد قليل»، ظلّ يقول لنفسه محاولاً طمأنتها، «سيذهبون إلى المدينة»، كان واضحاً أن الآلة الضخمة لا تزال هناك، إنها تقلب الأرض وتحرثها. سمع أصوات حجارة تتكسر وأشياء تتطاير. أزاح جسمه بحرص شديد خلف الصفيحة المعدنية بحثاً عن ثغرة يستطيع من خلالها استراق النظر. وجد ثقباً جيداً، يستطيع منه رؤية كلّ ما يحدث دون أن يراه أحد. هناك الدبابة وسيارة جيب عسكرية مصفحة موجودتان في ملعب الجندب. شبكة من الأسلاك الشائكة تغطي نوافذ الجيب. هوائي المذياع المثبت على أحد جوانب الجيب يمتدّ كحربة نحو الفضاء، وهناك على سطح العربة ضوء أصفر يومض متوهجاً. وصلت الدبابة حتى منتصف ملعب الكرة وبدأت بالدوران دون أن تكترث للدمار الذي تحدثه. دهست الجنازير بقوة البراميل التي تخفي السيارة، سارت فوقها وسوتها بالأرض. في تلك اللحظة هوت أكوام من الحجارة من بين الركام واستقرّت كجسر كبير فوق السيارة التي لم تعد ظاهرة للعيان. لم يعد بالإمكان الوصول إلى السيارة من أية جهة، عبر ملعب الجندب.

أراد «كريم» محاولة الهرب. فكر في أنه إذا زحف فوق الركام مسافة قصيرة سيصل إلى الطريق الفرعي الضيق الذي ينطلق بعيداً عن الملعب. لن ينتبه الجنود لصوت حركته التي لن تكون مسموعة أمام صوت صرير الدبابات وهديرها. كما أنّ المساء بدأ يقترب، ووقت الغسق هو الوقت الأمثل للتسلل، حيث يكون كلّ شيء رماديا وباهتا، ولا تكون الأضواء قد أشعلت.

زحف حتى نهاية الحفرة، ثم تسلّق الجانب الآخر بأقصى ما يستطيع من هدوء. كانت الدبابة تتحرك، ثم توقفت عند مدخل أرض الجندب، وماسورة بندقيتها مصوبة نحو مخيم اللاجئين. كان الجيب العسكري واقفا إلى جانبها، ومازال مصباحه الأصفر يومض فوق سطحه. كان الجنود قد خرجوا وتجمعوا حول الدبابة يتحدثون مع الجندي الجالس على أكياس الرمل التي فوقها.

«لو نظر ذلك الجندي إلى هذه الجهة، فسيراني»، فكر «كريم». شله الخوف للحظة. غير أن الجندي اختفى عن البرج ونزل عبر الفتحة إلى داخل الدبابة. اغتنم كريم تلك الفرصة وتسلق نحو رأس الركام وهبط نحو الجهة البعيدة.

وجد نفسه مستلقيا في حفرة أخرى على سطح أملس، وأدرك أنه بمحض الصدفة، استقر على ظهر السيارة. الستارة المعدنية التي غطت مكان الزجاج الأمامي لا تزال موجودة. وخلال الأسابيع الماضية، سقطت عليه قطع من البلاستيك القديم والورق المستعمل وغطت سقف السيارة أيضا. بات من الصعب التعرف عليها الآن. السيارة بأكملها مدفونة تحت كلّ هذه النفايات.

عرف «كريم» أنه يستقرّ الأن فوق مكانه السري. شعر بنوع من الارتياح والتشجيع، وعرف رغم بدء هبوط الظلام، أين هو الآن، وما هو عدد أكوام النفايات التي يتحتم عليه عبورها قبل الوصول إلى أطراف أرض الجندب، وماهو الاتجاه الذي عليه أن يتخذه.

رفع قدمه استعداداً للانتقال من ظهر السيارة، وفي اللحظة التي بدأ فيها إنزال قدمه فوق قطعة الإسمنت المكسورة، توقف محرّك الدبابة فجأة، وساد هدوء مخيف في المكان. لم يعد يسمع سوى صوت أنفاسه وصوت احتكاك قدمه بقطعة من الإسمنت، ثم جاءه صوت الجنود الذي كان قريباً بصورة مرعبة. جثم فوق السيارة وانتظر لا بد وأنهم سيشغلون إحدى العربات بعد قليل. سيكون هناك ما يكفي من الصوت لكي يتمكن من الهرب. يجب عليهم أن يفعلوا ذلك. يجب عليه أن يغادر. أوقفوا محرّك الجيب ثم عادوا إلى تشغيله من جديد. لا بد الآن من بعض الضجيج ليكسر الصمت الرهيب! لا بد أن يتحركوا الآن، نعم سيتحركون لا محالة.

بعد دقائق قليلة، جاء الصوت الذي كان ينتظره. ارتفع صوت محرك الجيب عالياً تسارعت عجلاته منطلقة به نحو المفترق. استعدّ «كريم» مجدّداً للتحرك، لكن الجيب توقف من جديد. توقف بالضبط عند مفترق الطريق الفرعي الذي ينوي «كريم» أن يسلكه. كان واضحاً أن الجيب يستعدّ لاتخاذ موقف ثابت هناك. الضوء الأصفر في أعلى العربة يومض باستمرار. «لقد علقت»، فكّر «كريم»، «أنا محتجز هنا. ماذا لو ظلوا في المكان طوال الليل؟ ماذا لو ظلوا طيلة فترة حظر التجوال، يمكن أن يمتد الأمر لأسبوع أو أسابيع؟»

كان محرك الجيب لا يزال يعمل، لكن أبواب العربة فتحت الآن، وبإمكان «كريم» تمييز أصوات تتحدث بالعبرية خارجة منها. سيفتشون المنطقة الآن! يبدون مصرين على ذلك! سيجدونني لا محالة، وعندها إما أن يطلقوا عليّ النار على الفور، أو يوسعوني ضربا حتى تتهشم عظامي، أو يأخذوني إلى السجن. التفت يائساً إلى هذا

الجانب وهذا الجانب. ليست هناك وسيلة للفرار، ليس أمامه سوى الانتظار في مكانه والاختباء. بأسرع ما يستطيع، مدركاً أن صوت الجيب لا يغطي الجلبة، وصل إلى الستارة المعدنية الموصلة إلى ظهر سيارته القديمة، سحبها بسرعة ثم أعادها إلى مكانها بعد أن استقر في قلب السيارة. على الأقل هو مختبئ الآن في مكانه الخاص، «لكنني لن أستطيع البقاء طويلاً، المكان ضيق هنا حتى للجلوس». كان الباب عند مقعد السائق في الأصل غير موجود عندما وجدها الأولاد، والفراغ عند ذلك الباب كان المدخل الذي خصصه الأولاد لاستخدامه كممر للوصول إلى داخل السيارة. لكن الدبابة عندما جرفت كومة المخلفات في اتجاه السيارة ضغطت ذلك الممرّ، فبات هناك شق يفصل مدخل السيارة عن أكوام الحجارة. بسرعة عالية، منتهزاً فرصة انطلاق صوت محرك الجيب، دفع «كريم» بجسمه نحو جانب السيارة. دسّ جسمه في الفراغ الضيق الذي تبقّى من الممر القديم. علق قميصه بزاوية حادة، وزاد جرح يده سوءاً. كانت الأكوام تتحرّك معه، ثم تعود لتهدأ، فيصغي جيداً. توقف مرتين أو ثلاثا، فلم يسمع أية أصوات غاضبة من حوله. في آخر محاولة شبه يائسة، دفع بنفسه في اتجاه مقعد السائق ونجح. كانت الأوساخ تلفه، والكدمات تغطي أنحاء جسمه. كان منهكاً وخائفاً، لكن جزءاً ما منه كان سعيداً. «لم يمسكوا بي، ولن يفعلوا بعد الآن، سأكون بأمان هنا. وسأظلّ في هذا المكان مهما طال بقاؤهم في الجوار».

مكتبة الرمحي أحمد ٩٠

ـ ٢٢ ـ

كان قلب السيارة مظلماً إلا من بعض خيوط الشمس التي أوشكت على المغيب، وذلك الوميض المتحرّك القادم من الضوء الأصفر فوق ظهر الجيب. زحف «كريم» إلى المقعد الخلفي. أراد الاطمئنان على كيس ثيابه الذي تركه هناك، وثياب جوني أيضا. قد يحتاج إليها فيما بعد، إذا طال بقاؤه، وزحف برد الليل إلى المكان. اصطدمت قدمه بشيء يتدحرج. إنها مرطبات جوني! يوجد عدد لا بأس به من زجاجات العصير الغازي الضخمة. إنها أربع، وكل منها من سعة اللترين، عظيم! تحسسها بيديه. على الأقل لن يعاني من العطش لبعض الوقت. حاول أن يتذكّر ما إذا كان جوني قد خزن شيئاً يؤكل في المكان، لكنه تأكد بخيبة أمل أن جوني لم يفعل. كان الظلام مهيمناً على أية حال، وليس هناك مجال للبحث والتأكد.

أطفأ الجيب محرّكه فجأة. تجمد «كريم» مكانه وأصاخ السمع. سمع بالقرب منه تماما صوت مواء ضعيف، وشعر بشيءٍ ناعم يتحرّك فوق يده. كانت القطة الصغيرة جنجر، الكبرى بين الأختين. حملها وكأنها كرة من الفرو، وقرّبها من ذقنه: «أين أمك»؟ همس في أذنها. «أين عزيزة؟»

اقتربت الصغيرة الثانية وقفزت فوق ركبته، حملها بيده الثانية وقرّبها إلى صدره. «ستعود قريباً»، همهم لهما، «لا داعي للقلق».

كان يخشى في قراره نفسه أن تكون كلماته بلا معنى، فكيف يمكن لعزيزة أن تتمكن من العودة إلى المكان وقد سدّ المدخل بأطنان من الحجارة والتراب؟ ثم كيف له أن يعتني بحياة هاتين المخلوقتين، وليس لديه سوى بضع زجاجات من المشروبات الغازية؟

يبدو أن جنجر قرأت أفكاره. مدّت جذعها ومخالبها ورفعتهما فوق وجه «كريم». فعلت ذلك برقّة حتى لا تؤذيه. «هاي، أنتما، لا داعي لكل هذا، إن مصيرنا واحد في هذا المكان»

أنزل القطة وأجلسها على المقعد بجانبه، وقلبها على ظهرها فوق راحة يده. لمع فراؤها الناعم وسط الظلام. «لم نطلق عليك أي اسم حتى الآن»، فكر «كريم».

بدأ يشعر بجسم السيارة يضغط على جوانبه كما تفعل جدران السجن حول السجين، وانتابه شعور غريب بأنها ستواصل الضغط حتى تطبق عليه. كانت القطة الصّغيرة قد قلبت وجهها وبدأت تمرّغ أنفها في إبهامه. «حرية»! «ما رأيك بهذا الاسم، هذا سيكون اسمك منذ الآن، حرية»

كان وجود القطتين إلى جانبه مصدر سلوى وعزاء له. كانتا سعيدتين بوجودهما وغير مدركتين لما يحدث في الخارج. حرية بدأت تضيق ذرعاً بقبضة «كريم»، وبدأت تنتفض بانزعاج. أنزلها «كريم» وأجلسها إلى جانب أختها. عاد يسمع أصواتا عالية وحركة أقدام سريعة، ومعادن ترتطم وأشياء ترتطم على جوانب هيكل الدبابة، وفي الجهة الأخرى كانت أبواب الجيب تفتح وتغلق. «في وقت ما، لا بد لهم أن يناموا»، فكر كريم، «سأنتظر حتى يهدأ الجميع، ثم أحاول الفرار».

لكنه الآن هنا، في قلب مكانه المألوف، فلماذا يعرض نفسه لخطر رصاص الجنود؟ ارتعد من جديد لاحتمال تعرّضه لمثل هذا الخطر. ماذا لو حاول دفع نفسه خارج

الركام، وبدأت الأنقاض تنهار من مكانها؟ يمكن أن يدفن نفسه حيّاً تحت الأنقاض إلى الأبد، إذا ما أحكم إغلاق المكان واختنق هنا.

لا، لن يحدث هذا، هذه أفكار سخيفة، فالرّكام على أية حال ليس بهذا الارتفاع، ولن يتسبب في كارثة إذا ما انهار.

تحسس المقعد الخلفي بحثاً عن ملابسه، ها هي ملابس المدرسة، بنطاله الغامق وقميصه الأبيض والبلوزة الصوفية، لم تكن سميكة لتشكل حماية جيدة من البرد، لكنها ستساعد قليلاً إذا اشتد البرد ليلاً ارتعش وشعر بالبرد يسري في عروقه. واصل بحثه علّه يعثر على ملابس جوني المدرسية. يبدو أنها غير موجودة، لا، بل هي هنا، مطوية بعناية ومرتبة فوق بعضها هناك عند زاوية المقعد، تماما كما هو متوقع من جوني. شعر برغبة في الابتسام عندما تذكر جوني. سحب الكومة، بنطال آخر، قميص وسترة أيضا، ربما لا توفر هذه القطع دفئاً حقيقياً، لكنه على الأقل لن يموت من البرد.

الليل! شعر بمعنوياته تهبط. هذا ما لم يفكر فيه حتى الآن. ماذا يفكرون الآن في البيت؟ لا بد أن ماما فقدت صوابها وتكاد تنفجر من القلق! لا بد أنها تبكي دون انقطاع. وبابا، لا بد أنه يصبّ غضبه على «جمال»، محمّلاً إياه المسؤولية، لأنه تركني وعاد وحده، أو ربما يوفر غضبه ليطلقه عليه عندما يعود أخيراً إلى البيت. تخيل العائلة الآن في المطبخ، حول مائدة العشاء. ماما نادتهم جميعاً ووضعت له صحناً فارغاً على الطاولة متوقّعه أن يظهر في أية لحظة وينضم إليهم. من المؤكد أنها أمضت الساعات الماضية كلها على الهاتف، وأنها اتصلت بكلّ معارفنا في محاولة لإيجادي. انهمرت دموعه على وجهه عندما تخيل مقعده بينما بقية العائلة تجتمع حول الطاولة. قد لا يكون بإمكانه العودة أبدا إلى البيت! قد يموت جوعاً هنا إذا استمرّ حظر التجوال لأسابيع، أو قد يعثر عليه الجنود هنا ويعتقدون أنه إرهابي ويطلقون النار عليه. أراد أن يأخذ وجهه بين يديه وينفجر باكياً، لكنه خشي أن يصدر صوتا يدلهم على مكانه.

جاء من بعيد صوت طلقة نارية، ثم أخرى، ثم سلسلة طلقات متتالية. صرخ الجنود في الجوار، ثم سمع أصوات أقدامهم تتسارع. رفع «كريم» رأسه محاولاً تمييز مصدر الصوت واتجاهه. بدا له أن صوت الرصاص قادم من منطقة فلسطينية. لماذا يقفز الجنود مثل الذباب لو كان الرصاص صادراً عن أي منهم؟ أسعدته الفكرة، رغم

تعاسة حاله وبؤسها. أحد ما هناك يقاوم الغزاة، وهو بصورة أو بأخرى، بوجوده هنا، يقاومهم أيضاً. مجرد وجوده هنا وحده تحت أنوفهم عمل مقاوم. مجرد صموده ومنعهم من طرده من ملعب الجندب، دفاع عن فلسطين. رفع رسغه قليلاً محاولاً قراءة الساعة في يده من خلال شعاع ضوء رفيع نفذ إلى المكان، صدم من وقع المفاجأة، إنها السابعة والنصف! لم يمض على وجوده هنا سوى ساعة فقط! يا إلهي، كلّ هذا الوقت! ساعة فقط!

مضت ساعات المساء التالية ببطء قاتل، وكانت روح «كريم» ومعنوياته ترتفع حينا وتهبط أحياناً. كانت الربع ساعة تمرّ عليه وكأنها ساعات. إنه وحيد وجائع. ها هو في المقعد الخلفي يحاول الاستلقاء، ثم يعود ليجلس، غير قادر على مدّ ساقيه، يفكر بالعائلة، وبالعشاء الذي لن يتناوله. حاول اختراع ألعاب ذهنية لتمضية الوقت.

في الخارج، كان صوت الجنود يقطع الصمت بين حين وآخر. أصوات صافرات مرّت بالقرب من المكان مرة أو مرتين. أصوات طلقات نارية متقطعة. المدينة صامته، والناس سجناء داخل بيوتهم رغما عنهم. أقتربت الساعة من التاسعة عندما طرأت عليه مشكلة جديدة. إنه بحاجة لأن يتبول! تقزز من فكرة التبول داخل السيارة، ومن اضطراره بعد ذلك للتعايش مع الرائحة، التي يمكن أيضاً أن تؤدي إلى افتضاح أمره إذا مرّ الجنود من المكان وشمّوها. بعد قليل من التفكير وجد الحل، زجاجة الصودا التي كان يشرب منها لم يبق فيها إلا القليل، سيشربها ثم يستعملها للتبول. أفرغ الزجاجة في معدته، وأحكم إغلاقها من جديد حتى لا تتسرب منها الرائحة، ووضعها تحت المقعد الأمامي. انتشى لشعوره بالنجاح والقدرة على ابتكار الحلول. استلقى فوق المقعد الخلفي، ولّف جسمه بما لديه من ثياب إضافية. تململت القطتان في المقعد الأمامي منزعجتين من حركاته القلقة، ثم عادتا وكوّرتا نفسيهما وخلدتا إلى النوم. لم يبد أن الجوع والعطش تمكنا منه حتى تلك اللحظة.

أغلق «كريم» عينيه أملاً في أن ينام، لكنّ ذلك لم يحدث، فكلما نجح في تصفية ذهنه من الأفكار المروعة، كان صوت ما من الخارج يهاجمه ويفزعه من جديد. البرد أيضا بدأ بمهاجمته، وقطع الملابس فوقه ظلت تنحسر من مكانها. كان مقعد السيارة قصيراً فتشنجت ساقاه من عدم تحريكهما، والتوت رقبته بسبب عدم وجود وسادة. تقلب يمينا ثم يساراً. احتضن نفسه محاولا حماية جسمه من البرد. كان على وشك الإغفاء. سمع صوت قرقعه الأحجار فوق السيارة. قفز متنبهاً. استلقى دون

صوت، وقلبه ينبض بقوة، ثم سمع صوت أقدام حيوان، ثم ظهرت قطة كبيرة من خلال الشق الصغير، وألقت بنفسها في مقعد السائق.

« عزيزة!» قال بحنان. ألقت بشيء حملته في فمها إلى المقعد المجاور، التقطته الصغيرتان بسرعة، وبدأتا تأكلان. اطمأنت إلى حالهما ثم تسللت إلى المقعد الخلفي وبدأت تشمّ راحة يد «كريم». خرخرت بسعادة. لحست راحة يده، ثم قفزت بخفة لتستقر بثقلها بين يديه. شعر بدفء فروتها ينتشر في أوصاله. حبّ دافئ سرى إلى قلبه. حرّك رأسه بهدوء ليبعد أذنها عن أنفه حتى لا تسبب له الدغدغة العطاس. ودون سابق إنذار، غطّ في نوم عميق.

-٢٣-

استيقظ كريم على أصوات ضحك في المكان. ظلّ مغلقاً عينيه للحظات، يفكّر فيما حلّ بوسادته وبسريره الذي بدا أكثر صلابة وأكثر ضيقا. عادت الذاكرة به إلى الواقع من جديد، فهب جالساً. حركته المفاجئة جعلت رقبته تتشنج وأوجعت قدمه الملتوية. حرّك قدمه يميناً ويساراً عدة مرات، يبدو أن الألم أفضل مما كان عليه يوم أمس. يبدو أنها لم تلتو بشكل سيئ. اختفت عزيزة من جديد، والقطتان الصغيرتان في المقعد الأمامي تلهوان وتلعبان، كاشفتين عن أسنانهما الصغيرة. فرك «كريم» رقبته المتشنّجة ونظر في ساعته. إنها الثامنة. لقد نام ساعات طويلة.

أمتد النهار أمامه بطيئاً وفارغاً. ما الذي يمكن أن يفعله؟ وكيف له أن يمضي الساعات القادمة؟ كيف سيحتمل البقاء محشوراً في هذه البقعة الضيقة دون حركة، وبصمت مطبق؟ كيف سيصمد دون طعام؟ حاول إبعاد صورة العائلة من رأسه، وعدم التفكير في القلق الذي يمرون به الآن، لكنه لم يتمكن من طرد صورة مائدة الإفطار، وتخيل البيض والخبز والشاي الساخن واللبنة فوق الطاولة. سال لعابه وملأ فمه. «ربما ترك جوني طعاماً هنا، يمكن أن يكون قد ترك بعض السكاكر أو أيّ شيء آخر. لم أبحث في المكان جيداً». فتش جيداً، وفي كل زاوية. كان يفتش وهو ينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي سترتطم فيها يده بشيء ما. لم يجد شيئاً، ولا حتى قشرة برتقالة. نظر في ساعته من جديد. الثامنة وعشر دقائق. يا إلهي، عشر دقائق فقط

مضت منذ أن استيقظ من النوم، غير معقول! «سأحاول الخلود إلى النوم من جديد» استلقى وحاول، لكن جسمه كان متيقظا جدّاً، وكانت أطرافه تؤلمه لشدّة حاجتها إلى التحرك. أصوات الضحك التي أيقظته من النوم اختفت الآن، لكنّ أصوات الحوارات لم تذهب. كان الجنود يتسامرون بطريقة طبيعية، يتحاورون ويضحكون. استطاع التقاط بضع كلمات من خلال حوارهم بالعبرية. سمع كلمات رام الله، القدس، وإرهابيين.

توقفت الأصوات لينطلق صوت مألوف جداً وعزيز على قلبه، هذا صوت كرة تتدحرج. ثم صوت ركلات، ثم ها هي تحط في المرمى على الجدار. تدفق الغضب إلى أعلى رأسه. لقد عثروا على الكرة، كرتي! إنهم يلعبون بها! هنا فوق ملعبي! ضرب بقبضته على ركبته بخذلان كبير. هذا أسوأ ما حصل له. هذه هي الإهانة الكبرى! كل ما يمكنه عمله هو أن يعضّ على أسنانه، ويوجّه شتائم لا يسمعها أحد سواه!

أطلق احدهم نداءً فتوقفت اللعبة. اقتربت عربة من المكان ثم توقفت، لكنّ محرّكها ظل يعمل. يبدو أنها ستستقر عند مدخل أرض الجندب. «قد تكون هذه فرصتي»، فكّر «كريم». يمكنه أن يتحرّك في ظلّ الضجة التي تحدث الآن، ربما يمكنه أيضاً أن يطلّ برأسه خارج السيارة، ويلقي نظرة على الجوار.

اقترب من المقعد الأمامي وصوّب نظره عبر الفتحة القريبة من مقعد السائق، بعد ذلك الظلام الدامس داخل السيارة، أشعة الشمس المشرقة جعلته يطبق جفنيه. أسعده الدفء الذي لفح وجنتيه. استنشق بعض الهواء النقي وشعر كما الحيوان الخارج لتوه من وكره الليليّ. محرّك سيارة الجيب لا يزال يعمل. دفع «كريم» جسمه عبر الثغرة، وثبّت قدمه بحذر فوق الرّكام، ثم انتصب واقفا. صارت أطرافه غير متشنجة أخيراً. نظر أمامه نحو الأفق، عبر ملعب الجندب. كان العلم الأبيض والأزرق فوق الدبابة أول ما وقعت عليه عيناه، معلناً احتلال ملعب الجندب. هذا المنظر جعله يشعر بالغثيان. ثم رأى ثلاثة جنود واقفين في منطقة ليست بعيدة. عاد وأنزل جذعه إلى الأسفل. أدرك أنه كان مكشوفاً بشكل واضح، فبدأ يبحث عن طريقة أكثر أماناً يستطيع معها مراقبة الوضع. على مسافة قصيرة منه كان كرسيّ بلاستيكي أبيض يتربّع فوق الرّكام. كان بثلاث أرجل فقط، وكان في مقعده ثقب. لو تمكّن من جرّ الكرسي نحوه، وتثبيته أمام وجهه مباشرة، فسيكون بمثابة درع يمكّنه من مراقبة الوضع من خلال الثقب. انحنى إلى الأمام قليلاً، ومدّ ذراعه قدر الإمكان. اصطدمت أصابعه

بأقرب رجل من أرجل الكرسي، لكن المحاولة أدت إلى دفع الكرسي في الاتجاه المعاكس. لعن في سرّه، وقرّر القيام بمجازفة، ورفع جسمه إلى الأعلى. سيكون الآن مكشوفاً تماماً لهم، وحتى لو استطاع إخفاء جسمه عنهم، فإن منظر الكرسي يتحرك من تلقاء ذاته فوق الركام ستثير شكوكهم. لا بد أن ذلك سيلفت انتباههم.

عاد وغاص إلى الأسفل، مثبط الهمة. سيعود إلى داخل السيارة وينتظر هناك. كانت درجة المجازفة عالية، لكن فكرة الكرسي، وتأسيس نقطة مراقبة آمنة كانت جيدة، ومن المؤسف تركها تضيع من بين يديه. وفكرة البقاء داخل السيارة طوال اليوم دون عمل شيء كانت مروعة وأصعب من أن تحتمل. لا بد له من الحصول على الكرسي، نعم، هي مجازفة، لكنها تستحق المحاولة.

رفع جذعه قليلاً، ومدّ يده من جديد، مدّها بأقصى ما يمكن، حتى شعر بأنها تكاد تنفصل عن كتفه من شدة الضغط. الآن سيصبح مكشوفاً تماماً للرجال في الأسفل. لو تلفّت أي منهم فسينتهي أمره. قبضت يده على إحدى أرجل الكرسيّ فوق بلاطة ملساء مكسورة، أفزع الصوت «كريم». توقف قليلاً، لكن أحداً من الجنود لم يتلفت. قبض على رجل الكرسي من جديد، فبدأ الكرسي بالاقتراب. ها هو يوشك على الاستقرار في مكانه المناسب. تماماً أمام وجهه. ناور قليلاً حتى ثبّته في النقطة المحددة، لكن قطعة طوب صغيرة علقت بظهر الكرسي وتدحرجت بجلبة فوق قطعة إسمنت وسقطت على قدمه فآلمته كثيرا.

سمع الجنود الصوت هذه المرة، واستداروا منتبهين وخائفين في الوقت نفسه، وبنادقهم التي كانت متجهة نحو الارض بإهمال رفعت باتجاه مصدر الصوت تماماً، نحو الكرسي. رآهم «كريم» من خلال الفتحة في الكرسي. قطع أنفاسه تماماً. تصبب العرق فوق جبينه. لم يجرؤ حتى على العودة إلى الاختباء في الأسفل، خوفاً من أن يختلّ توازن الكرسي، أو تتحرّك طوبة أخرى في المكان تحت أقدامه. إنهم يقتربون ويفتشون، سيجدونه لا محالة، ثم.

فجأة، انفجر أحد الجنود مقهقهاً وأنزل سلاحه. أصدر صوتاً رقيقا وهو يحرّك أصابع يده. التفت الآخرون نحوه باستغراب، لم يقل شيئاً وأشار بيده إلى نقطة تقع خلف موقع «كريم» مباشرة. كانت عزيزة تشق طريقها عبر الركام نحو الجنود، فحرّكت حجرا ما لبث أن تدحرج بجلبة بعيدا. وإذ قفزت نحو منحدر أخذت تموء، ثم تقدمت دون خوف نحو الجنود. انحنى الجندي وداعب ذقنها. مرّغت عزيزة وجهها بساقه في

حركة لا تخلو من الدّلع والرقّة. « الخائنة! لا تقتربي منهم»، قال «كريم» بهمس.

استرخى الجنود. ذهب أحدهم نحو الدبابة. نادى على شخص داخلها، فأطلّ من برجها وناوله شيئاً. عاد الجندي الأول إلى عزيزة ووضعه على الأرض أمامها.

« طعام! تأكل من طعامهم أيضاً!»، فكر «كريم» وهو يشعر بالاستياء الشديد منها.

شمّت عزيزة ما قدّمه لها، ثم قبلته. أكلته، ونظرت إليه نظرة توحي بأنها تأمل في المزيد. ضحك الجندي وربت على رقبتها فقلبت نفسها على الأرض عارضة عليه بطنها. لعبت معه، كأنهما يعرفان بعضهما من قبل. بدا وكأنه يدرك بالضبط ما تحبّه عزيزة. رفع رأسه. ظهر وجهه ضاحكاً تحت خوذته الحديدية، وبانت أسنانه لامعة أسفل وجهه الذي لوّحته أشعة الشمس. تنفس «كريم» بعمق، للحظة، بدا ذلك الجندي المقيت بلباسه العسكري تماماً مثل «جمال».

ضربه أحد الجنود على كتفه بمودة، فكاد يوقعه. ماءت عزيزة من جديد، كأنها تستدرج اهتمامه، عاد إلى ملاطفتها، ثم جاءهم صوت نداء من جهة الطريق العام فانتفضوا واقفين وأيديهم على الزناد. يبدو أن الشخص الذي لم يتمكن «كريم» من رؤيته أصدر لهم أمراً ما. هرعوا إلى الدبابة واعتلوا ظهرها، انطلق محركها يزأر ثانية. عاد الضجيج، «سيغادرون قريباً، الحمد لله». فكر «كريم».

بدأت الدبابات تتحرّك، بينما كانت جنازيرها تحدث في الأرض خراباً. أرض ملعب كرة القدم. لم تمض لحظة حتى وصله صوت أوامر جديدة. توقفت الدبابة وانطفأ محركها. غاص قلب «كريم» بين أضلاعه. يبدو أنهم قرروا البقاء. قد يظلون هنا طوال النهار. غاص من جديد نحو الأسفل، ثم دسّ نفسه داخل السيارة. ما زال النهار بطوله أمامه، ليس أمامه فعل أيّ شيء سوى الانتظار.

اليوم الطويل الطويل زحف ببطء شديد. حاول أكثر من مرة أن يخلد إلى النوم فلم يفلح. اخترع بعض الألعاب الذهنية، وروى لنفسه قصصاً، وهرب أحياناً إلى الانغماس في أحلام اليقظة. عادت إلى ذاكرته تلك القائمة التي كتبها وحدّد فيها الأشياء التي يريد أن يكونها يوماً ما. هل كان ذلك قبل أسابيع؟ يشعر الآن وكأنه كتبها قبل سنة. حاول أن يتذكّر ما كان كتبه: كلّ تلك الأشياء التي حلمت بها، تحرير فلسطين، لاعب كرة قدم محترف، اختراع ألعاب الكترونية، اختراع أشياء أي كلام فارغ!

تذكر أيضاً أن قائمته ظلت ناقصة بنداً واحداً لتكتمل وتضمّ عشر نقاط. الآن يعرف تماماً ماذا سيكتب في ذلك البند. الشيء الوحيد الذي يريده، هو أن يكون إنسانا طبيعياً، يعيش حياة طبيعية في بلد طبيعي. في فلسطين حرّة. لكن هذا لن يتحقق أبداً، فهم لن يعطونا أبداً ما هو لنا.

تململ في مكانه بانزعاج، محاولاً عدم إطلاق أية ضجة حوله. عند منتصف اليوم انتشرت أشعة الشمس واخترقت سقف السيارة محدثة جواً من الدفء داخلها. رغم إحساسه بالاحتجاز والاختناق، تمكّن «كريم» مرة أو مرتين من الخروج والاحتماء بدرعه الأبيض ليراقب الأجواء. كان يجرؤ على ذلك كلما أنطلق صوت محرك الدبابة أو عندما تعلو أصوات الجنود بالعبرية. عليه أن يتدبر أمره جيداً هذه المرة، لا يستطيع الاعتماد على عزيزة لتوفير غطاء جديد. الحرارة جعلته يشعر بالعطش. سمح لنفسه برشفة من زجاجة العصير الثانية، لكنه لم يشرب كثيراً. لا أحد يعلم كم ستطول إقامته هنا. فوجئ لاكتشافه أنه يفضل شرب الماء على الصودا لو كان لديه خيار. حلاوة مذاق الصودا على ما يبدو كانت تزيد من عطشه.

كانت عزيزة تأتي ثم تخرج. حين تكون في الخارج يلعب مع القطتين الصغيرتين، يدغدغهما، يغيظهما، يربت عليهما، يراقبهما بسعادة وهما تحاولان اكتشاف كل زاوية داخل السيارة. ساعدهما أكثر من مرّة في الخروج من مأزق، عندما كانا يحشران نفسيهما في زوايا صعبة أو في شقوق داخل مقاعد السيارة. كانت تلك أفضل لحظاته. مع اقتراب المساء، أقنع نفسه بأن حظر التجوال قد يرفع لساعة أو ساعتين، وبأن الدبابات ستبتعد عن المدينة، تاركة المجال للناس للتسوق وشراء طعامهم. شيئاً فشيئاً بدأ هذا الأمل يزداد في نفسه، حتى بات يتعامل معه على أنه حقيقة قادمة. «اقترب الموعد»، فكّر لنفسه. نظر إلى ساعته مرات ومرات. «سيذهبون في الساعة الرابعة، حسناً، الرابعة والربع، ربما كان هذا مبكراً، الخامسة هو الوقت المناسب، بالتأكيد سيذهبون في الخامسة». جاءت الساعة الخامسة، ثم الخامسة والنصف، ثم السادسة، والسادسة والنصف. تقبّل في النهاية فكرة استمرار حظر التجوال. عليه الآن أن يتعامل مع الأمر، ويواجه ليلة أخرى هنا داخل السيارة.

هذا أسوأ وقت في اليوم، ربما الأسوأ في حياته كلها. جاءه صوت والده وكأنه يهمس في أذنه، جاء الصوت واضحاً وهادئاً حتى خيل له أن والده يجلس إلى جانبه داخل السيارة: «التحمّل شكل من أشكال الشجاعة، وعندما يوجهون لنا الإهانات، فإن

العار الحقيقيّ يلحق بهم، وليس بنا». توقّف صدره عن الخفقان، وجفت دموعه: «التحمّل»، هذا ما أفعله الآن. في النهاية، القدرة على التحمل ستكون هي الميزان، والعار سيلحق بهم هم.

بدأ الظلام يخيم، وامتدت ساعات الليل أمامه. شدّ ذراعيه إلى جانبيه بالقدر الذي سمح به المكان، وتثاءب. ما زال الوقت مبكراً للذهاب إلى النوم. كانت بعض القرقعة تدور في الخارج. عربات تتحرك قادمة أو ذاهبة. أصوات بالعبرية وصفارات عربات إسعاف في مكان أبعد.

جاءت عزيزة فجأة ودخلت من الشقّ. أخذت تشم يده بعض الوقت، ثم قفزت نحو طفلتيها. كانتا تسترخيان في مقعد السائق مكانهما المفضل بعد ساعات من اللهو واللعب. سمحت لهما بالرضاعة قليلاً، ثم بدأت تدفعهما بعيداً عنها. قال «كريم»: عزيزة! ما الذي تفعلينه! توقفي!

واصلت عزيزة دفع القطتين حتى أوقعتهما عن المقعد. سقطت جنجر أولاً وأصدرت صوتاً أشبه بالبكاء تعبيراً عن رفضها. تبعتها حرية التي وقعت فوق أرض السيارة مباشرة. التقطت عزيزة حرية من خلف رقبتها بفمها وسحبتها معها خارج الشقّ، ثم تسلّقت بها فوق أكوام المخلفات. كانت تتحرك بخشونة بسبب وزن حرية الذي كان عليها رفعه معها. راقب «كريم» المشهد مشدوداً. ها هي عزيزة تغادر المكان. إنها تتخلّى عنه. قررت الابتعاد مع أطفالها. قال بصوت عالٍ: لا أرجوك يا عزيزة، عودي إلى هنا!

حاولت جنجر اللحاق بأمها. كانت تموء بصوت مثير للشفقة. خرجت من السيارة، وحاولت تسلّق كوم الركام. كانت أرجلها قصيرة جداً، ولم تكن خطواتها متوازنة تماماً. لم تستطع التنقل من حجر إلى آخر بسهولة. وقفت فوق طوبة ترتجف خوفاً، ثم بدأت بالمواء والبكاء طلباً للمساعدة. أراد «كريم» أن يمسك بها ويعيدها إلى الداخل. اعتقد لوهلة أنه إذا احتجزها رهينة لديه، فستضطر عزيزة إلى العودة. مدّ يده لتنفيذ خطته، ثم خطرت له خاطرة. لو حاول احتجاز عزيزة وجنجر وإرغامهما على البقاء، فإنه لن يكون أفضل من العدو. لقد أطلق على القطة الثانية اسم حرية، ومن العار ألا يتركها تعيش بحرية.

بذلت عزيزة جهداً كبيراً للوصول إلى قمة الركام مع صغيرتها واختفت. انحنى «كريم» خارج السيارة وأمسك بجنجر مخلّصاً قدميها من الحجر الذي تشبثت به.

- حسناً، لا بأس عليك. سأعيدك إلى أمك عندما تأتي إلى هنا.

أراد أن يحضنها للمرة الأخيرة. أن يشعر بالدفء والراحة اللذين يوفّرهما وجود شيء حيّ إلى جانبه. سيحاول الاحتفاظ بهذه الذكرى ليتمكن من مواجهة الليلة الطويلة التي تنتظره.

عادت عزيزة خلال وقت قصير. تركها تقفز إلى مقعده وتدسّ رأسها في يده. كانت تحثّه على إنزال طفلتها من يده الأخرى، وبدلاً من أن يقوم بذلك، مدّ رأسه من بين الركام ووضع جنجر هناك. حرص أن يظلّ رأسه محتمياً بدرعه البلاستيكي الأبيض، ومن خلال الثغرة في الكرسي تابعهما بنظراته وهما تنطلقان بعيداً. لم تحاول عزيزة حمل جنجر كما فعلت مع حرية، سارت أمامها، وكانت بين حين وآخر تتلفت إلى الوراء وتنادي لتحثها على اللحاق بها. نجحت جنجر في الاختبار على عكس ما توقّعه «كريم». انزلقت قدماها أحياناً وتعاركت مع بقايا البلاط والإسمنت والأنابيب الملقاة التي اعترضت طريقها. أصدرت بين الفينة والأخرى أصوات احتجاج خافتة.

راقبهم «كريم» حتى وسط الظلام. بعد قليل سمع أصواتا متفرقة وضحكات، بدا له وكأن المشهد الصباحي نفسه يتكرّر، اللعب مع عزيزة. كانت الضحكات نفسها والحركات. لكنه لم ير شيئاً. ظلّ هناك يتابع الأصوات وحيداً وبائساً «المنتصر يحصد كل شيء»، قال لنفسه، «بلى، المنتصر يحصد كلّ شيء».

على العكس مما توقعه، مرّت الليلة الثانية بصورة أفضل من الأولى، فمن جهة، خصّص «كريم» وقتاً أطول لتنظيم سرير أكثر راحة، فتمكن من نزع مسند الرأس من المقعد الأمامي الذي كان سليماً وسهل النزع، واستخدمه بديلاً للوسادة، ثم ربط قطع الملابس الإضافية المتوفرة لديه، وحوّلها إلى ما يشبه الغطاء الحقيقيّ. على الأقل كان متأكداً من أنها لن تنزلق عنه خلال الليل.

قصته مع الجوع بدت غريبة هي الأخرى. لم يشعر «كريم» بالجوع الذي عصف به ليلة أمس، وكأن معدته بدأت تغلق على نفسها. سمح لنفسه بتناول جرعة كبيرة من الشراب على أمل النوم بعمق دون أن يوقظه العطش. لقد شرب اثنتين من زجاجات

العصير حتى الآن، غداً سيتعامل بحرص أكبر مع الشراب. سيكون في مأزق حقيقيّ إذا ما نفد المخزون كله.

كان الجو يعجّ بالضجيج والنشاط عندما استيقظ. كانت الأضواء تملأ المكان. محرّك الدبابة كان مشتعلاً وبدا وكأن هناك عربات أخرى في الجوار، ربما على الطريق العام. انتقل بسرعة إلى مقعد السائق، إنها فرصته للتحرّك تحت غطاء صوت محرك الدبابة. قد يتوقف المحرك عند الصباح ولا يتمكن من الاستفادة من ضوضائه. أطّل من الشقّ، وأخرج رأسه ليسترق النظر من خلال ثقب الكرسي. كان الجنود يتراكضون نحو الدبابة، ويتسلّقون ظهرها. كانوا ينادون بعضهم بعضا. أزيز الآلة الضخمة يصمّ الآذان. الصوت رهيب. تنبّه فجأة إلى أن الصوت قادم من خلفه أيضاً، وليس فقط من الشارع الرئيسي. كان عدد من الدبابات يصطف عند الطريق الفرعي المؤدّي إلى نهاية جبل الرّكام. عشرات الجنود المصفحين بخوذاتهم يقفون داخل تلك الآلات. كانوا على مسافة لا تزيد عن الأربعين مترا عنه، وبحركة بسيطة من رؤوسهم كانوا سيرونه، سيرونه بوضوح تام.

غاص في القاع من جديد. قلبه يكاد يتوقف عن الخفقان. ماذا لو رآه أحدهم؟ إنّهم يصرخون الآن، ما الأمر؟ ترى، هل لهذا الصراخ علاقة به؟ هل سيسمع صوت أقدامهم عندما ينتشرون للقبض عليه، أم سيكتفون بمهاجمة النقطة التي رأوه فيها برصاص بنادقهم أو قذائف دباباتهم؟

مرّت الثواني، واحدة تلو الأخرى، ثم تغيّر اتجاه الزئير مع بدء حركة الدبابات. لم يتمكّن من تمييز الاتجاه الذي يسلكونه، لكنه أدرك أنهم يسيرون بعيداً عن ملعب الجندب. خفت الصوت، ثم اختفى تماماً. ذهبت مجموعة الدبابات، لكنه لا يشكّ في أن واحدة تركت هنا، فوق ملعب الجندب، كما كان الحال من قبل.

انتظر «كريم» متوقعاً عودة الأصوات التي ألف سماعها مؤخّراً، وصوت الجنود وهم يدخلون ويخرجون من الدبابة، لكنه لم يسمع سوى صوت الصمت. بدأ الامل يتحرك داخله ثانية. هل ذهبوا؟ هل رفع حظر التجوال؟ هل يجرؤ على النظر؟ أوشك على التحرك نحو موقع المراقبة الخاص به، عندما أعاده تفكيره إلى مكانه. ماذا لو أنهم رأوه حقّا، وقرروا أن ينصبوا له فخاً؟ ربما تظاهروا بالانسحاب لاستدراجه ودفعه إلى الخروج، ثم تصويب طلقة مباشرة إلى رأسه لحظة خروجه. تردّد وواصل استراق السمع كما لم يفعل من قبل. لم يسمع شيئاً، سوى زقزقة عصفور في البعيد،

وبقايا قرقعة الدبابات المبتعدة. إذا كانوا يعلمون بوجودي فسيتمكنون من الإمساك بي بطريقة أو بأخرى، فلن تكون فكرة سيئة أن أجازف وأحاول. نجح في الخروج من السيارة دون أن يصدر صوتا. رفع رأسه شيئا فشيئا. كان الخوف يزحف حتى فروة رأسه. لم يحدث شيء. لا أحد في المكان. لا يرى الدبابة، ملعب الجندب فارغ. «انتهى الأمر»، فكر «كريم»، «أنا حرّ الآن!»

زحف عبر الشق حتى أصبح في الخارج، وأصبحت السيارة، سجنه وملاذه، خلفه الآن. ملعب الجندب خالٍ تماما. ابتعدت الدبابة. التفت ونظر في الاتجاه المقابل. كان الطريق في الأعلى خالياً أيضاً. رفع ذراعيه فوق رأسه ومدّها بسعادة. بدأت عضلاته تتمدد. عضلاته متشنجة الآن. أنزل ذراعيه وتنبه إلى أن الشوارع والأرجاء حوله صامتة تماماً. سكون قاتل يهيمن على رام الله. عندما يتم رفع حظر التجوال، تعجّ الشوارع بالناس على الفور. ينطلق الجميع خارج البيوت شوقاً إلى هواء الحرية النقي، ويسارعون إلى شراء طعامهم. أين هم الآن؟ أين الجميع؟

عاد القلق يسيطر عليه، وأضطربت دقات قلبه. يبدو أن حظر التجوال لا يزال فاعلاً ماذا، هل فقدت عقلي؟ ما الذي أفعله هنا في الخارج؟

انحنى من جديد، وأوشك على الزحف عائدا إلى سيارته، عندما لمح لمعان انعكاس الشمس عن شيء معدني، كان قادماً من الجهة البعيدة من ملعب الجندب. ها هو يلمع من جديد. ركّز حدقتي عينيه في مواجهة نور الصباح القوي. أشياء متراكمة واضحة فوق سطح المبنى المقابل. ما هذا؟ هل هي بقايا أعمال صيانة تمت في المكان؟ يستطيع أن يرى أكياس رمل تمّ تكديسها عند زاوية سطح المبنى لتكون ملجأ مؤقتاً وحماية من الشمس. الجنود هناك بالتأكيد. لقد صنعوا لأنفسهم موقعاً للمراقبة، تماماً فوق سطح البناية السكنية. ذلك الشعاع الذي وصله كان انعكاسا لأشعة الشمس من أحد مناظيرهم، أو ربما انعكست عن ماسورة البندقية. شلّ الخوف حركته. إذا كانوا رأوه، فمن الجنون أن يحاول العودة إلى مكانه داخل السيارة. سيكون الإمساك به سهلاً، كفأر في مصيدة. لكن، إلى أين يمكنه الذهاب؟ وماذا عساه يفعل؟ أين يمكنه أن يختبئ؟

لمع الضوء من جديد. أفقده الخوف صوابه. انطلق مسرعاً وتسلّق جبل الركام بعيداً عن البنادق فوق سطح المبنى، وبعيداً عن ملعب الجندب. اتجه نحو الطريق عند نهاية الركام. الرصاصة الأولى مرّت قرب رأسه واصطدمت بقطعة إسمنت إلى يساره.

مكتبة الرمحي أحمد

غاص إلى الأسفل لحظات عجز فيها عن الحركة، لكنه لم يعد أمامه سوى بضعة أمتار حتى يجتاز جبل الركام كله، ويصبح بعيداً عن مرمى النار، وفي حماية الرّكام نفسه.

كان قد أوشك على الوصول. لحظات وسيصبح خلف الرّكام، لكن الرصاصة الثانية كانت أسرع منه، انطلقت وأصابت حجراً عند إحدى زواياه، ثم تجاوزته لتستقر في المنطقة الخلفية من ساقه اليسرى، تماما تحت الركبة.

كان شعوره أقرب إلى ضربة قوية منه إلى جرح من رصاصة. أدت الضربة إلى اختلال توازنه، لكنه بعد وقوعه تمكن من مواصلة الطريق زحفاً، ثم ألقى بنفسه إلى الجهة الأخرى فتدحرج فوق السطح الأملس، مدحرجاً معه حجارة وقطع بلاط وزجاج، دون أن يدرك حجم الكدمات التي تعرّض لها خلال ذلك. وصل القاع، وجلس وهو يشعر بالدوار. ركام المخلفات شكّل له حماية من مرمى النار. هو في هذه اللحظة في أمان.

نظر إلى ساقه. الدم ينزف من خلال البنطال القطنيّ الباهت. يسيل فوق حذائه الذي اصطبغ الآن بلون أحمر قانٍ ملطخاً الأرض. لم يلاحظ ألم ساقه حتى اللحظة. إنه حاد جداً ويشلّ قدرته على التفكير. رفع البنطال ليلقي نظرة على الجرح. كان هناك ثقب بشع ينزف منه الدم. لا بد وأن الرصاصة دخلت من هنا، لكن لا يوجد ثقب ثان يشير إلى مكان خروجها من ساقه. «لقد استقرت في الداخل»، فكرّ «كريم»، «توجد في ساقي رصاصة مزروعة هناك». زاد الإحساس بالألم عندما توصل إلى هذا الاستنتاج. شعر بالغثيان. لسبب ما، ورغم حرارة الشمس التي ملأت السماء، ورغم ارتدائه سترته، بدأ يشعر بالبرد، برد شديد وقارص. أسنانه تصطك. لا بد من محاولة لوقف النزيف قبل أن يفقد المزيد من الدم. كان لا يزال مرتديا سترة جوني التي حمته من البرد طوال الليل. خلعها. ارتجف بعنف، ثم انهمك في محاولة تمزيق كمّ قميصه. كان صراعاً صعباً مع القميص، استخدم فيه أسنانه وأظافره، ونجح في النهاية. صنع من أكمام القمص رباطاً سميكا غطّى به موقع الرصاصة. شدّ الرباط بقدر ما استطاع، محاولاً تحمّل الألم. تألّم كثيراً، لكنه شعر ببعض الراحة لتمكنّه من مساعدة نفسه. الآن يستطيع أن يفكّر بطريقة أفضل.

«لا أستطيع البقاء هنا»، قال لنفسه، «هؤلاء الجنود سيتصلون بجنود آخرين في المنطقة، وسيرسلون عربات إلى المكان للقبض عليّ». نظر إلى أعلى الطريق وإلى

نهايته. جدار الرّكام خلفه. بقايا بيوت مدمّرة على أحد الجوانب، وصفّ من المحالّ التجارية عند الجانب المقابل. أبواب المحلات ونوافذها مغلقة كلها. ليس هناك مجال للاختباء هنا، لكن المفرق إلى اليمين يخرج منه طريق فرعيّ إلى اليسار، ينزلق مباشرة حتى قاع المنحدر. في ذلك المنحدر تقف عديد من المباني السكنية العالية التي تفصل بينها قطع من الأراضي وبعض الحدائق. لا بد وأن لتلك المباني مواقف سيارات وطوابق تحت الأرض يستطيع فتى أن يختبئ فيها.

وقف على قدميه للحظة، لكن الألم بدأ يعصف بساقه بمجرد تعرّضها لثقل جسمه. شعر بالضعف، وكاد يغمى عليه. خشي أن يفقد وعيه وهو في الطريق، فعاد وجلس ثانية.

من مكان ما ليس بعيداً، انطلق صوت صفارات. رفع «كريم» رأسه قليلاً ثم عاد وتنبّه إلى أنه يعرض نفسه من جديد للخطر، وأنه في منطقة مكشوفة، وأن عليه البحث عن مخبأ. أرغم جسمه على التحرّك وهو يعضّ على شفته من شدة الألم. زحف نحو قارعة الطريق، ثم استدار نحو الطريق الذي يوصل إلى أسفل التلة. المبنى الأول على يساره لا يصلح للاختباء. بواباته الحديدية عالية، وتغلق على أسواره بأحكام، لكن إلى الأمام قليلاً بعد المبنى توجد أرض صغيرة خالية تؤدي إلى مبنى آخر ضخم. بضعة أمتار وينتهي السور، لكن المسافة بدت له طويلة. ساقه في مكان الرصاصة تضرب بشدة، والألم يزداد، وينتشر إلى كل مكان. بدأ الدم يخرج خارج الرباط، فيشعر به يسيل فوق ساقه وقدمه. «حتى لو وجدت مكانا للاختباء الآن، فقد لا أتمكّن من الوصول إلى البيت أبداً»، فكرّ «كريم».

وصل أخيراً عند نهاية السور. التفت يميناً ويساراً. قطعة الأرض يتمّ تحضيرها للبناء. كانت ممهّدة وفارغة تماما. السور الجانبي للبناية بلا ملامح. لا فائدة من محاولة البحث أبعد من ذلك. لا فرق، وصل إلى نهاية الطريق. غاص في الأرض ودفن رأسه بين يديه. هذه هي النهاية. لم يعد قادراً على المضي أكثر. سيظل هنا، ويدعهم يعثرون عليه، وإذا قرروا إطلاق النار فليكن لهم ذلك، وإذا قرروا حمله وجرّه إلى مكان ما، فلن يعترض. يمكنهم التصرّف به كما يحلو لهم. لا يملك القوة اللازمة لمقاومتهم أكثر من ذلك.

«كريم»! رفع رأسه. تخيّل لوهلة للحظة مجنونة أن أحداً ينادي اسمه. «ها أنا أسمع في رأسي أصواتاً». شدّ يديه حول رأسه وفكرّ: «أنا أقترب من حافة الجنون دون شك».

هناك يد تقبض على كتفه وتهزّه. رفع عينيه إلى أعلى. «جمال»، قال بصوت منتحب، «هل أنت حقاً؟ أنت «جمال»؟

«أيها الغبي! أيها الغبي الأحمق!» قال «جمال» بهلع غاضب، «ماذا تفعل هنا بحقّ السماء؟ أين كنت طوال الوقت؟» توقف فجأة وقد تنبه إلى شحوب وجه «كريم»، ثم التقطت عيناه ساقه النازفة، «يا إلهي! ماذا حصل؟»

جمّدهما صوت سيارة تعبر فوق الطريق العام، مقتربة من المفرق. عمل «كريم» جاهداً ليقف على قدمه. سانده «جمال» بجسمه. راقبه وهو يحاول أن يخطو خطوات بائسة. رفعه وحمله بعدم صبر فوق كتفه، وغاص معه إلى قلب تلك الأرض الجرداء. ابتعد عن الأنظار خلف أحد المباني في اللحظة المناسبة. مرّت سيارة الجيب مسرعة فوق الطريق الذي جمعهما.

توقف «كريم» عن محاولة معرفة ما يدور من حوله، فما إن بدأ «جمال» الجري به حتى شعر بانقطاع نفسه وعودة الدوار إليه. عندما أنزله «جمال» عن ظهره وحاول إسناده إلى جوار البناية، توقف نهائيا عن التفكير. كان «جمال» يتفحّص الأرجاء للتأكّد من خلوّها من المخاطر «ماذا حلّ بساقك؟» قال لدى عودته إلى «كريم».

- رصاصة، إنها لا تزال هنا.

كان صوته يرتجف. الآن، و«جمال» إلى جانبه، سمح لنفسه بألا يقوم بعمل شيء. يريد البقاء في مكانه إلى جانب هذا الجدار، تاركاً لدموعه مجالا كي تنهمر بغزارة فوق وجنتيه.

انهالت أسئلة «جمال» باستعجال: هل رأوك؟ أين كنت؟ هل يبحثون عنك؟

«إنهم هناك فوق سطح المبنى»، أشار «كريم» بذقنه، «كنت مختبئاً داخل الركام، داخل سيارة قديمة»

- ماذا! طيلة ذلك الوقت؟

نبرة الاحترام في صوت أخيه منحته بعض الصلابة من جديد.

- نعم، واعتقدت أنهم ذهبوا هذا الصباح، فخرجت، لكنّ الجنود على سطح المبنى رأوني وأطلقوا النار عليّ. لم أنت هنا؟ وماذا كنت تفعل؟

- أبحث عنك أيها المجنون الكبير، ماذا كنت تعتقد غير ذلك؟

انحنى «جمال» لإلقاء نظرة على ساقه.

- أنت تنزف بغزارة، لا بدّ من إيصالك إلى المستشفى، متى حصل ذلك؟

- منذ فترة، ليست طويلة على ما أظن. لا أعلم، هذا الصباح. لا أريد أن أتحرّك، أنا أتألّم كثيراً، سأظلّ هنا، اذهب أنت واتركني، سأكون بخير، فقط أذهب.

أدرك وهو يقول تلك الكلمات أنه يهذي. لم يعره «جمال» انتباها. كان لا يزال يدرس المنطقة ويجري حساباته الدقيقة. قال بحنان وهو يجلس إلى جانب أخيه: حسناً «كريم»، أنظر إليّ. هل أنت قادر على السير؟

بلع «كريم» ريقه، وتصبّب العرق من جبينه خوفاً، لمجرّد التفكير بأن عليه السير من جديد. قال وهو يبلل شفتيه الجافتين بلسانه: لا أعتقد ذلك.

- إذا وضعت ذراعك حول عنقي، وشبكت ذراعي حول عنقك، هل يمكنك القفز معي على قدمك الثانية؟

- لا أنا.

- حاول من أجلي. لا بدّ من المحاولة. لا نستطيع البقاء هنا، وأنت تدرك ذلك. سيبحثون عنك. أنت تعلم ما يفعلونه بكلّ من يخرق حظر التجوال. علينا الوصول إلى المستشفى. هيا «كريم» انهض!

سحبه «جمال» ليرفعه عن الأرض. كبت «كريم» صرخة ألم أراد إطلاقها. لفّ «جمال» ذراعه بقوة حول جسم «كريم». كانت الخطوة الأولى هي الأسوأ على الإطلاق. شعر بذبذبات الألم تنطلق صاعدة من ساقه حتى أعلى فخذه، ثم إلى جذعه الأيسر كله. أطلق صوتاً متألما فزادت قبضة «جمال» قوة وحدّة. كان يحمل نصف وزن «كريم» ويجرّ النصف الآخر حتى وصل به إلى نهاية مربع المباني وتوقف عند جدار آخر مبني هناك. كانا على وشك الوصول عندما جاءهم صوت أزيز طائرة مروحية. كان الصوت واضحاً ولا مجال للشك فيه. توقف «جمال» لأقل من ثانية. نظر إلى السماء متجاهلاً صرخات «كريم»، ثم رفعه فوق كتفه بسرعة غريبة وانطلق به عبر المنطقة المكشوفة تماماً في اتجاه جدار في الجهة المقابلة. ألقاه من فوق الجدار ثم نحو ظل شجرة تين هائلة فردت أغصانها بعيداً للترحيب بكل قادم نحوها.

لم يلاحظ «كريم» تلك التفاصيل. لم يحس بجمال وهو يجثو بجانبه دون حراك. صوت المروحية اقترب كثيراً، ثم عاد وغاص في الأفق البعيد. أغمي على «كريم» لحظات عندما اصطدم بالأرض. شعر بأنه يذهب بعيداً في عالم غريب جداً. ألم ساقه كان الشيء الوحيد الحقيقيّ الذي لم يغب. جسمه كله يتمزّق ألماً.

طوال الساعة التالية، لم يقم «كريم» بأي فعل سوى التحمّل. تحمّل لحظات العذاب، بينما تحمّل «جمال» عبء جرّ جسمه حيناً، وحمله أحيانا، من مكان إلى مكان. لحظات من الهدوء الغريب كانت تفصل بين كل جولة وأخرى.

ظن «كريم» أنه محاط برائحة وقود، بينما كان «جمال» يجرّه عبر موقف سيارات تحت الأرض، ثم تراءى له وكأن باباً فتح، وبأنه سمع صوت محادثة هامسة، ثم في ذلك المكان المظلم شمّ رائحة تشبه رائحة القهوة. إنهما داخل بقالة، يستطيعان الآن الاستراحة قليلاً بين رفوف شبه خالية قبل أن يظهر شبح شخص ويقودهم عبر باب فتحه لهما ليؤدي بهما إلى الخارج من جديد.

اضطر «جمال» في وقت ما إلى تكويم جسم «كريم» في حزمة، ودسه بين مجموعة من حاويات القمامة، ووضع كفه على فمه ليمنع صدور أية صيحات منه. كادا يصطدمان بعربات الجيش مرتين خلال مسيرتهما التي تمركزت في مناطق معينة من المدينة لتغطية أكبر مساحة معينة لمراقبة منع التجوال، كلمة واحدة كانت تتردد في رأس كريم: ألم، ألم، ألم!

-٢٥-

مع وصولهما المستشفى عبر بوابات صدئة، واندفاعهما الأخير نحوساحة تنتهي إلى باب محطم، كان «كريم» في حالة شبه إغماء. سحب جمال نفسا طويلا، وأكدت له رائحة المعقّمات وأحجار الإسمنت المطلية باللون الرمادي، أنهما أصبحا الآن في أمان. كان الممر فارغا. ألقى «جمال» بأخيه فوق أول مقعد صادفه، وطرق بقوة على باب غرفة الطوارئ، فأطلّ منها أحد المرضين. بادره بغضب وعصبية: ماذا الآن؟

قال «جمال»: إنه أخي. لقد أصيب بعيار ناريّ.

تغيرت ملامح وجه الرجل فوراً. سارع نحو «كريم». انحنى عند ساقه وتفحّصها. قال «كريم» بصوت خافت وأسنانه ترتجف دون سيطرة: الرصاصة لا تزال هنا. هل ستكون ساقي بخير، أم ستقطعونها؟ هل سألعب الكرة من جديد؟

عدّل له الممرض جلسته في المقعد. قال له: سنعالجها بشكل جيد، لا تقلق.

والتفت نحو ممرضة كانت تمرّ بسرعة: اطلبي منهم أن يرسلوا كرسيّا متحرّكا بسرعة، لدينا بطل مصاب هنا

عندما استيقظ «كريم» من جديد، كان ممدّداً فوق سرير، في إحدى غرف المستشفى. ظلت عيناه مغلقتين للحظات، وهو يحاول أن يتعرّف على مكان وجوده. الألم في ساقه اليسرى موجود، لكنّه ليس حاداً. عاد واسترجع أحداث اليوم في مخيلته، وفتح عينيه. نعم! لقد أصابوه وأهدوه رصاصة في ساقه! ثمّ، وبأعجوبة، وفي أسوأ لحظات من لحظات حياته، ظهر «جمال». أنقذه وحمله إلى المستشفى! التفت إلى اليمين ليرى أسرّة مصطفة بنظام في الغرفة الطويلة، استقرّ فوق كلّ منها جسم مريض. كانت إحدى الممرضات تصل جسم مريض بأجهزة طبية، وامرأة أخرى بمعطف أبيض تسير في الغرفة بعيداً عنه.

«ماذا فعلوا بي»؟ فكرّ «كريم». «هل أجروا لي عملية»؟ لم يعد يذكر شيئا بعد أن قادوه بالكرسي إلى غرفة الطوارئ. حاول تحريك ساقه المصابة فوخزه الألم، لكنه ألم محتمل. رفع رأسه ونظر إلى ساقه من فوق غطاء السرير. تبدو ضخمة وكبيرة، لا بدّ أنها ملفوفة بكثير من الضمادات. تنهد براحة. ساقه لا تزال هناك، ولم يضطروا إلى بترها.

صوت من الجانب الآخر جعله يلتفت. كان «جمال» غارقاً في مقعد إلى جانب سريره، رأسه إلى الخلف وعيناه مغلقتان. كان يشخر بهدوء. انهمرت دمعة من عين «كريم»، انزلقت فوق جانب وجهه حتى وصلت أذنه فدغدغته.

لقد خرج باحثاً عني، ووجدني. خرج تحت حظر التجوال وحده، لقد أنقذني. كان يمكن أن يقتل، ببساطة.

كان فم «جمال» مفتوحاً تماماً. مسح «كريم» الدمعة، ثم ابتسم وهو يحاول تقدير المسافة بينهما «لو أنّ معي الآن حبّة بازيلا لقذفتها داخل فمه. كان ذلك سيوقظه»، فكرّ «كريم». وكأن «جمال» استشعر الخطر القادم نحوه فاستيقظ فجأة. تثاءب قليلاً

ثم قام وسكب كأساً من الماء من زجاجة قرب السرير وشرب بضع رشفات.

«ها قد صحوت أخيراً؟» قال برقة، وهو يقدم الكوب لأخيه. اكتشف «كريم» فجأة أنه كان في شدة العطش. شرب الكأس دفعة واحدة، ومدّها طالباً المزيد.

- ماذا تعني بقولك أخيراً، كم الساعة الآن؟

- حوالي السادسة، لقد مضت على وجودك هنا ساعات وساعات. هاي، تمهل قليلاً مع الماء. المستشفى يعاني من نقص في المياه.

بدأ الضباب في رأس «كريم» ينقشع.

- ماذا فعلوا بساقي؟ هل أخرجوا الرصاصة؟ أين هي؟ هل استطيع رؤيتها؟

- الآن! كيف عرفت أن هذا هو أول شيء ستطلبه عندما تصحو؟

دسّ يديه فى جيب سترته، وأخرج منها رصاصة مدببة مطلية بالنحاس، ووضعها في كفّ «كريم».

- غبت في غرفة العمليات وقتا طويلا جداً. حفروا عميقاً لإخراج الرصاصة، ثم خاطوا ساقك.

تفحص «كريم» الرصاصة بإمعان، «إلهي، إنها كبيرة جداً. لا عجب أنها سبب كل هذا الألم، أعني، هل قالوا إنّ ساقي ستكون بخير؟ أعني هل.

- لا، ستشلّ طوال حياتك، ولن تتمكن من السير من جديد.

كان «جمال» يداعبه، لكنه لاحظ أن وجه «كريم» شحب من جديد، وأن عينيه اغرورقتا بالدموع، فسارع لإصلاح الموقف: لا، كنت أمزح أيها الأخ الصغير. لم تكن القصة أكثر من جرح داخل اللحم، ليس هناك ما هو جدّي. قال الطبيب إن جرحك سيلتئم خلال أسبوع أو اثنين. بطل كرة القدم في العالم لا مشكله، لقد حالفك الحظّ، وكانت الرصاصة على بعد سنتمر واحد من العظم، ولو أنها أصابت العظمة لكانت هشمتها إلى قطع.

تنهد «كريم» وأغلق عينيه. أراد أن يقول الكثير لأخيه، وأراد أن يطرح عشرات الأسئلة التي تدور في رأسه، لكنه في هذه اللحظة شعر بضعف شديد، وهاجمه النعاس بقوة. «متى سنتمكن من العودة إلى البيت؟» هذا كلّ ما استطاع قوله. قال

«جمال»: لا أعلم. حظر التجوال لا يزال مستمراً، أم أنك لم تلاحظ هذا؟ نحن عالقان هنا حتى يسمح لنا سادتنا بالذهاب.

مرّ اليومان التاليان ببطء. كان جوّ المستشفى غريباً. لم يتمكّن أحد من الدخول أو الخروج. الأطباء والممرضون الذين كانوا في المكان عند فرض حظر التجوال لا يزالون يعملون. هالات من السواد تحيط بعيونهم من التعب، والماء بدأ ينفد لديهم، وباتوا يتعاملون مع ما لديهم من مخزون بحرص شديد.

قال الممرض وهو يداعب «كريم» عندما جاء لتغيير ضماداته وفحص حرارته: حاول ألا تتنفس عندما أمرّ بجانب سريرك. سوف يغمى عليك من رائحة العرق المنبعثة مني. لم يستحمّ أي منا منذ أيام طويلة، وإذا خلعت ملابسي الآن، فأنها ستمشي وحدها هاربة بعيداً عني.

انتشرت مغامرة «كريم» وعملية الإنقاذ البطولية التي قام بها «جمال» في أنحاء المستشفى، وبات الاثنان موضع احترام الجميع. ورغم شحّ الطعام المتبقّي في المخازن، حرص الممرضون دائماً على توفير طبق مليء بالطعام لكريم، وقدموا لجمال القليل مما توفر لديهم، أخذ القليل منه وهو محرج. حاول «جمال» إلهاء نفسه بالنظر عبر النافذة، مشيحاً بنظره عن «كريم» كلما قدموا له الطعام تجنباً للإحراج.

قال الرجل العجوز المستلقي في سرير قريب عندما مرّ «كريم» من أمامه في طريقه إلى المرحاض الذي بدأت رائحته تفوح لقلة الماء: هذا جرح مشرّف. لو كنت صغيراً في مثل عمرك لكنت انتقمت لك منهم.

عدد من أقارب المرضى مثل «جمال»، وجدوا أنفسهم محتجزين داخل المستشفى. كانوا ينامون في أي مكان يتاح لهم استخدامه: فوق الأسرة المتحركة، أو في غرفة العلميات، مع احتمال طردهم في أية لحظة تصل فيها سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر كان صفيرها ينبئ بأن حالة طارئة وصلت.

تمكن «جمال» من استعارة ورق لعب من أحدهم، وحالما استعاد «كريم» قوته، وتمكّن من الجلوس والحركة، باتا يمضيان الساعات تلو الساعات في لعب الورق. تجادلا حول النقاط، واتهم كل منهما الآخر بمحاولة الغش ليفوز.

قليلاً قليلاً بدأ «كريم» يحدّث «جمال» عن الفترة التي عاشها داخل السيارة. حدّثه عن الفزع الذي أثارة وجود الدبابة قريباً منه، وعن القطط، وسعادته لوجودها معه

وتسليته، لكنه لم يحدثه عن الجندي الذي بدا له في لحظة مثله. «ربما كان ذلك من صنع خيالي، لكن وفي كل الأحوال سيظن «جمال» أني شعرت بعاطفة ما نحو ذلك الجندي لو قلت له ما يدور في رأسي».

كانت اللعبة على وشك الانتهاء، والمساء قد اقترب، وقد أمضيا ساعتين متواصلتين في اللعب. توقف «كريم» لحظة وقال: كنت أظن أني أحلم عندما ناديت عليّ ونحن هناك. كنت استسلمت لقدري في تلك اللحظة، وقررت أن أسلّم نفسي لهم. ألقى ورقته الأخيرة أمام «جمال». كانت الورقة التي حسمت الموقف وتوّجت فوز «جمال» في تلك الجولة. ألقى نظرة حالمة عبر النافذة، «أنا لم أعبر لك عن شكري، ليس بطريقة واضحة، لقد أنقذت حياتي حقاً».

مرّر «جمال» أصابعه فوق أوراق اللعب، وأخذ يخلطها ويرتّبها، «سأفكر في هذه المسألة جيداً»، قال، وقد بانت أسنانه البيضاء وسط وجهه الأسمر عندما ابتسم. «أعني، سأفكر في المسألة من زاوية الربح والخسارة. كنت سأرث منك مجموعة ملصقات عمالقة كرة القدم، وسأستعيد مجموعة سيارات السباق الصغيرة التي لطشتها مني وأنت في الخامسة».

«كريم»! هذه أمّك على الهاتف ثانية». قال المريض في السرير المقابل، منادياً وملوّحاً بهاتفه المتنقل في اتجاه الأخوين. مدّ «جمال» ذراعه وأخذ الهاتف وأعطاه لكريم. استمع «كريم» لدقائق لصوت أمه الذي حمل أسئلة متلاحقة أجاب عليها قدر الإمكان. كانت لمياء تتصل به كلّ نصف ساعة تقريباً منذ أن هاتفها «جمال» وأبلغها بمكان وجود «كريم» ووضعها في صورة حالته الصحية. الهواتف النقالة القليلة التي ظلّت تعمل، وضعت في خدمة الجميع، وباتت توفّر خدمة التواصل مع الخارج لجميع المرضى. قال، وهو يعيد الهاتف إلى صاحبه، شاكراً إياه بابتسامة عريضة: ماما تقول إنها سمعت بأن حظر التجوال سيرفع صباح الغد.

تثاءب «جمال» ومدّ ذراعيه: شكراً لله، إذا لم أتناول وجبة حقيقية وأنام في سرير طبيعي قريباً، فأنني سأفقد عقلي بالتأكيد.

في النهاية، يوم آخر وينتهي حظر التجوال. مع نهاية الليل، بدأت الدبابات بالتحرك، ومغادرة المدينة مع شروق الشمس. وقبل أن تضرب أشعة الشمس النافذة المغبرة خلف سرير «كريم»، كان حسان العابودي يقف عند سرير ابنه. فتح «كريم» عينيه. ابتسم وقال بصوت ناعس: بابا!

- أهلاً حبيبي، شكراً لله، شكراً لله!

أمسك حسان بيد «كريم» واحتضنها في صدره برقّة وحنان، كمن يمسك بشيء ثمين ورقيق وقابل للكسر

جلس «كريم» في سريره وألقى بذراعيه حول عنق أبيه: إنّ ساقي فقط تؤلمني يا بابا. إنها أفضل بكثير الآن. لقد غيرت الطبيبة الضمادات ليلة أمس، وكانت لطيفة جدا، وجلبت لي عكّازات. أنا استخدمها بمهارة. قالت لي إنني أستطيع العودة إلى البيت حال رفع حظر التجوال. هل أحضرت السيارة معك؟ هل نستطيع الذهاب إلى البيت الآن؟

رائحة البيت ملأت رأسه بمجرّد أن وصل أمام باب الشقة الذي فتح على مصراعيه لاستقباله. قفز فوق درج البناية مع عكازتيه، ووصل أمام الباب. كان شعوره لا يوصف. كانت لمياء قد هرعت إلى السوق لشراء ما يلزم حالما تأكدت من ابتعاد الدبابات، وعندما وصل حسان العابودي وأولاده، كانت مائدة إفطار شهيّة جداً أعدّت لاستقبالهم. أنواع من الخبز الطازج الساخن، بيض مقلي، عسل، عصير برتقال. رائحة زيت الزيتون اخترقت فتحتي أنف «كريم»، ممزوجة بروائح صابون الاستحمام ومواد التنظيف التي تستخدمها أمه لتلميع البلاط، وكلّ هذا شكّل عطراً رائعاً ومميزاً انتشر في الأرجاء، عطراً لم يلاحظه «كريم» من قبل. التقطته لمياء بين ذراعيها وخبأته داخل صدرها، وأغرقته بدموعها التي سالت فوق رأسه. شعر بقدميه ترتفعان عن الأرض، وبقلبه يلتحم في قلبها.

- حبيبي، أيها الغالي، اعتقدت أنني لن أراك أبداً، شكراً لله، شكراً له على أنك هنا من جديد!

قادته إلى الكنبة وجلست ملتصقة به. مرّت بأصابعها فوق شعره، وربتت على يديه. مال بجسده بعيداً عنها. شعر للحظة بأن استمرار هذا الموقف سيدفعه إلى البكاء

والارتماء في أحضانها. امتزجت مشاعر غريبة داخله. بدا الوقت الذي قضاه خارج المنزل طويلاً جداً، وبدا وكأنّ الصبي الذي خرج قبل أيام ليلعب الكرة عاد مخلوقاً مختلفاً. رفعت له لمياء ساقه ومدّتها فوق الكنبة وأحضرت له الإفطار. قالت بلهجة آمرة وهي تضع بين يديه طبقاً من البيض المقلي: هيا، حدِّثنا، قل لنا كلّ شيء.

حاول أن يتجنب الأسئلة، متعللاً بالطعام في فمه، حتى لا يخوض في التفاصيل. سيحدثها ويقول لها كل ما تريد سماعه يوماً ما. لقد أفرغ كلّ ما في جعبته أمام «جمال»، وكان ذلك كافياً بالنسبة له في تلك اللحظة.

واصل جرس الهاتف رنينه. لم تشأ لمياء الابتعاد عن «كريم». أومأت إلى زوجها الذي حمل الهاتف وذهب إلى غرفة أخرى.

قال «جمال» وهو ينحني نحو الكنبة ويلتقط لقمة من صحن «كريم»: لم أكن أعرف أنك مشهور إلى هذه الدرجة. كلّ الناس في رام الله اتصلوا بنا. الهاتف يرنّ كل خمس دقائق للسؤال عنك. أما جدّتي، فهي تتصرّف بجنون. لقد أذاعت القصة وروتها لكلّ شخص في القرية، مع قليل من الإضافات هنا وهناك. قد نفاجأ أنا وأنت غدا بتفاصيل لا نعرفها.

قال حسان العابودي، وكريم يضع آخر لقمة من الخبز والعسل في فمه، ويزيح طبقه جانباً: كان هذا جوني على الهاتف.

قال «كريم» بشوق: جوني! سأتحدث إليه.

قال حسان العابودي دون أن ينظر في عينيه: لقد أبلغته أنك ستحادثه فيما بعد.

- لماذا، ما الأمر؟

ساد بعض الصمت، ثم عاد ينقطع مع انطلاق صوت المذيع من التلفاز. لم يهتمّ أحد بمتابعة الشاشة الصغيرة. (الدبابات الإسرائيلية قصفت مبنى سكنياً مزدحماً بالسكان في مدينة رفح ليلة أمس، قتل تسعة أشخاص وجرح. .)

لم يصغ «كريم» إلى الخبر، كان يتفحص وجوه أفراد العائلة حول طاولة الطعام.

- ماذا هناك؟ ما الذي يجري؟

قالت فرح: «إنهم ذاهبون». تراقصت في مقعدها لكونها الأولى التي تبوح بالنبأ، «عائلة جوني كلّها ستذهب إلى أميركا».

«قال «جمال» محاولاً تخفيف وقع الكلمات: ليس إلى أميركا، إلى عمّان، الأردن. لكن هذا أيضا سيء.

نظر «كريم» إلى «جمال» بفم مفتوح: «جوني؟» سينتقل؟ سيذهب؟

قالت لمياء وهي تحدج فرح بنظراتها: حبيبي، كنا سنخبرك بالأمر في وقت لاحق، أعني عندما تسترد بعض قوتك. لقد أمضى جورج وروز الأشهر الماضية وهما يدرسان المسألة، وقرّرا في النهاية أن يرحلوا، لأن هذا في صالح العائلة جميعها، إنهم محظوظون حقاً، لأن أمامهم مثل هذه الفرصة، لقد اتصلوا ليلة أمس وأبلغونا بقرارهم هذا.

مكتبة الرمحي أحمد

.سيتركون فلسطين؟

قال حسان العابودي بتنهيدة طويلة: لفترة مؤقتة، هذا ما قاله جورج لي، أخوه إلياس في عمان، وفي انتظاره فرصة جيدة للمشاركة في مشروع تجاري هناك، كما تنتظر جوني مدرسة جيدة. لم يتخذ قراره بسرعة، أعني أن هذه العائلة، عائلة بطرس، عاشت في رام الله ودير الدولاب طيلة حياتها.

- ومتى سيذهبون؟

- في أقرب فرصة ممكنة، جورج يرتب الأمور لتسليم دكانه إلى أحد أبناء عمه، ربما ستتم المسألة خلال أسبوعين.

الكنبة! الغرفة! والداه! والشقة كلها بجميع محتوياتها بدأت تتحرك أمام عيني «كريم».

- لا يمكنهم الذهاب الآن، على الأقل حتى العطلة الصيفية، على فيوليت تقديم امتحان الثانوية.

همهم «جمال»: يمكنها تقديمها هناك، في الأردن.

قام واتجه نحو النافذة وسرح بعيداً، يداه في جيوبه، وكتفاه وظهره منحنيان إلى الإمام في وقفة شاعرية ممزوجة بالأسى. التقط «كريم» عكازه ثم الهاتف، وبدأ يقفز متجهاً نحو غرفته. قالت لمياء وهي تقفز خلفه: عزيزي، انتبه لساقك، عليك توخّي الحذر، ينبغي أن تستلقي في سريرك.

أغلق باب غرفته تاركاً صوت أمه خلف الباب. جلس في سريره، واستعدت أصابعه للضغط على الأرقام التي يعرفها أكثر من غيرها في العالم «لا يمكن أن يكون ذاهبا. سيقول لي إن هذا الخبر غير صحيح»، فكرّ «كريم»

أجاب جوني على الهاتف بنفسه فور انتهاء «كريم» من طلب الرقم: «كريم»؟ هل أنت بخير؟ ماذا! هل جننت؟ لماذا لم ترجع معنا عندما انطلقنا مبتعدين؟ كدنا نموت خوفاً وقلقاً عليك. اعتقدنا أنك أصبحت جثة هامدة. ماذا يقول الأطباء عن ساقك؟ هل أعادوا إليك الرصاصة؟ إنها كبيرة، أليس كذلك.

شعر «كريم» بحساسية عالية تمسّ قلبه، حساسية لم يعرفها من قبل. لاحظ نبرة من الشعور بالذنب والحرج في صوت جوني، رغم جوّ المزاح الذي حاول إشاعته. قال محاولاً الحفاظ على الجو المرح نفسه: سيحتاجون إلى أكثر من رصاصة واحدة ليروني ميتاً.

ساد صمت غريب:

- هل.

- أنت.

شرعا في الكلام في اللحظة نفسها ثم سكتا. عاد جوني واستطرد.

- هل اختبأت حقاً داخل السيارة طوال ذلك الوقت؟ لا بدّ أنك ارتعدت من الخوف، هل كنت جائعاً؟

- جداً، لكن الزجاجات التي أحضرتها ساعدتني كثيراً. أنا مدين لك بذلك، لقد أنقذت حياتي.

- لم يعرفوا أنك كنت هناك؟ كنت بالقرب منهم تماماً ولم يعثروا على السيارة. يبدو أنهم لم يفتشوا المكان جيداً.

- لقد انقلب المكان رأسا على عقب، والرّكام تحرك من مكانه. أغلقوا المدخل المؤدّي إلى السيارة، دخلت إليها من فتحة ضيقة في الأعلى. لقد عاثوا في المكان خراباً. حرثوا الأرض كلها وتناثر الإسمنت والأشياء الأخرى فوق المكان الذي نظفناه ليكون ملعبنا. سنحتاج إلى وقت طويل كي نعيده إلى ما كان عليه.

لم يقل جوني شيئاً. تخيله كريم واقفا يحمل الهاتف قرب أذنه، عابسا، محبطا، ،

شارد الذهن، يرفس بإحدى قدميه ولا يعرف ماذا يقول.

قال «كريم»: هل هذا صحيح؟ لست ذاهباً إلى عمان؟ هل أنت ذاهب؟ لن تغادروا رام الله؟

أدرك أن لهجته كانت حادّة مشبعة باللوم. كان الأمر خارجاً عن نطاق سيطرته. وصله صوت جوني مبحوحاً وخافتاً: «لم تكن فكرتي»، ثم عاد صوت جوني الطبيعي الذي يعرفه: «أتعتقد إنني لم أعترض؟ هدّدت بأنني لن أذهب معهم، وسأظلّ هنا. قلت لهم ذلك، لكن بلا فائدة؟ إنهم عائلتي، وعليّ الذهاب معهم إذا ذهبوا. هذا آخر شيء أريد القيام به في حياتي».

- حقا؟ حقا؟

قال جوني بحرارة: بالطبع. لا أريد أن أترك البيت، ولا الابتعاد عنك، ولا عن ملعب الجندب ولا عن. فلسطين، ماذا تظنني؟

- شخص مخبول، هكذا كنت، وهكذا ستظلّ دائماً.

- حسنا، أنا مخبول، لكنني لست مخبولا سعيدا، رام الله كانت دائما بيتي، وهكذا ستبقى دائما.

- ستأتي إلى هنا بين حين وآخر، أليس كذلك؟ أعني، عمّان ليست بعيدة جداً.

قال جوني بصوت أكثر راحة، وكأن الخطوة الأصعب أنجزت: بالطبع سأفعل. المسألة كما يقول بابا طوال الوقت ليست أكثر من إجراء مؤقّت في انتظار تحسن الأوضاع قليلاً هنا.

«هذا ما ظل اللاجئون يكررونه طوال حياتهم»، أوشك «كريم» أن يقول، لكنه تدارك ذلك في اللحظة الأخيرة، وانتقل إلى القول: سيموت «جمال» إذا لم يتمكّن من رؤية فيوليت مرة أخرى.

ضحك جوني: فيوليت أيضاً ستموت إذا لم تتمكّن من رؤية «جمال». ومنذ قيامه بتلك العملية البطولية لإنقاذك وهي لا تكفّ عن الحديث عنه. حالها الآن ليست أفضل من حاله.

ساد الصمت من جديد، ثم قال «كريم»: لم تسمع شيئاً من الجندب، أليس كذلك؟ لقد كان مذهلاً يا جوني، لو رأيته! كان يقذف حبات الباذنجان نحو الدبابات وكأنها

قنابل يدوية، ثم وفي لحظة لا يمكن تصديقها، انطلق نحو دبابة، وتعلق بمدفعها وتأرجح عليه.

- لا، غير معقول!

- صدقني، هذا ما حصل، لم أصدّق عينيّ. لقد تأرجح عليها، ثم انطلق نحو المخيم، بينما كان الرصاص ينهمر نحوه. أعتقد أنهم أصابوا يده أو منطقة أخرى من جسده.

- بلى، أصيب برصاصة فوق كوع يده، وظلّ عند أخته في بيتها طوال الوقت. اتصل بي من هناك، كان قلقاً عليك، قال إنه رآك تسقط، وإن كاحلك التوى. لم يعتقد أنك تمكنت من الفرار. اتصلت به أمس وأبلغته أنك في المستشفى، وحدّثته عن الرصاصة وكلّ شيء. لقد بدا في غاية الإعجاب والانبهار.

انتاب «كريم» شعور جميل بالفخر: وكيف هي ذراعه؟ هل جرحه كبير؟

- لا، لم تؤذ الرصاصة عظم اليد، هو شخص محظوظ جداً، لقد نجت ذراعه بأعجوبة، خدش بسيط، هذا كل ما في الأمر. اسمع "كريم"، لم لا آتي لزيارتك الآن؟ يمكننا أن نذهب سوياً إلى المكان، فربما نجده هناك.

- لا أستطيع، ستصاب أمي بذبحة إذا خطوت خطوة واحدة. أستطيع السير مع عكازي، لكنني لا أستطيع الوصول إلى مكان بعيد، مثل ملعب الجندب.

قال جوني متلعثماً: آسف، آسف جداً. لم أكن فكّرت في الأمر. أنظر، أنا قادم. سأكون عندك خلال نصف ساعة.

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

https://t.me/ktabpdf

قرع جرس الباب بعد ساعة. توقفت لمياء عن محاولتها تقييد «كريم» إلى كنبته. أخرجت زفرة عميقة عندما قفز «كريم» على قدم واحدة وفتح الباب. لم يكن جوني وحده، كانت عائلة بطرس بجميع أفرادها. قال حسّان العابودي وهو يقترب من خلف «كريم»: جورج، روز، وفيوليت أيضاً. وأضاف برقة وحنان: تفضلوا، أهلاً وسهلاً.

قالت روز وهي تنظر إلى «كريم» وتقبل لمياء المرة تلو الأخرى: كان لا بد أن نراه بأمّ أعيننا لنطمئن عليه.

أبعدت لمياء نفسها بسرعة: سعيدة برؤيتكم كثيراً. «كريم»، عد إلى الكنبة، أنت تعلم جيداً أن عليك إبقاء ساقك ممدودة، أين جوني؟

- كان خلفنا، سيصل في أية لحظة.

كان المشهد كعهده دائماً عندما تجتمع العائلتان لتحتفلا سوياً بأعيادهما. في عيد الميلاد تذهب عائلة العابودي لزيارة عائلة بطرس، وفي عيدي الفطر والأضحى تأتي عائلة بطرس لزيارة العابودي. شهدا معاً مناسبات عديدة، وتناولا وجبات لا تحصى، وخرجا في رحلات ترفيهية عشرات المرات. لقد تشاركا سوياً في مختلف جوانب حياتهم.

هذا اللقاء ليس كاللقاءات السابقة. بدا التوتر على الجميع. قد يكون آخر لقاء بين العائلتين على هذا النحو. كانت الفكرة مرعبة، وأقرب إلى المستحيل.

جلست فرح تمصّ طرف كمّ قميصها، ثم همست في أذن «كريم»: لا تدع جوني يخرج إلى الشرفة. بدت عيناها قلقتين.

- ولم لا؟

- أغطية سريري معلّقة هناك لتجفّ، سوف يفهم إذا رآها.

تأثر «كريم»: لن يلاحظ شيئاً، وحتى لو لاحظ، فكيف يعرف أنها أغطية سريرك؟ يمكن أن تكون لأي منا!

- قد يدرك!

وضع طرف إصبعه فوق أنفها وضغط عليه. دهش لمشاعره المتعاطفة جداً معها.

- سأجري معك اتفاقا، أنا سأبقي جوني بعيداً عن الشرفة شريطة أن يظلّ فمك مغلقاً وتتوقّفي عن نشر أخبار الآخرين وأسرارهم من فوق السطوح، اتفقنا؟

هزّت رأسها وبدت ملامحها جادّة. خصلات شعرها الأسود المتماوج احتضنت وجنتيها.

قالت فيوليت بصوت رقيق أشبه بصوت الأطفال الصغار: ما هذه الأسرار بينك وبين أخيك الوسيم يا فرح؟ ثم أضافت: آه، أنظروا إلى هذه الجوارب الجميلة، زهري، سأشتري لنفسي جوارب مثلها.

قالت فرح: لا يوجد في عمان مثلها، يمكن فقط شراؤها من فلسطين.

عضّت على شفتها والتفتت نحو «كريم» خشية أن تكون كسرت بنود الاتفاق الذي عقداه للتو. لم يكن «كريم» مصغياً إليها، وكان جوني قد دخل من الباب.

اقترب، وضرب بقبضته كتف «كريم»: أهلاً بك أيها الرجل! وبدأ الجميع يستقرون في مقاعدهم التي تزاحمت عند أفضل نقطة في غرفة الجلوس. وزّعت لمياء أمام الجميع صحونا صغيرة من المكسرات، وأطباقا من البطاطا المقرمشة. قال حسان العابودي: والآن يا «كريم»، كلّنا آذان صاغية، أرِ لنا القصة كلّها، منذ البداية.

نادت لمياء وهي في طريقها من المطبخ: انتظر قليلاً! انتظر حتى أجهّز القهوة وأجلس معكم!

«سأعود بعد دقيقة يا بابا»، قال «كريم» وهو يرفع جسده عن الكنبة، ويجرّ جوني معه، متّجهاً إلى غرفة النوم. أغلقا الباب خلفهما.

- إذن، كيف هي ساقك الآن؟ ألا تزال تنزف، وهل تبدو بحال سيئة؟

- لا، لكن فيها ثقباً كبيراً، وهي تبدو متورّمة جداً، لن تصدّق منظرها!

قال جوني مظهراً إعجابه: لو أنهم أصابوني لملأت الدنيا صراخاً وأنينا، ولسلّمت نفسي لهم. كنت سأفعل.

لم يعرف كريم بماذا يجيب: أجل، حسنا.

عندما أصابوك، لا بد أنك كنت مرعوباً

قال جوني: كيف كان الحال وأنت في السيارة؟ طوال الليل، وكلّ شيء! كنت سأموت فزعاً. أعرف أنني كنت سأموت. وعندما أصابك الرصاص، لا بدّ وأنك ارتعدت كثيرا من الخوف!

- لا أريد العودة إلى التفكير بذلك، وكما قلت لك على الهاتف، لولا زجاجاتك، ووجود عزيزة، التي كانت رائعة، على الأقل في الليلة الأولى. ثم هناك القطتان الصغيرتان. كان هناك جندي يبدو أنه يحبّ القطط، سحبها مني وقدّم لها طعاما. وفي الليلة الثانية حملت طفلتيها واختفت. عندما غادرت، شعرت بأنها تخونني أو بشيء من هذا القبيل.

توقف «كريم» محرجاً. لم يبد على جوني الاستغراب أو الانزعاج. قال مستطردا: لقد ارتكبت عزيزة خطأ كبيراً.

- ماذا تقصد؟

- لقد التقيت لتوّي بالجندب، لهذا وصلت متأخراً بعض الشيء، أبلغته أنك خرجت من المستشفى. كان قلقاً عليك، كان يعلم أنك لم تبتعد عن المكان، وخشي أن تكون اختبأتَ داخل السيارة، لأنه أعتقد أنهم سيقلبون المكان، وأن الدبابة سوف تدوس فوق السيارة وتسوّيها بالأرض. أوشك على البكاء من الفرح عندما علم أنك بخير.

بان السرور على وجه «كريم»: سأتصل به بنفسي، هل لديك رصيد في هاتفك؟

أخرجه جوني من جيبه: انتظر، هناك شيء آخر، عندما رفع حظر التجوال هذا الصباح، ذهب إلى الملعب ليتفقده، ووجد جنجر هناك.

- حسناً، إذن عزيزة لا تزال هناك، أليس كذلك؟ اعتقدت لوهلة أنها ذهبت معهم على ظهر الدبابة.

ولم يعد قادراً على إخفاء المرارة التي ظهرت في صوته.

- لم تذهب معهم، لقد رآها هناك في الملعب مع الصغيرة، كانتا بخير، لكن جنجر لم تكن كذلك.

توقف جوني ونظر بعيداً: لقد وجدها ميتة يا «كريم»، الدبابة سارت فوقها ودهستها.

«آه، لا يا إلهي»، قال «كريم» مع صرخة ألم. شعر فجأة بفروها الناعم وهي تتقلب بين يديه قبل أن يساعدها على الخروج من السّيارة، معتقداً أنه بذلك يطلقها نحو الحرية. بعبثية تامة، وبلا مشاعر، سارت الدبابة فوقها، حتى دون أن تدرك أنها تفعل ذلك.

أشاح «كريم» بوجهه وهو يقاوم الدموع التي تسابقت إلى عينيه. «حملها الجندب وأخذها إلى بيته»، قال جوني، «دفنها إلى جانب حوض الأزهار أمام بيته، أتذكر، تلك الأزهار قرب باب المنزل».

قال «كريم» بصوت ثقيل: «جنجر! لا أصدّق ذلك، كانت». «كانت حيّة وحيوية جداً»، أراد أن يقول.

استعادت ذاكرته آخر لحظات أمضاها في صحبة القطة، عندما قرّرت الانطلاق بشجاعة وحدها مخترقة أكوام الركام.

فتح الباب وأطلت لمياء. قالت بابتسامة حنونة ودافئة: «كريم»، جدتك على الهاتف، وهي لا تريد أن تصدّق أنك حيّ إلاّ إذا سمعت صوتك.

قال «كريم» وهو يأخذ شهيقا قويا: سأتصل بها لاحقاً يا ماما.

قالت لمياء وهي تمدّ سماعة الهاتف نحوه: لا يا حبيبي، إنها تنتظرك على الخط.

احتمل «كريم» الدقائق الخمس التالية مع صراخ جدته بوابل من الأسئلة. حاول إبعاد السماعة عن أذنه، وشعر بالارتياح عندما جاءه صوت عمه عبر الهاتف. إنه العم أبو فيصل. قال صوت العجوز المتهدج: حسنا، أنت الآن تعلم كيف هو الحال في السجن يا «كريم»، رغم أن سجنك كان لبضع ساعات فقط. كيف شعرت حينها؟

- أسوأ شعور في الكون يا عمّي، لقد كرهت كل لحظة.

- لكنك نجوت، ولم ترتبك، وهم لم يعثروا عليك، كنت صبوراً جداً، وهذا هو المهم في الأمر.

- لم يكن أمامي خيار آخر.

وتذكر الروائح العديدة والكريهة التي انبعثت من السيارة، فارتجف: لم يتمكنوا من تحطيمي، لن أسمح لهم بذلك، لن يستطيعوا هزيمتي.

سرت عبر الهاتف قهقهة جميلة.

- ولا حتى عندما يطلقون رصاصة في ساقك؟ أنت صبيّ جيد يا «كريم». وكيف حال أخيك الوسيم ذلك؟ إنه بطل أيضا، نوعا ما. فهو اخترق الحصار بحثا عنك. هل ما زال يلقي بالحجارة على الدبابات، ويحطم قلوب الفتيات؟

- لا علم لي بذلك يا عمّي.

- هذا عظيم. لا تبح بأية كلمة، فالأخوة يحافظون على أسرار بعضهم بعضا. لكن قل له أن يكون حذراً وإلا فقد يصاب هو الآخر برصاصة يمكن أن تؤذيه بشكل جدي، ليس في ساقه فقط، هل أستطيع محادثة والدك الآن؟

مرّر «كريم» الهاتف إلى والده. جلس على الكنبة رغماً عنه بعد أن أومأت له أمه بأن يفعل. قالت روز: «كريم»، كان جوني قد حدثنا عن ذلك النشاط المجتمعي الذي تقوم به أنت وهو مع مجموعة من الصبيان في مخيم اللاجئين.

أغلق عينيه ثم عاد وفتحهما، والتفت إلى جوني طالباً توضيح الصورة. قال جوني محاولاً تبسيط المسألة: نعم. هذا صحيح. كنت حدثتهم عن محاولاتنا بناء موقع رياضي في المخيم، أعني أنت تعلم، مكان لأولاد المخيم، ليلعبوا فيه الكرة.

قالت لمياء: إذن، هذا ما كان يشغلك عنا طوال الوقت! لم تقل لنا ذلك يا عزيزي؟ لقد ظننا أشياء كثيرة، وخشينا أن تكون متورّطا في أعمال تعرض نفسك للخطر

حاول «كريم» عدم النظر إلى جوني. ارتبك قليلاً: لماذا لم نقل لكم؟ لا أدري! كنا نريد للمشروع أن يكون مفاجأة. لكن ها قد أذيع السرّ الآن، جاءت الدبابات إلى المكان وعاثت فيه فساداً وأزاحت أكوام المخلفات وأعادتها إلى وسط المكان الذي نظفناه.

«لا لا!» قال جوني بنبرة غير معهودة، فالتفت الجميع نحوه. لاحظ «كريم» الدموع في عينيه، فأشاح بنظره حتى لا يحرج صديقه. تصلبتت فرح من الإثارة. نظر إليها. كانت تومئ نحو الكنبة المقابلة حيث جلس «جمال» وفيوليت متلاصقين تقريباً.

فتحت فرح فمها، وقبل أن تتفوّه بكلمة، أو تلفت الانتباه إلى ما رأته، لكزها «كريم» بكوعه وأشار إلى جوني الذي وقف وسار في اتجاه المطبخ. الأغطية معلقة هناك في

شرفة المطبخ، وباب الشرفة مفتوح. شهقت فرح ونظرت إلى «كريم» ووضعت يدها فوق فمها. تردد «كريم» ولم يكن متأكداً مما يجب عمله.

في زاوية الغرفة، ظهر المذيع من جديد على الشاشة الصغيرة: أطلق سراح عدد من المعتقلين هذا الصباح من سجن المسكوبيّة في القدس. أعداد هائلة من المواطنين تجمعت عند المنارة في رام الله للترحيب بهم.

« جوني!» نادى «كريم» بصوت عالٍ، «هل سمعت ذلك؟ تعال وانظر، لقد أطلقوا بعض السجناء، ماذا عن سليم؟ هل سيكون من بينهم؟ هل قال الجندب شيئاً؟»

عاد جوني إلى الكنبة وصوّب نظره نحو التلفاز. أهدت فرح ابتسامة شكر وامتنان لكريم. قال جوني: لا، لم يحدثني بذلك.

شعر «كريم» بدفقة من الفرح. أخبار الإفراج عن السجناء أشعلت نارا في قلبه. وصل إلى عكازيه: أريد الذهاب إلى هناك الآن، إلى المنارة، أريد رؤية ما يجري. من فضلك بابا، هل توصلني بالسيارة؟

قالت لمياء مع ضحكة خفيفة: إلى وسط البلد؟ هكذا! بقدمك هذه؟ ومع كلّ الازدحام هناك؟ لا أدري كيف تفكر يا حبيبي؟

يبدو أن هاجس الخروج، والتواجد بين الجموع، والاحتفال بشيء جماعيّ، بعد الأيام الطويلة التي أمضاها الجميع في بيوتهم بسبب حظر التجوال، سيطر على أذهان الجميع.

قال حسان العابودي بتردّد: إذا أوصلتك إلى أقرب نقطة، وإذا استخدمت عكازيك بحذر.

قال «جمال» مقاطعاً، وهو يسترق نظره جانبية إلى فيوليت: لا تظنّ أنني سأحملك. لن أفعل ذلك ثانية، ظهري لم يشفَ بعد من المرّة الأخيرة.

انتقلت حماسة اللحظة إلى لمياء فقالت وهي تتوجه إلى غرفة نومها: «انتظروا لحظة حتى أرتب شعري. أرفض أن أظهر بهذا الشكل في وسط المدينة. الجميع سيكون هناك».

بفعل أشعة الشمس القوية المرتدة عن الأحجار البيضاء للأبنية في رام الله، اضطر كريم أن يغلق عينيه وهو يحاول الخروج من السيارة التي شقت طريقها بصعوبة وسط ضجيج الشوارع المزدحمة، مباشرة نحو مركز المدينة، وسيارة عائلة بطرس تتبعها. أوقفوا السيارتين في شارع فرعي ضيق، وانضموا إلى الجماهير، محاولين شقّ طريقهم نحو دوار رام الله الصغير حيث المنارة، بالنصب المعدني ذي الأعمدة التي تعلو أربعة أسود حجريّة تربض حول محيطة. تزحم السيارات هذا الميدان في العادة، لكن أعداد المشاة اليوم، لم تسمح إلا للقليل من السيارات والباصات بالمرور.

عندما استدار كريم حول الزاوية، بحركة رشيقة من عكازيه، وشاهد النصب المعدني، سمع الطبول. كانت موكب من فتيان الكشافة، بزيّهم الكاكي، والأوشحة الخضراء حول أعناقهم، كان يشقّ طريقها وسط الجمهور، والطبالون يقرعون إيقاعات رنانة فوق طبولهم الضخمة. انتشر الصدى في الشارع الضيق، ثم استقر في صدر «كريم»، فجعله يشعر بالإجلال والحزن، والكبرياء والتحدي.

كان جوني إلى جواره، ووالداهما قريبان في الخلف. قال حسان العابودي: أنظر إلى هاذين الولدين. إنهما لا يفترقان أبداً، ولطالما اعتقدت أنهما سيكبران معاً، كما كان حالنا.

تنحنح جورج بطرس وقال: أعرف يا حسان، أعرف. أنا آسف حقاً، لكن ماذا بيدي أن أفعل؟ المستقبل هنا. لا أعرف

ذابت بقية الكلمات في صدره.

رفع جوني قبضة يده بغضب: لا أريد. الذهاب. إلى. عمّان!

نطق كل كلمة على إنفراد، ولم يقل «كريم» شيئاً. كانت هناك مسافة قد فصلت بينهما. وعلى أية حال، مهما شعر جوني تجاه ذلك، ومهما قال، فإن الواقع يقول إن عائلته تهرب. «نحن لن نفعل»، قال كريم في نفسه بكبرياء شديد، «سنظل هنا، مهما فعلوا بنا».

دفعهم تيار البشر المتدفق خلفهم ليجدوا أنفسهم داخل الميدان.

«كريم! جوني!»

رنّ صوت الجندب مرحاً، وفاق بقوته أصوات الطبول والبشر. التفت كلاهما، وانفجر جوني ضاحكاً: ها هو هناك! أنظر!

كان الجندب، بذراعه التي لا تزال الضمادات تلفها، يعتلي أحد أعمدة الكهرباء الطويلة، ليتمكن من رؤية الجميع. نزل بسرعة عن العمود حالما رآهم يلوحون له، وخلال ثوانٍ كان بجانبهم. قال بتعجب: مرحبا كريم، لقد اختفيت ثم عدت لنا بطلاً وواحدا من جرحى الحرب، ما هذه العكازات الجميلة؟ ومتى ستتمكن من السير جيداً من جديد؟

ابتسم «كريم» إليه بحبّ: لا أدري، قريباً. لقد رأيتك هناك مع الباذنجان، ورأيتك تتأرجح فوق مدفع الدبابة، كنت رائعاً. لقد أمطروك برصاصهم بجنون. رأيت الرصاصة وهي تصيبك.

رفع الجندب كم قميصه القطني الأخضر ليكشف عن الضماد، وقال مبدياً عدم اهتمام: إصابة سخيفة، هؤلاء الجنود! لا يستطيعون إصابة فيل حتى لو حاولوا. ثمّ تنفس بعمق وقال: هل رأيتني حقاً يا «كريم»؟ وهل كنت فعلاً هناك في السيارة طوال الوقت؟ هذا ما قاله لي جوني، لم أصدّق ذلك، في الحقيقة، لقد رأيتك وأنت تقع، واعتقدت في تلك اللحظة أنهم أمسكوا بك.

ابتسم«كريم» ابتسامة ساخرة: سيكون هذا أكبر من ذكائهم. لم يتمكنوا من رؤيتي إلاّ بعد يومين.

ابتسموا جميعاً للشجاعة المشتركة. كان جوني يحرّك قدميه بقلق وانزعاج. قال أخيراً: ماذا عن سليم؟ هل أفرجوا عنه؟

علت غيمة حزينة على وجه الجندب: نعم، لقد خرج.

قال «كريم»: وما القصة إذاً، ظننتك ستطير فرحاً عند خروجه؟

أشاح الجندب بعينه عنهما: قاموا بأعمال شنيعة هناك، ضربوه ضرباً مبرحاً ووضعوا كيساً وسخاً فوق رأسه ووجهه ليحجبوا عينيه عن الرؤيا، وكان عليه أن يتنفس تلك القذارة طوال الوقت، ثم أرغموه على الجلوس على كرسي صغير ويداه مقيدتان إلى الخلف، وتركوه على ذلك الحال وقتا طويلاً. عضلاته لا تزال متشنجة حتى الآن، والألم يعصف بأطرافه.

شهق «كريم». ارتجف. كان يمكن أن يكون هذا حاله أيضاً لو أنهم أمسكوا به، أو ربما كان سيكون وضعه أكثر سوءاً.

«هل هو هنا؟» سأل «كريم». أراد أن يلتقي سليم ليقول له شكراً. لا يعلم لماذا يريد أن يشكره، لكنه رغب في ذلك.

- لا، لم يحتمل كل هذا. كان جدي معنا واصطحبه عائداً إلى البيت، أما أنا فقررت البقاء على أمل أن تحضرا وألقاكما.

قال «كريم»: هل رأيت ما حلّ بملعبنا؟

هزّ الجندب رأسه: نعم، وهل أبلغك جوني بما حلّ بجنجر؟

- نعم، فعل.

بدأ الحزن يتراكم في قلب «كريم»، ويتضاعف مع كلّ ضربة صادرة عن الطبول: فقدان جوني، دمار الملعب، الإصابة في قدمه، موت جنجر، تعذيب سليم، وهذا العدوّ الموجود أبدا، والمنتصر أبدا، والمغرور أبداً، وهذا الإذلال الذي لا ينتهي، كل هذا تجمع مستنقع من حزن.

بدا أن الآخرين يشاركونه مزاجه. وقفوا صامتين هادئين، بينما كانت الجموع تتحرك حولهم.

«من هذا يا جوني؟» جاء صوت جورج بطرس ليقطع الصمت. كان صوته مفعماً بالمرح.

التفت «كريم» ليرى أفراد العائلتين تلتفّ حولهم وتنظر إليهم. حتى سيرين، التي كانت بين ذراعي لمياء، وإبهامها في فمها ورأسها مندسّ تحت ذقن أمها، كانت تحملق في الجندب. قال جوني: بابا، هذا هو الجندب، لقد حدثتك عنه، كنا نعمل سوياً في بناء ملعب الكرة، إنه صديق «كريم» من المدرسة.

- آه، نعم، ذلك العمل المجتمعي!

وجه جورج بطرس ابتسامة ودودة نحو وجه الجندب المحيّر: أيها الأولاد، عليكم أن تحدثونا أكثر عن هذا المشروع.

قال «كريم» بسرعة: لا جدوى الآن. لقد خرّب المكان.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٠

بدا الجندب مصدوماً: لكننا سنعمل على تنظيفه من جديد، أليس كذلك؟

فكر «كريم» بالفوضى التي تعمّ ملعب الجندب، وبالأرض التي حرثتها الدبابة، وبالمخلفات التي انتشرت في كل مكان. شعر وكأن المكان صار موبوءاً، لكنه حين التقت عيناه بعيني الجندب، تذكّر اللحظة التي سبقت عودة دبابات الاحتلال إلى رام الله، عندما وصل الأولاد الآخرون، ولعبوا الكرة سوياً، وسجل هو هدفاً جميلاً، هدفاً مثالياً، فبدا أن كلّ شيء يستحقّ العناء، وأن كلّ شيء ممكن. قال «كريم»: نعم، أظن أننا سنفعل ذلك.

قال جمال بشكل غير متوقع: سوف أساعدكم. وفي الواقع إنني لا أمانع في لعبة كرة قدم.

رمقه «كريم» بنظرة امتنان، ثم أشاح بوجهه، عندما رأى فيوليت تمنحه نظرة إعجاب حزينة.

قال جورج بطرس عابسا: هذا المكان، من الذي يملكه؟

قال الجندب: الحكومة؟ سوف تبني عليه شيئاً ما. هذا ما قاله جدّي، لكنهم لا يملكون المال اللازم الآن.

قال حسن العابودي منفعلاً: الحكومة؟ تبني شيئا؟ سيكون ذلك يوما مشهودا!

قال جورج بطرس ما يشير إلى قربه من بعض المتنفذين: سأتحدث مع أناس في الوزارة بهذا الشأن. مركز للشباب! فكرة جيدة. ربما نبدأ أيضاً بحملة لتوفير دعم للمشروع حالما نصل عمان، وبمساعدة متعهدين أكفياء يمكن تنفيذه بشكل جيد.

كان يفكر بصوت عالٍ، ويتحدث بلهجة رجال الأعمال.

قال حسن العابودي بإصرار واضح على ألا يتم استثناؤه من المشروع: سأمر في المكان وألقي عليه نظرة يوماً ما. يوم أو نصف يوم عمل بالجرّافة، وسيكون المكان كله نظيفاً وجاهزاً، وسيكون لكم سطح ملعب كرة قدم جيد.

قال«كريم» وهو يتبادل النظرات مع الجندب: شكراً. لكننا سنتمكن من القيام بذلك بأنفسنا.

امتعض من فكرة تدخل الآباء واستيلائهم على المشروع، وهو لا يريد أن يرى آلة

حديدية ضخمة في ملعب الجندب مرة أخرى.

قال الجندب بهدوء، وبصوت حرص على ألا يسمعه سوى «كريم»: سيساعدنا الآخرون، محمد وعلي والبقية.

توقفت طبول الكشافة، وانطلقت مكبرات الصوت التي علقت فوق شجرة إلى جانب الميدان. جاءتهم الموسيقى صاخبة ومفعمة بالحياة والمرح لتنعش الجو وتقلب الأمزجة الحزينة التي ظهرت مع فرع الطبول. بدأت ساق «كريم» تؤلمه، لكن روحه المعنوية كانت تشفى وتتحسن وتزيح عنه غمام الحزن الذي ظلله بعض الوقت. شعر الجندب بإحساس مشابه. انطلق مبتعداً واختفى بين الجموع. قال جوني: ماذا دهاه؟ إلى أين يذهب؟

قال «كريم»: آه، أنت تعرف الجندب. لا بد وأن فكرة ما قفزت إلى رأسه.

قال جوني وهو يشير إلى النصب المعدني وسط ميدان المنارة: هذا صحيح! أنظر هناك.

كان الجندب قد اخترق الجموع نحو وسط الميدان وتسلّق النصب المعدني هناك حاملاً معه يده المصابة. لوّح لرفاقه عندما وصل القمة. حرّك الهواء في الأعلى طرف قميصه الأخضر القديم، فرفرف كالعلم. تمنى «كريم» لو أنه قادر على اللحاق به. شعر برغبة في كسر قيد العائلة من حوله والانطلاق، لكنه كان مقيداً، ليس فقط بفعل عكازه التي حملته، وإنما أيضاً بمزاجه الذي ظلّ ينطلق صاعداً وينحدر هابطا كأرجوحة عقلية. حلّق عاليا وهو يفكر بسليم وتحرره من سجنه الظالم، ثمّ هبط عندما تذكر كلّ ما عانى منه من عذاب هناك. تهاوت مشاعره أكثر عندما تذكر أن جوني سيبدأ حياة جديدة بعيداً عن فلسطين.

«لكن الجندب صديقي»، قال لنفسه، وهو معي الآن. ثم هناك يقف ملعب الجندب الذي خرّبه العدو. ذلك كاف للتأثير في قلب الإنسان. لكنه لن يسمح بذلك. ليس لوقت طويل. سيعود قريبا، عندما تتحسن ساقه. وسيبدأ من جديد، هو والجندب. وسيشركان بقية الأولاد، ليعود المكان لهم، ويلعبوا كرة القدم، ثمّ يلعبوا ويلعبوا.

قال لنفسه وهو يلوح بيده للفتى الذي اعتلى قمة السقّالة: سنتجاوز العقبات بنجاح. سنكون من الناجين.

مكتبة الرمحي أحمد ٩٠

كتبت إليزابيث ليرد العديد من كتب الأطفال الرفيعة المستوى. عانق الغبار التي تصف جانبا من تجربة الأكراد كانت قد فازت بجائزة كتاب الطفل. أما كتبها برج جاك وسماء حمراء في الصباح وأصدقاء خفيون فقد ترشحت كلها لنيل ميدالية كارنيجيك. سافرت إليزابيث برفقة زوجها الكاتب ديفيد مكدويل إلى أرجاء الشرق الأوسط وعاشت في لبنان خلال الحرب الأهلية. عشية البدء ببحثها لكتابة قطعة صغيرة من الأرض، اتصلت بالدكتورة سونيا النمر المحاضرة في جامعة بير زيت لتتعاونا سويا في البحث. تختص د. سونيا بسرد قصص الأطفال وترجمتها إلى العربية، كما كتبت ثلاثة قصص للأطفال، وهي تعيش حاليا في رام الله مع زوجها وابنها.

ما الذي أريد أن أكونه في حياتي

بقلم : «كريم» عابودي
رام الله- فلسطين

بطل العالم في كرة القدم

شخصية مشهورة وسيم الطلعة
وأطول من «جمال»

أهم وأفضل مخترع للألعاب
الالكترونية

مخترعا لمادة كيميائية تذيب
الحديد الذي تصنع منه الدبّابات
الإسرائيلية

«يعتبر هذا الكتاب شجاعاً وجاداً، وناجحاً بالوصول إلى الناس وإسماع هذه الرواية»

مايكل روزن
Books for keeps

مكتبة الرمحي أحمد

مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي
Tamer Institute for Community Education

ISBN 978-9950-326-39-2

@ktabpdf تيليجرام